من قضايا القرآن والإنسان

في فكر النورسي

من قضايا القرآن والإنسان

في فكر النورسي

نظرة تجديدية ورؤية إصلاحية

إعداد

أ.د. زياد خليل الدّغامين

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة آل البيت

المملكة الأردنية الهاشمية

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

مقدمة ٩

الفصل الأول: إعجاز القرآن الكريم

مقدمة ١٧
المبحث الأول ٢١
١. في معنى المعجزة والإعجاز لغة واصطلاحا ٢١
٢. طريق إثبات إعجاز القرآن ٢٢
٣. مراحل التحدّي ٢٣
المبحث الثاني ٢٤
الوجه الأول: إعجاز نظم القرآن ٢٥
الوجه الثاني: جامعية القرآن الخارقة ٤٣
الوجه الثالث: الإعجاز المعرفي والحضاري ٤٥
الوجه الرابع: التكامل المعرفي ٤٨
الوجه الخامس: الوحدة البنائية للقرآن الكريم ٥١
الوجه السادس: إقامته لمنهجية التوازن ٥١
الوجه السابع: حاكمية القرآن وهيمنته ٥٣
الوجه الثامن: إخباراته الغيبية ٥٣
الوجه التاسع: خطابه كلّ طبقة من طبقات الناس ٥٤
الوجه العاشر: تأسيسه للدّين وتبديله للحياة ٥٥
الوجه الحادي عشر: عدم معارضته مع طول الزمان ٥٥
الوجه الثاني عشر: الإعجاز العلمي ٥٦
الوجه الثالث عشر: القرآن هو الطريق الموصل إلى معرفة الله تعالى ... ٥٦
المبحث الثالث ٥٧
خاتمة الفصل ٥٩

الفصل الثاني: بيان مقاصد القرآن

مقدمة ٦٥
المبحث الأول ٦٩
المبحث الثاني ٧٨
تمهيد: ٧٨
المطلب الأول: المقصد الكلي ٨٣
المطلب الثاني: المقاصد الرئيسة الأربعة للقرآن الكريم ٨٤
المطلب الثالث: مقاصد السور القرآنية ٩٣
المطلب الرابع: مقاصد الآيات القرآنية ٩٥
خاتمة الفصل ٩٩

الفصل الثالث: بيان تكريم الإنسان في القرآن الكريم

مقدمة ١٠٥
المبحث الأول ١٠٩
١. الخلقة السويّة المتفوّقة ١٠٩
٢. الطبيعة الجامعة للحقائق الكاملة ١١٠
٣. الإنسان الرباني قطب الكائنات ومحورها ١١١
المبحث الثاني ١١٣
١. الإيمان بالله ومعرفته أشرف غاية ١١٣
٢. العلم والعقل يؤكدان حقائق الإيمان ١١٤
٣. أثر معرفة الله في الإنسان ١١٦
٤. شرف المهمّة: الخلافة والعمارة ١١٨
المبحث الثالث ١٢١
١. أثر النبوّة على الطبيعة الإنسانية ١٢٣
٢. التكريم باتّباع السنّة ١٢٤
المبحث الرابع ١٢٥
المبحث الخامس ١٢٨
المبحث السادس ١٣١

المبحث السابع ١٣٣
خاتمة الفصل ١٣٧
الفصل الرابع: بيان أبعاد الآخرة في واقع الإنسان
مقدمة ١٤٣
المبحث الأول: الأبعاد المعرفية للإيمان بالآخرة ١٤٧
١. كثافة الأدلة وتنوعها ١٤٨
٢. الجمال الإلهي الباهر يقتضي الآخرة ١٥٣
٣. أركان الإيمان تثبت الحشر ١٥٧
٤. النظام الكوني يثبت الآخرة ١٥٩
٥. الفطرة واستعدادات البشر يثبتان الآخرة ١٦١
المبحث الثاني: الأبعاد التربوية للإيمان بالآخرة ١٦٤
١. تحقيق غاية الحياة الدنيا ١٦٥
٢. الموت رحلة إلى الدّار الآخرة ١٦٨
٣. تحقيق الكمالات الإنسانية ١٧٠
٤. ضبط العلاقات الاجتماعية وتوجيهها ١٧٤
خاتمة الفصل ١٧٧
الفصل الخامس: بيان العولمة في عالم الإنسان
مقدمة ١٨١
المبحث الأول: أخلاقيات العولمة ١٨٤
١. أخلاقيات المدنية الحديثة ١٨٤
٢. أخلاقيات العولمة في ميدان السياسة ١٨٨
٣. أخلاقيات العولمة في ميدان الاقتصاد ١٩٣
٤. أخلاقيات العولمة في ميدان المرأة ١٩٦
المبحث الثاني ١٩٩
١. مفهوم العدالة بين الإسلام والعولمة ١٩٩
٢. أقسام العدالة ٢٠٠
٣. موقع العدالة بين الإسلام والعولمة ٢٠٢

٤. تطبيقات العدالة في المجال السياسي ٢٠٤
٥. تطبيقات العولمة في المجال الاجتماعي ٢١٣
٦. كبت الحريات ومصادرتها ٢١٣
خاتمة الفصل ٢١٩
خاتمة الكتاب..... ٢٢١

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين الذي هيّا لهذه الأمة من يجدّد لها أمر دينها على رأس كلّ مائة سنة، تصديقا لقوله ﷺ: "إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا".[1] وهذا التجديد للدين يمثل عملية بعث روحي ومعرفي في حياة الأمة، وهو ضمان وجود الحقّ على وجه الأرض، وهو دليل عناية الله تعالى بدينه وحفظه له إلى يوم الدين.

هذا البعث الروحي والمعرفي يتناغم مع حاجة الضمائر الحية والنفوس الطاهرة إلى التغيير والإصلاح، ويتلاءم مع البحث عن الهداية الإلهية في كلّ ما يجدّ في حياة الناس من حاجات وما يعرض لها من تطورات، ليأخذ الحقّ مكانه اللائق في المجتمع والأمّة، وليتمكن الناس من العيش بأمان في ظلّ تلك الهداية، وليعود الباطل وأهله إلى الحجم الطبيعي الذي يمثلونه في المجتمع السليم، والذي لا يكون وجوده إلا طارئا أو نشازا؛ لأنّ الإنسان بطبعه مفطور على حبّ الحقّ، والانقياد له.

وهكذا، تمضي سنّة الله تعالى في خلقه لم تتخلّف عبر العصور، ولم تتوقف لسبب أو لآخر، ويأتي المصلحون في كلّ عصر يبعثون نفوس الناس نحو الإيمان الحق بالله تعالى واليوم الآخر، لتمتلئ قلوبهم الفارغة بالإيمان، وتترع نفوسهم الخاوية باليقين، ويقوى فيهم داعية حبّ الله والعمل الصالح، فتبدأ عملية التغيير من هنا، من حيث توافر الإرادة والعزيمة لدى كلّ فرد نحو التغيير، إنّها إرادة التغيير قبل كلّ شيء، وإنّها عزيمة الإصلاح قبل كلّ فعل. فإذا ما صحّ العزم، وتحقّقت الإرادة، وصدقت النيّة، فإنّ عملية التغيير تنطلق يحدوها الأمل والتوكل على الله تعالى نحو الرقيّ والنهضة والصلاح مستبشرة بالنجاح والتوفيق.

---

(١) السجستاني، سليمان بن الأشعث، أبو داوُد. السنن، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: دار الفكر، (بدون تاريخ). كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة. ج ٢، ص ٥١٢، ح ٤٢٩١.

لقد ضمن الله سبحانه وتعالى حفظ القرآن الكريم، وبحفظه يحفظ وجود الحقّ قائما إلى يوم الدين، وببقاء الحقّ في الحياة ضمان لاستقلاله وتميّزه وعدم تداخله بالباطل واختلاطه به بحيث يصعب على الناس التمييز بينهما، كلاّ، "فالحلال بيّن والحرام بيّن"، والحقّ بينّ والباطل بيّن، والإيمان بيّن والكفر بيّن... كلّ ذلك بيّن بفضل حفظ ذلك الكتاب الذي يمثل المعيار الحق، والميزان العدل، والقسطاس المستقيم، قال تعالى: ﴿لاَ تَبدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾(يونس:٦٤).

ويمثل هذا المعيار -أيضا- المرجعية الأولى للناس في شؤون حياتهم ومعاشهم، وفي شؤون عالم الغيب والشهادة، وفي شؤون الفرد والأمة. غير أنّ هذه المعيارية لا تصحح بنفسها الاعوجاج ولا تقوّم الفساد ما لم ينهض لذلك مصلحون أشداء، وعلماء عاملون قادرون على الاجتهاد، يملكون القدرة على فهم النصّ، وتتوافر لديهم الإمكانية على فهم الواقع وسبر أغواره، ومعرفة ما يدور فيه، هذه المؤهلات ينبغي توافرها في المصلحين المجدّدين لأمر الدين؛ لإحياء تعاليمه في عالم الواقع.

إنّ بديع الزمان سعيد ميرزا النورسي (١٢٩٤-١٣٧٩ هـ) كان أحد أولئك المصلحين المجدّدين، وهو قبل ذلك مجاهد كبير قارع الرّوس ووقف في وجوههم... حتى وقع في أسرهم إبّان الحرب العالمية الأولى... وكتب الله له النجاة، فأفلت من الأسر وهو مثخن الجراح، وكانت نجاته أعجوبة، وآية فيها الكثير من العبر. لقد بذل نفسه رخيصة في سبيل الانتصار لهذا الدين، فجاهد بالسيف، ولم يشأ أن يفوّت جهادا من نوع آخر، هو جهاد العلماء الذين يبيّنون الحقّ للناس، ويوجّهونهم نحو الإيمان بالله والعمل الصالح، وكان كتابه "إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز" مظهرا من مظاهر جهاده في سبيل الله، فشرح معاني القرآن وبيّن آيات إعجازه.

لقد عاد من الأسر ليباشر مرحلة جديدة من الدعوة إلى الله تعالى، وتربية أجيال الأمة المسلمة في حاضرة الدولة العثمانية، وتوجّه -بكلّ ما أوتي من جهد- إلى إعزاز الحقّ وخذل الباطل ما استطاع إلى ذلك سبيلا، لقد هاله وأفزعه تلك الحملة الإلحادية على الإيمان وأهله، فانبرى يحمل لواء الإيمان

في وجه الظلمة وأعوان الظلمة ممن انتسب إلى هذه الأمة زورا وبهتانا، وممّن وقف في وجهها من أعدائها المتربصين بها قبل ذلك، وهو الذي قال في مواجهة الذين يعملون لحساب الملاحدة وبدؤوا بسنّ القوانين التي تدين من يعمل لآخرته ولإيمانه: "إنّي أقول لكم دون خوف أو خشية: إنّه لو كان لي ألف نفس لما ترددت في التضحية بها في سبيل إيماني وفي سبيل آخرتي، واعملوا أنتم ما بدا لكم! وسيكون آخر كلامي: حسبنا الله ونعم الوكيل".[٢]

بل نذر نفسه، وبذل وقته وجهده كلّه في سبيل الانتصار لدين الله سبحانه لا يفتر عن ذلك، حتى عزف عن الزواج رغبة في هذا الجهاد، فحين سئل عن سبب عدم زواجه أجاب: "في الوقت الذي يلزم لصدّ هجوم زندقة رهيبة تُغير منذ أربعين سنة - فدائيون يضحّون بكلّ ما لديهم، قررت أن أضحي لحقيقة القرآن الكريم لا بسعادتي الدنيوية وحدها، بل إذا استدعى الأمر بسعادتي الأخروية كذلك، فلأجل أن أتمكن من القيام بخدمة القرآن على وجهها الصحيح بإخلاص حقيقي ما كان لي بدّ من ترك زواج الدنيا الوقتي -مع علمي بأنّه سنّة نبوية- بل لو وُهب لي عشر من الحور العين في هذه الدنيا، لوجدت نفسي مضطّرة إلى التخلّي عنهن جميعاً لأجل تلك الحقيقة، حقيقة القرآن؛ لأنّ هذه المنظمات الملحدة الرهيبة تشن هجمات عنيفة، وتدبّر مكايد خبيثة، فلابدّ لصدها من منتهى التضحية وغاية الفداء، وجعل جميع الأعمال في سبيل نشر الدين خالصة لوجه الله وحده، من دون أن تكون وسيلة لشيء مهما كان".[٣]

أقول: من واقع التحدّي نهض سعيد النورسي يهيّئ الأجواء لعملية إصلاح كبيرة تعيد بناء الأمة في ضوء تعاليم دينها عقيدة وتصوّرا، وفكرا وسلوكا، وتؤهّل أبناءها بسلاح الإيمان للوقوف في وجه الغزاة والدّخلاء ثقافة ومعرفة وإيمانا. لقد أعاد الحديث في كثير من قضايا القرآن الكريم، والإنسان الخليفة

---

(٢) النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. الشعاعات، ترجمة: إحسان الصالحي، إسطنبول: سوزلر للنشر،١٩٩٣، ص ٤٢٦.

(٣) النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. الملاحق، ترجمة: إحسان الصالحي، إسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٥، ص ٤٠٠-٤٠١. والتضحية بالسعادة الأخروية قد لا يكون مفهوما إلاّ إذا كان حبّ الله تعالى هو غاية الغايات.

في الأرض، وتوجّه إلى إحياء معاني الإيمان في النفوس، وقدّم طروحات جديدة لكثير من تلك القضايا في ضوء الواقع الذي عاشه، فاستطاع أن يسهم في إعادة الإيمان إلى النفوس، ونجت حاضرة الدولة العثمانية -بفضل جهود إصلاحية متعاقبة متراكمة- من محاولات فرنجتها وإخراجها من دينها وملّتها، وأفلتت من زمام التبعية المطلقة لأعدائها على الرغم من هيمنة عصبة من أبنائها على مقاليد الأمن فيها تحذو حذو التبعية للغرب شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبّ ما تردّدت هذه العصبة في اتّباعهم، وتقف اليوم حارسا أمينا للغربية اللادينية.

وستكون هذه الدّراسة في نطاق رسائل النور، وهي ما كتبه النورسي لإنقاذ إيمان العوام، ومواجهة موجة الإلحاد التي غزت العالم الإسلامي، وكشف أباطيل المدنية الحديثة الوافدة من أوروبا وخداعها للإنسان. وقد أعدّ هذه الرسائل لتكون تفسيرا للقرآن الكريم، واشتملت في مضمونها على إثبات قضايا الإيمان الكبرى: الإيمان بالله واليوم الآخر. وقد بلغت مائة وثلاثين رسالة ونيفا، أشهرها: "إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز" الذي اشتمل على تفسير الفاتحة وثلاث وثلاثين آية من سورة البقرة.

وكُتبت فصول هذا الكتاب وبحوثه مُحاوِلةً تجسيد معالم التجديد في فكر النورسي إزاء بعض قضايا القرآن الكريم، ومبيّنة ما تضمنته أفكاره من نظرات إصلاحية في فهم حقيقة الإنسان وقضاياه، إضافة إلى شيء لا يقلّ أهمية في هذا الفكر النوري، وهو وقوفه على كثير من أوجه الضعف في المدنية الغربية ونظام حياتها في السياسة والاقتصاد، والتربية والاجتماع... فأخذ يقارعها فكرا بفكر حتى كشف عن سوآتها وعوارها فأظهرها على حقيقتها، وحذّر أبناء الأمّة من الانجراف وراء مدنيتها المزخرفة المزيّنة ظاهرا، والقبيحة حقيقة وباطنا.

إنّ فصول هذا الكتاب في الأصل بحوث تم نشرها في مجلات علمية محكّمة، ووقع بعضها في مشاركات في مؤتمرات علمية عالمية في تركيا. وقد ارتأيت أن أجعل هذه البحوث في سفر واحد يسهل الرجوع إليه، ويذلل للقارئ سبيل الوقوف على رؤى النورسي في الإصلاح والتجديد. وسيشار في كلّ بحث إلى موضع نشره موثقا. وارتأينا أن يكون العنوان الجامع لهذه الفصول:

"من قضايا القرآن والإنسان في فكر النورسي: رؤية تجديدية ونظرة إصلاحية"؛ لعدم إمكانية بيان كلّ القضايا التي اشتملت عليها رسائل النور، ولكني أحيل القارئ إلى ما صدر عن عشرات الندوات والمؤتمرات العالمية والإقليمية التي تناولت فكر النورسي في مختلف ميادين المعرفة للوقوف -بصورة أشمل- على معالم الإصلاح ورؤى التجديد في فكره.

وسيظهر -للقارئ- عند الوقوف على حقيقة أفكار النورسي في كلّ فصل من فصول هذا الكتاب أنّ النورسي -رحمه الله- مجدّد في كلّ ما يتناوله من فهم للقرآن وقضايا الإنسان. ولعلّه من القلّة القليلة من العلماء الذين أبرزوا إعجاز القرآن الكريم في أبعاده الإيمانية والتربوية والاجتماعية والإنسانية والدّعوية، فضمّ إلى جمهور المهتمّين بالإعجاز وقرّائه القطاع الأوسع من جمهور العوام، فأصبح هذا الجمهور متشوّقا إلى فهم حقيقة الإعجاز، وأصبح الإعجاز بالنسبة إليهم محطّ الاهتمام والعناية.

لكن، لن نقف عند حدود ما تمّ نشره في هذه البحوث في تلك المجلات أو المؤتمرات، فهي متاحة لأن تقبل التطوير والإضافة، ولذلك ستتضمن هذه البحوث إضافات ضرورية، وزيادات لا غنى عنها اقتضتها القراءة المستمرّة في رسائل النور، والنظر المتكرر في تلك الرسائل.

وستقع هذه الدراسة تحت العنوان الذي ارتضيناه في خمسة فصول وخاتمة، هي على النحو الآتي:

الفصل الأول: بيان إعجاز القرآن الكريم، ويشتمل على ثلاثة مباحث، هي:

المبحث الأول: في معنى المعجزة والإعجاز وطريق إثباته ومراحل التحدّي

المبحث الثاني: وجوه إعجاز القرآن الكريم

المبحث الثالث: شبهات على إعجاز القرآن الكريم

الفصل الثاني: بيان مقاصد القرآن الكريم، ويشتمل على مبحثين اثنين، هما:

المبحث الأول: بيان آراء العلماء في مقاصد القرآن الكريم

المبحث الثاني: بيان مقاصد القرآن في فكر النورسي

الفصل الثالث: بيان تكريم الإنسان في القرآن الكريم، ويشتمل على تمهيد وسبعة مباحث، هي:

تمهيد: في مفهوم التكريم الإلهي للإنسان

المبحث الأول: طبيعة خلق الإنسان وأهميّة موقعه

المبحث الثاني: سموّ الهدف ووضوح الغاية وشرف المهمّة

المبحث الثالث: التكريم بالنبوّة

المبحث الرابع: التكريم بالعبادة

المبحث الخامس: التكريم بالتسخير

المبحث السادس: التكريم بالمصير الأخروي

المبحث السابع: مفسدات التكريم

الفصل الرابع: بيان أبعاد الآخرة في واقع الإنسان، ويشتمل على مبحثين اثنين، هما:

المبحث الأول: الأبعاد المعرفية للإيمان بالآخرة

المبحث الثاني: الأبعاد التربوية للإيمان بالآخرة

الفصل الخامس: بيان العولمة في واقع الإنسان، ويشتمل على مبحثين اثنين، هما:

المبحث الأول: بيان أخلاقيات العولمة

المبحث الثاني: بيان العدالة في ضوء العولمة وتطبيقاتها في المجالين السياسي والاجتماعي

وأما الخاتمة، فسأجعل في كلّ فصل خاتمة تفصيلية بموضوع ذلك الفصل، وستكون هناك خاتمة إجمالية في نهاية فصول هذا الكتاب.

أ.د. زياد خليل الدغامين
أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة آل البيت
عمّان في ٢٧ من رمضان لعام ١٤٢٩هـ
الموافق للسابع والعشرين من أيلول لعام ٢٠٠٨م

الفصل الأول

بيان إعجاز القرآن الكريم

المبحث الأول

في معنى المعجزة والإعجاز وطريق إثباته ومراحل التحدّي

المبحث الثاني

وجوه إعجاز القرآن الكريم

المبحث الثالث

شبهات على إعجاز القرآن الكريم

خاتمة الفصل

تشمل أهم النتائج

الفصل الأول

إعجاز القرآن الكريم(٤)

مقدمة

ما زال العلماء يقرؤون القرآن ويدرسونه فيجدونه كريما معطاء قادرا على أن يواجه المناهج الوضعية، والمذاهب الفلسفية، وقادرا على أن يبيّن حكم الله وهدايته في مستجدات الحياة في الأزمنة كلّها، وما يزال باب التحدّي مشرعا على مصراعيه، يتحدّى الإنس والجنّ في رسم طريق الحياة وبيان معالم سعادة الإنسان فيها أو شقائه، وإيضاح أصول المعرفة ومنهج الفكر، وفي وضع أسس الحضارة وقواعد الرقيّ والنهضة في ضوء هداية الوحي. فيَظهرُ لهم كلّ يوم وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وقديما قالوا: إنّ روعة بيانه هي التي أعجبت الفصحاء، وخطفت عقولهم. وقالوا: إنّه معجز بما تضمنه من أخبار عن الغيب وتنبؤات عن المستقبل القريب والبعيد. وقالوا: إنّ من وجوه إعجازه تأثيره في القلوب وصنيعه في النفوس، فإنّك لا تسمع كلاما قط منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص إلى القلب كالقرآن الكريم. وقالوا: انّ من وجوه إعجازه ما تضمنه واحتواه من حقائق علمية عن الكون وسننه، وآيات الله تعالى فيه. وقال المحدثون من العلماء: إنّه معجز بما تضمنه من قوانين في التربية والتشريع والأخلاق... وظهر حديثا القول بوجه جديد من وجوه إعجازه، هو الإعجاز المنهجي والمعرفي، ويأتي بديع الزمان ليقول: إنّ القرآن بحر المعجزات ومنبعها.

إنّ معظم الذين كتبوا في إعجاز القرآن من المحدثين -إن لم يكن كلّهم- لم يتنبهوا إلى ما كتبه بديع الزمان، على الرغم ممّا تميّز به طرحه في فهم الإعجاز،

---

(٤) نشر هذا البحث بعنوان: منهج النورسي في بيان إعجاز القرآن الكريم، ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثالث لفكر النورسي وعنوانه -المؤتمر- تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي، الذي عقد في إسطنبول في الفترة: ٢٤-١٩٩٥/٩/٢٦. وصدرت أعماله في مجلد عن شركة نسل، إسطنبول، ١٩٩٦. ص ٢٦٥-٢٩٢.

والنهج الفريد الذي نهجه في بيانه، وهو طرح جدير بالاهتمام والدراسة، فحديثه في الإعجاز جاء متميّزا؛ فقد عاش وقد حلّ بالأمةّ أحوال عصيبة، ونوازل مفجعة أليمة، وعاصر سقوط الخلافة، ومجئ شرذمة عزمت على مسخ عقيدة الأمة وأخلاقها، وهدفت إلى عزلها عن دينها وتراثها وإلحاقها بركب الحضارة الغربية الحديثة طائعة أو مرغمة... وهبَّ النورسي يعلن التحدّي بالقرآن، فالمعركة في حقيقتها بالنسبة إليه معركة فكرية معرفية عقائدية حضارية.

لقد عاش رحمه الله -كغيره من العلماء العاملين، والأولياء الصالحين- مع القرآن الكريم لا يتركه ولا يفارقه، ولقد كان في جبهات القتال إبّان الحرب العالمية الأولى يتحدّى بالسّلاح مرّة وبالقرآن مرّات. وكتب مؤلفه القيّم "إشارات الإعجاز" في خنادق القتال. وعلى الرغم من أنّ حياته كانت مليئة بالأحداث، ولكن لا بأس من الوقوف عند المحطات البارزة في فكره وحياته، وهي مواقف وأفكار تؤكد سعة أفقه، ونضج تفكيره، وعمق نظره، وحصافة رأيه.

- لقد دعا بل قام بجهود حثيثة لإنشاء جامعة إسلامية "مدرسة الزهراء" ترتكز على التكامل المعرفي، وتقوم على أساس عدم الفصل بين العلوم فيدرس القرآن الكريم والسنة النبوية إلى جانب العلوم المعاصرة، وقد قال مبينا أهمية تلك الجامعة: لقد بذلت جهدي كلّه لتأسيس هذه الجامعة في مركز الولايات الشرقية التي هي وسط بين الهند والبلاد العربية وإيران والقفقاس وتركستان، وسميتها مدرسة الزهراء، فهي مدرسة حديثة ومدرسة شرعية في الوقت نفسه.(٥) ولتكون المنبر الموجّه لذلك الصراع الفكري الحضاري مع الغرب وفلسفته المادية، ولقد قال إثر تصريح وزير المستعمرات البريطانية بضرورة إزالة القرآن من الوجود: لأبرهنّ للعالم بأنّ القرآن شمس معنوية لا تنطفئ، ولا يمكن إطفاء نورها.(٦)

ولعلّ النورسي رحمه الله في دعوته تلك مدرك لفكرة التكامل المعرفي بين العلوم، وما له من آثار إيجابية على شخصية المسلم، يشهد لهذا إدراكه ودراسته للرياضيات، والفلك، والكيمياء، والفيزياء، والفلسفة، والجيولوجيا، والتاريخ،

(٥) النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. سيرة ذاتية، ترجمة: إحسان الصالحي إسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٨، ص ٥٠٠.

(٦) المصدر السابق نفسه، ص ٦٦.

والجغرافيا، والعودة بها إلى هداية القرآن الكريم. وتفسيره لآيات القرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة، حتى أضحى مَعْلَماً من معالم هذه الفكرة.

– كان رحمه الله ابن عصره وابن بيئته، متيقظا لما يحيكه الماكرون لهذا الدين وأهله، واقفا على كلّ حدث ومتفاعلا معه بإيجابية. ولقد سخّر وقته وقلمه للذبّ عن هذا الدين، والتحدّي به، وكتب رسائل النور التي نبعت من بيئة التحدي، فجاءت رداً مقنعا على فلسفة الغرب الماديّة ومدنيته المزيّفة: ذلك أنّ فهمه للقرآن ووصفه له مكّنه من الوقوف على أسراره وحقائقه، فالقرآن في نظره هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسّر كتاب العالم... وهو لسان الغيب في عالم الشهادة... وهو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي، وهو خريطة للعالم الأخروي... وهو مربّ للعالم الإسلامي، وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية... وكذا هو للإنسان كما أنّه كتاب شريعة كذلك هو كتاب فكر، وكما أنّه كتاب واحد لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية[٧] وهذا بالتأكيد فهم شمولي عميق لغايات القرآن وأهدافه ومقاصده، وله أثر جليّ في بيانه لإعجاز القرآن الكريم، فالقرآن الكريم يمتدّ في نظر النورسي ليشكل قلب الحياة، حياة الإنسان والكون والكائنات. ومن هذه الأرضية المعرفية بالقرآن ينطلق في بيان إعجازه.

ويحدّد ستّ جهات للقرآن الكريم من شأنها أن توصل إلى معرفة الله تعالى حقّ المعرفة، وتبيّن له أسس التصوّر الحقّ إزاء كلام الله المنزّل، وهذه الجهات هي:

الجهة الأولى: نقطة استناده، وهي الوحي.

الجهة الثانية: هي سعادة الدارين يستهدفها، فقد امتدت ارتباطاته وعلاقته بالأبد والآخرة.

الجهة الثالثة: هي شارة الإعجاز الظاهر.

---

(٧) النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، تحقيق: إحسان الصالحي، إسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٤، ص ٢٢.

الجهة الرابعة: هي أعمدة البراهين الرصينة والدلائل الدامغة.

والجهة الخامسة: وهي استشهاد الوجدان حتى ينطق من إعجابه "تبارك وتعالى" بما ينفخ من نفحات روحية للقلب.

الجهة السادسة: هي استنطاق العقول وتصديقها؛ لكثرة ما فيه "أفلا يعقلون".

وثماره ثمار يانعة ذات حياة وحيوية، فلا غرو أنّ جذور شجرة القرآن متوغّلة في الحقائق ممتدّة في الحياة، وأنّ حياة الثمرة تدلّ على حياة الشجرة، فانظر كم أعطى القرآن من ثمار الأصفياء والأولياء والصديقين والصالحين المتحلّين بكمالات الإنسانية بعين اليقين!.[٨]

هذا المفهوم الشمولي للقرآن استقاه بديع الزمان من التأمّل والتدبّر في آيات القرآن الكريم نفسه، بل من الحياة مع القرآن. وكذا استخراجه وجوه الإعجاز الأخرى، إنّما كانت ثمرة وحصيلة لذلك التدبّر المستمر؛ ممّا يؤكد قيام منهج النورسي -بصفة عامة- على النظر والتفكر الأمر الذي يكسبه أصالة واستقلالية في البحث والنظر على الرغم من اطّلاعه الواسع على تراث العلماء السابقين.

- لا شكّ أنّ الثقافة الواسعة التي تميّز بها النورسي، ودراسته لكثير من العلوم المعاصرة كان لها أثر كبير في فهمه للقرآن وإعجازه وتفسيره.

وفيما يخصّ بيان منهجه في الإعجاز فقد تتبعت حديثه الطويل المتكرر في أكثر من رسالة من رسائله المفرّقة، والمجموعة في "الكلمات، واللمعات، والمكتوبات والإشارات" وقارنت بينها، ورتّبت كلامه في ذلك. ولما كان النورسي متأثراً بالجرجاني والزمخشري والسكّاكي آثرت أن أبين أقوالهم وأقارنها بقوله، وأبين ما زاد عليهم في ذلك: ولهذا عقدت مبحثا للمقارنة بينه وبين الزمخشري في تفسير بعض الآيات؛ ليعلم أنّ النورسي رحمه الله عرف الإعجاز وتذوّقه، ولم يقف عند حدود ما ذكره العلماء المتقدّمون عليهم رحمة الله تعالى.

وعرّفت قبل ذلك بالمعجزة والإعجاز، وفصّلت القول في إعجاز النظم، ثم بيّنت وجوه الإعجاز عند النورسي دون أن أتقيّد بعدد وجوه الإعجاز التي

(٨) النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. الكلمات، ترجمة: إحسان الصالحي، إسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٢، ص ٢٤٨-٢٤٩.

أشار إليها في رسائله، وكنت أضع عناوين جديدة لتلك الوجوه تطابق تماما مضمون الكلام تحتها، وكنت أختصر في نقل أقواله، أو أعبر بالفكرة والمفهوم، وأناقشه في بعض القضايا، وخلصت من هذا البحث إلى نتائج عديدة جعلتها خاتمة الفصل.

المبحث الأول

في معنى المعجزة والإعجاز وطريق إثباته ومراحل التحدّي

١. في معنى المعجزة والإعجاز لغة واصطلاحا

ذكر الراغب الأصفهاني في مفرداته أنّ الفعل الثلاثي "عَجَز" مأخوذ من عجز الإنسان، وهو مؤخّره، وبه شبّه مؤخر غيره، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ﴾(القمر:٢٠). والعجز: أصله التأخّر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر، أي: مؤخّره كما ذكر في الدبّر. وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾(المائدة:٣١). وأعجزت فلانا وعاجزته جعلته عاجزاً. والعجوز سميت لعجزها في كثير من الأمور.[٩]

والمعجزة في الاصطلاح: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدّي، سالم عن المعارضة[١٠] وهو دليل يجريه الله تعالى على يد مدّعي النبوة تصديقا له.[١١*]

وتعريف النورسي لا يخرج عن هذا المعنى، فقد قال: "المعجزة بحدّ ذاتها تصديق من ربّ العالمين لدعوى رسوله الكريم، أيّ: كأنّ المعجزة تقوم مقام

---

(٩) الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب. المفردات، تحقيق: محمد سيّد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، بلا تاريخ، ص ٣٢٢-٣٢٣.

(١٠) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. الإتقان في علوم القرآن، بيروت: المكتبة الثقافية، ١٩٧٣، ج٢، ص١١٦.

(١١) في هذا المعنى الذي ذكره العلماء للمعجزة نظر، ولا بدّ من التفريق بين الآية والمعجزة، راجع بحثنا "محدّدات علاقة القرآن الكريم بالكتب الإلهية السابقة ومقاصدها وأبعادها المنهجية" مجلة الشريعة والقانون، جامعة الإمارات، العدد ٣٤ لسنة ٢٠٠٨، ص ٢١٠.

قول الله: صدق عبدي فأطيعوه".[١٢] ويرى أنّ المعجزة تأتي لإثبات دعوى النبوّة عن طريق إقناع المنكرين، وليس إرغامهم على الإيمان.[١٣] وهذه إشارة لطيفة تدلّ على طبيعة المنهج الذي سلكه في بيانه للإسلام عامة والإعجاز خاصّة، وقد اكتسبه من القرآن الكريم، وحذا حذوه في رسائله كلّها، أعني: مسلك الحجّة والإقناع.

٢. طريق إثبات إعجاز القرآن

أشار النورسي إلى أنّ إعجاز القرآن يعرف بثلاثة طرق كما حقّقها الجرجاني والزمخشري والسكّاكي والجاحظ، هي:[١٤]

طلوع القرآن على العرب ببلاغته العجيبة وعجزهم عن معارضته.

شهود ألوف الألوف من أهل العلم والتدقيق بأنّه جامع لمزايا ولطائف وحقائق لا تجتمع في كلام بشر. وأحدث تحوّلا في العالم الإنساني عظيما. وأسس ديانة واسعة.

والثالث -كما حققه الجاحظ- ترك الفصحاء والبلغاء معارضته مع شدّة احتياجهم إلى إبطال دعوى النبيّ ﷺ.

وأضاف أنّ استقطاب القرآن لاهتمام الآلاف من العلماء الذين درسوا القرآن من كلّ ناحية لهو دليل قاطع على أنّه معجزة إلهية.[١٥]

ويصف إعجاز القرآن بقوله: "اعلم! أنّ إعجاز القرآن حفظ القرآن من التحريف، فلا يتيسر لكلام مفسّر أو مؤلف أو مترجم أو محرّف وغيره أن يلتبس بالآيات، أو يلبس زيّها، كما التبست واختلطت سائر الكتب المنزّلة حتى صارت محرّفة".[١٦] فبقاء القرآن الكريم على الحال الذي نزل عليه وقد مضى على

(١٢) النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. المكتوبات، ترجمة: إحسان الصالحي، إسطنبول: سوزلر للنشر،١٩٩٢، ص ١١٤.

(١٣) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٢. والنورسي، الكلمات، مصدر سابق، ص ٧٠٣.

(١٤) النورسي، إشارات الإعجاز، مصدر سابق، ص ١٧٩-١٨١.

(١٥) انظر: الشعاعات، ص ١٨٠، و الكلمات، ص ٥٢٣.

(١٦) النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. المثنوي العربي النوري، تحقيق: إحسان الصالحي، إسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٤، ص ١٨٩.

نزوله خمسة عشر قرنا لهو دليل واضح على إعجاز القرآن من حيث صدق ما أخبر به الله تعالى من حفظه، وسيمتدّ هذا الحفظ إلى يوم الدين على الرغم من كلّ محاولات النيل من هذا الكتاب الخالد.

٣. مراحل التحدّي

ذكر النورسي مراحل التحدّي في عدّة مواطن من رسائله، فأوصلها مرّة إلى تسع مراحل، ومرّة يقتصر على ثمان مراحل، هي:[١٧]

- أن يأتي بمثل هذا القرآن رجل أميّ مثل محمّد ﷺ.
- فإن لم يكن -أمّيا- فليأت به عالم عظيم، وليس أميّاً.
- فإن لم يكن باستطاعة واحد أن يأتي به فأتوا بمثله مجتمعين.
- فإن لم يكن، فاستعينوا بالكتب السابقة البليغة في المعارضة، بل ادعوا الأجيال المقبلة كذلك.
- فإن لم يكن، فأتوا بعشر سور مثله.
- وإن لم يكن كلاما بليغاً فأتوا بها مفتريات.
- فإن لم يكن، فأتوا بسورة واحدة، ولتكن قصيرة.
- وإلاّ فإنّ أديانكم وأنفسكم مهدّدة بالخطر في الدنيا والآخرة.

وزاد في موضع آخر فجعل المرحلة السابعة في مرحلتين: التحدي بسورة طويلة، ثم التحدّي بسورة قصيرة.[١٨]

أمّا في إشارات الإعجاز فجعلها في تسع مراحل، لكن مع شيء من الاختلاف، وهو: أنّه ذكر في المرحلة الأولى أنّ التحدّي بالقرآن كاملا من حيث الحقائق والعلوم والإخبارات الغيبية مع نظمه العالي من رجل أميّ. وجعل المرحلة الثانية الإتيان بمثلها مفتريات، فالضمير هنا يرجع إلى الحقائق، بينما فيما تقدم يرجع إلى السور العشر. ثمّ ذكر أنّهم إن عجزوا عن أن يأتوا بسورة مطلقاً من شخص أميّ فليأت بها عالم حاذق. وجعل الاستعانة بكافة الإنس

(١٧) المكتوبات، ص ٢٤٥-٢٤٦.

(١٨) انظر: الكلمات، ص ٤٤٤، والإشارات، ص ١٨٧.

والجنّ في مرحلة. وأما المرحلة التاسعة فقال فيها: لا تقولوا ليس لنا شهداء، وأنتم لا تشهدون لنا، ألا فادعوا شهداءكم فليشهدوا لكم، هل يتجاسرون على تصديق دعواكم المعارضة![١٩]

ويظهر التداخل الكبير بين هذه المراحل، ولعلّ السّرّ الذي دعا النورسي إلى التفصيل في هذه المراحل هو تعميق فكرة إعجاز القرآن في نفوس الناس وخاصّة المعاصرين، وبيان مدى عجز أولئك القوم الذين ناصبوا القرآن العداء عن معارضته فلجؤوا إلى المقارعة بالسيوف بدل رصف الحروف. وهو الأسلوب الذي دلّل على مبلغ عجزهم وضعفهم.

واقتصر بقية العلماء على ذكر المراحل الأربع أو الخمس التي ذكرها القرآن الكريم.[٢٠]

المبحث الثاني

وجوه إعجاز القرآن عند النورسي [٢١]

لم يقتصر النورسي في بيان وجوه إعجاز القرآن على قول واحد، بل أشار إلى وجود وجوه لا تحصى لإعجاز القرآن، وأنّ القرآن الكريم معجز لكلّ طبقة من الناس في كلّ عصر من العصور. واقتصر في بعض مؤلفاته كما يقول على

---

(١٩) انظر: الإشارات، ص ١٨٧.

(٢٠) انظر: السيوطي. الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق،ج٢، ص ٣١٢. الرافعي، مصطفى صادق. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصر: المكتبة التجارية، ١٩٦١، ص ١٩١.

(٢١) اهتم بديع الزمان رحمه الله بإعجاز القرآن اهتماما بالغا فكتب عدّة رسائل كشف فيها عن نظريته في إعجاز القرآن، وأشار إلى ثلاثة مواضع من مؤلفاته لمعرفتها، وهي: إشارات الإعجاز وبيّن فيه وجها واحدا وهو إعجاز النظم، والمكتوب التاسع عشر وهو رسالة المعجزات الأحمدية في الرشحة الرابعة عشرة، ورسالة اللوامع، وهي مطبوعة في آخر الكلمات انظر: الكلمات، ص٢٦٣. ولكنه تحدث كذلك في رسالة المعجزات القرآنية وهي الكلمة الخامسة والعشرين، وتحدث كذلك في رسالة الآية الكبرى، وبيّن أنه ذكر خمسة عشر وجها من وجوه إعجاز القرآن في كتاب المثنوي العربي النوري، انظر: الكلمات، ص ٢٦٨. وذكر مقدمة لإعجاز القرآن في صيقل الإسلام، انظر: الإشارات، ص ١١٨. وانظر: النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. اللمعات، ترجمة: إحسان الصالحي، إسطنبول: دار سوزلر، ١٩٩٣، ص ٤٠.

وجه واحد وهو النظم ويذكر أحيانا أنّ هناك سبعة وجوه كلية، وأحيانا عشرة وجوه بحسب طبقات الناس، وأنّ القرآن قد أظهر إعجازه لأصحاب المشارب المختلفة فقد رأى كلّ منهم من الإعجاز ما لم يره الآخر[٢٢] فالقرآن الكريم في نظر النورسي بحر المعجزات ومنبعها، والمعجزة الكبرى الذي يثبت النبوة الأحمدية والوحدانية الإلهية إثباتاً. ويقيم حججاً ويسوق براهين، ويبرز أدلة تغني عن كلّ برهان آخر.[٢٣]

يدخل النورسي إلى بيان إعجاز القرآن من خلال الربط بين النبوّة والقرآن، فيقول: مثلما أنّ القرآن بكلّ معجزاته وحقائقه هو معجزة لمحمّد ﷺ، فإنّ محمّداً ﷺ بكلّ معجزاته ودلائل نبوته وكمالاته العلمية معجزة للقرآن الكريم، وحجّة قاطعة على أنّه كلام ربّ العالمين.[٢٤] إنّ القرآن أثبت النبوّة بالإعجاز، والإعجاز بالتحدّي، والتحدّي بسكوتهم.[٢٥]

وسأذكر وجوه الإعجاز التي ظهرت لي من خلال رسائله العديدة في ذلك غير مقيّد بما ذكره من تعداد لتلك الوجوه؛ للتداخل والتكرار بين هذه الوجوه.

الوجه الأول: إعجاز نظم القرآن

١:١ مدخل إلى إعجاز نظم القرآن

ذكر النورسي مقدمة لبيان إعجاز نظم القرآن في اثنتي عشرة مسألة تتضمن مواصفات مهمّة للكلام البليغ؛ وذلك لأنّه يرى أنّ هذا الوجه هو أعظم وجوه إعجاز القرآن، وسأذكرها ملخصة فمن طلب الاستزادة فليراجعها في مكانها.[٢٦]

الأولى: أنّ نظم الكلام هو المجرى الطبيعي للأفكار والحسّيات، وهو منشأ نقوش البلاغة، وكما أنّ الكائنات أنشأها خالقها فصيحة بليغة، فكلّ صورة منها معجزة من معجزات القدرة، فكذا الكلام إذا حذا حذو الواقع، وطابق نظمه نظامه حاز الجزالة بحذافيرها.

---

(٢٢) المكتوبات، ص ٢٥٣.

(٢٣) المكتوبات، ص ٢٦٦.

(٢٤) الكلمات، ص ٥١٨.

(٢٥) إشارات الإعجاز، ص ٢٠٢.

(٢٦) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ١١٨-١٢٥.

الثانية: إنّ السحر البياني مبنيّ على الحقيقة في تصويراته وتشبيهاته البليغة.

الثالثة: جمال الكلام وكماله بأسلوبه، والأسلوب هو صورة الحقائق وقالب المعاني المتخذ من الاستعارة التمثيلية المؤسسة على سرّ المناسبات بين الأشياء. وفائدة أسلوب التمثيل إيصال المعاني الدقيقة والعروق العميقة إلى السامع. والحكمة في تنوّعه إيقاظ المعاني الساكنة في زوايا القلب.

الرابعة: الكلام البليغ تتناسق قيود نظمه وهيأته، ويأخذ كلّ بيد الآخر ويظاهره.

الخامسة: كيفيات نظم الكلام وهيئاته ومستتبعاته تشير وترمز إلى لوازم الغرض والمقصد وتوابعه وفروعه، كما أنّ أصل الكلام يشير إلى ذلك، وهو دليل غناء الكلام وثروته ووسعته.

السادسة: شأن البليغ أن يفيد بصريح الكلام ما يتعلق به الغرض، واقتضاه المقام، وطلبه المخاطب. ثم يجعل في هذا المعنى المصبوب في هذا القالب دلائل تشير إلى طبقات أخرى من المعاني. وهناك معاني حرفية ليس لها ألفاظ مخصوصة كالتحسر والتأسف والاشتياق والتمدّح والخطاب والإشارة والتألم والتحيّر والتعجّب والتفاخر.

السابعة: الأسلوب إذا كان مبنيا على الخيال -التشبيه والتصوير- فلا بدّ من أن يرتكز على الحقيقة؛ لأنّ فلسفة النحو من هذا القبيل.

الثامنة: الحروف التي تعددت معانيها مثل: "الباء، من، إلى" أصل المعنى فيها واحد لا يزول، لكن باعتبار المقام والغرض قد يتشرب معنى معلقا، ويجذبه إلى جوفه.

التاسعة: أعلى مراتب البلاغة محافظة المتكلّم ومراعاته رفعة نسب قيود الكلمات وموازنة الجمل التي تظهر مع أخواتها نقشا متسلسلا إلى النقش الأعظم، حتى كأنّ المتكلّم استخدم عقولا إلى عقله. وأيضا من أسباب علوّ الكلام أن يتسلسل إلى المقاصد التي تتدلى على المقام والغرض. وان يكون مستعدا لاستنباط كثير من الفروع والوجوه كقصة موسى عليه السلام.

العاشرة: سلاسة الكلام تقتضي أن تكون المعاني والحسّيات ممتزجة تتّحد أو مختلفة تنتظم، فيجذب المركز القوة من الأطراف. ومن السلاسة أن يتعيّن المقصد ويتظاهر ملتقى الأعضاء.

الحادية عشرة: إنّ سلامة الكلام تقتضي أن ينتظم لدفع الأوهام وردّ الشبهات.

الثانية عشرة: الأساليب ثلاثة: الأسلوب المجرّد، ومثاله كتب السيد الجرجاني. والأسلوب المزيّن ومثاله، دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة. والأسلوب العالي وخاصّته الشدّة والقوة والهيبة والعلوية، ومقامه المناسب الإلهيات والأصول والحكمة، كالقرآن الكريم اهـ.

هذا، وقد خصّص النورسي -كما قال- رسالة "إشارات الإعجاز" للبحث في إعجاز نظم القرآن. وقد كشف عن مراده منها فقال: إنّ مقصدنا من هذه الإشارات تفسير جملة من رموز نظم القرآن؛ لأنّ الإعجاز يتجلّى من نظمه. وقال: وما الإعجاز الزاهر إلا نقش النظم.[٢٧]

وقبل أن نعرض مذهب النورسي في النظم أرى من الضروري عرض مذهب الإمام عبد القاهر الجرجاني في نظم القرآن؛ لأنّه الوجه الذي كان القرآن به معجزاً. ووافقه النورسي في ذلك، وأثنى على نظريته ثناء حسنا. ونعرض كذلك لجهد الزمخشري في ذلك.

٢:١ نظرية النظم عند الجرجاني

يقول عبد القاهر رحمه الله: اعلمْ أنْ ليسَ النظم إلا أن تضعَ كلامَك الوضعَ الذي يَقتضيهِ علمُ النّحو، وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه، وتعرفَ مناهجَهُ التي نُهِجَتْ فلا تزيغُ عنها، وتحفَظُ الرُّسومَ التي رُسمتْ لك فلا تُخلَّ بشيء منها. وذلك أنَّا لا نعلمُ شيئاً يبتغِيه النّاظمُ بنظمِه غيرَ أنْ ينظرَ في وجوهِ كلِّ بابٍ وفُروقه... ثم يقول: هذا هو السَّبيل فلستُ بواجدٍ شيئاً يرجعُ صوابُه إنْ كانَ صواباً وخطؤه إن كانَ خطأً إلى النَّظم ويدخلُ تحتَ هذا الاسم إلا وهو معنًى من معاني النحوِ قد أُصيبَ به موضعُهُ، ووُضِع في حقّه أو عُوملَ بخلافِ هذه المعاملة، فأزيلَ عن موضعهِ واستُعمِل في غيرِ ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً

(٢٧) إشارات الإعجاز، ص ٢٣.

قد وُصِف بصحّةِ نظمٍ أو فسادِه أو وُصف بمزيَّةٍ وفضلٍ فيه إلا وأنت تجدُ مرجعَ تلك الصحَّةِ وذلك الفسادِ وتلكَ المزيةِ، وذلك الفضلِ إلى معاني النَّحو وأحكامِه ووجدتَهُ يدخُلُ في أصلٍ من أصولهِ ويتَّصلُ ببابٍ من أبوابه...[٢٨]

والاستعارة والكناية والتمثيل وضروب المجاز عند الجرجاني من مقتضيات النظم؛ فعنها يحدث، وبها يكون فلا يتصوّر أن يدخل شيء منها في الكلام وهي أفراد لم يتوّخ فيما بينها حكم من أحكام النحو،[٢٩] فنظم القرآن وتأليفه هو الذي صار به معجزاً.[٣٠]

إنّ عناصر الكلام عند الجرجاني ثلاثة: اللفظ والمعنى والنظم. ولا بدّ للنظم من عمليتين: أولا: ترتيب المعاني في النفس. ثانياً: ترتيب الألفاظ في النطق.[٣١]

وهي نظرية برز فيها جانبان جانب نفسي وجانب فكري، فالجانب النفسي يظهر في عمق التأثير الذي يحس به القارئ وهو يتأمّل ويتدبّر الكلام البليغ، وأما الجانب الفكري فتجده في العلاقة بين المعاني بعضها مع بعض من جهة، وبينها وبين الألفاظ لا من حيث الوضع فحسب، بل من حيث الوضع والترتيب كليهما.[٣٢]

أما الزمخشري فيرجع الفضل إليه في بلورة هذه النظرية بتطبيقها في تفسير القرآن تطبيقا عمليا تفصيليا.[٣٣]

أمّا النورسي فأكّد وجه النظم في الإعجاز، فقال: منشأ نقوش البلاغة إنّما هو نظم المعاني دون نظم اللفظ، وتزيين اللفظ إنّما يكون زينة إذا اقتضته طبيعة المعاني. وذكر أنّ عبد القاهر ردّ على اللفظيين في كتابيه، فنظم المعنى هو

(٢٨) الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن. دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد التنجي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٥. ص ٧٧- ٧٨.

(٢٩) المصدر السابق، ص ٢٩٣.

(٣٠) نفسه، ص ٣٧٨. وانظر: عامر، فتحي. فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٧٥، ص ١١٥.

(٣١) عباس، فضل حسن. إعجاز القرآن الكريم، عمّان: دار النشر مجهولة، ١٩٩١، ص٧١. وانظر: الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصدر سابق، ص ١٦٦-١٦٧.

(٣٢) عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص ٨٢.

(٣٣) الجويني، مصطفى الصاوي. منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، القاهرة: دار المعارف، (الطبعة الثالثة)، ص ٢٩٩. وانظر: عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص ٨٣.

توخّي المعاني النحوية فيما بين الكلمات، أيّ: إذابة المعاني الحرفية بين الكلم لتحصيل النقوش البلاغية الغريبة،[٣٤] ومثّل لذلك بقوله: إنّ وضع بؤبؤ العين في موضعه اللائق يتوقف على معرفة علاقة العين بالجسم كلّه، ومعرفة مدى علاقة وارتباط بؤبؤ العين بكلّ جزء من أجزاء الجسم وبوظيفته.[٣٥]

ونودّ أن ننبّه إلى أنّه لا ينبغي أن يفهم أنّ عبد القاهر والنورسي ينكران فصاحة الألفاظ، كلاّ! لكن هذه الألفاظ لا ينظر إليها خارجة عن النظم.

ويتابع النورسي الجرجاني والزمخشري في التعويل على علمي البيان والمعاني لإظهار أسرار النظم في القرآن، فيقول: إنّ أساس إعجاز القرآن الكريم في بلاغة نظمه، وبلاغة النظم على قسمين؛ قسم كالحلية وقسم كالحلّة، فالأول: تعهّد بيانه علم المعاني، وهو توخّي المعاني النحوية الحرفية فيما بين الكلم، كإذابة الذهب بين أحجار فضة. والثاني: تعهّد بيانه علم البيان، وهو كلباس عال وحلّة فاخرة قدّت من أسلوب على مقدار قامات المعاني، وخيطت من قطعات خيطا منتظما فيلبس على قامة المعنى أو القصة أو الغرض دفعة.[٣٦]

ويؤكد أهمية الجانب النفسي والجانب الفكري في النظم، فيقول: الكلام البليغ ما استفاد منه العقل والوجدان معا فكما يتداخل إلى العقل يتقطّر إلى الوجدان، والمتكفّل لهذين الوجهين التمثيل، حيث عدّه أسطع مرآة عاكسة لإعجاز القرآن[٣٧] وأساسه التشبيه، ومن شأن التشبيه تحريك حسّ النفرة أو الرغبة أو الميلان أو التنفير أو الكراهة أو الحيرة أو الهيبة؛ فقد يكون للتعظيم أو التحقير أو الترغيب أو التنفير أو التشويه أو التزيين أو التلطيف إلى آخره... فبصورة الأسلوب يوقظ الوجدان، وينبّه الحسّ بميل أو نفرة.[٣٨]

٣:١ منبع البلاغة القرآنية

يرى النورسي رحمه الله أنّ البلاغة المعجزة للقرآن نبعث من جزالة نظمه

(٣٤) إشارات الإعجاز، ص ١١٨-١١٩.

(٣٥) المكتوبات، ص ٢٤٦.

(٣٦) إشارات الإعجاز، ص ١١٣.

(٣٧) انظر: الكلمات، ص ٢١٢.

(٣٨) إشارات الإعجاز، ص ١١٧.

وحسن متانته، ومن بداعة أساليبه وغرابتها وجودتها، ومن براعة بيانه وتفوّقه وصفوته، ومن قوّة معانيه وصدقها، ومن فصاحة ألفاظه وسلاستها.[٣٩]

ويفصّل هذا الوجه لإعجاز القرآن بالأمور الخمسة التالية، ولا بدّ أن أشير إلى أنّ كلّ أمر من هذه الأمور يعدّ وجها مستقلا من وجوه إعجاز القرآن، وهذه الأمور هي:[٤٠]

الأول: الجزالة الخارقة في نظمه. ومثل لذلك بقوله: كما أنّ عقارب الساعة العادة للثواني والدقائق والساعات يكمل كلّ منها الآخر، فكذلك هيئات كلّ جملة من جمل القرآن، والنظام الذي في كلماته، والانتظام الذي في مناسبة الجمل كلّ تجاه الآخر.

وقد أكّد ترابط أجزاء الكلام بعضه ببعض أثناء تفسيره لأول سورة البقرة، فالمناسبات عنده ثلاثة أنواع: مناسبة الآية لما قبلها. والنظم بين جملها. ثم النظر بين هيئات جملة جملة.[٤١]

والثاني: البلاغة الخارقة في معناه. ذلك أنّ القرآن قد أكسب معاني الكلام قوّة، إضافة إلى رصانة بلاغتها، وسموّ إفادتها.

والثالث: الفصاحة الخارقة في لفظه، فلفظه فصيح في غاية السلاسة، ودليل ذلك عدم إيراثه السأم والملل، وشهادة العلماء له. ومثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(آل عمران:١٥٤) التي جمعت كلّ حروف الهجاء ومع ذلك ازدادت بهاء إلى جمالها[٤٢]

---

(٣٩) الكلمات، ص ٤٢٤.

(٤٠) المصدر السابق نفسه، ص ٤٢٦-٤٤٠.

(٤١) انظر: إشارات الإعجاز، ١٣٤-١٣٧.

(٤٢) انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٢.

ويؤكد النورسي أنّ المفردة القرآنية مظهر من مظاهر إعجازه، فيقول: اعلم! أنّه ما من كلمة في التنزيل يأبى عنها مكانها، أو لم يرض بها، أو كان غيرها أولى بها، بل ما من كلمة من التنزيل إلاّ وهي كدرّ مرصّع مرصوص متماسك بروابط المناسبات، ولذلك يستحيل ترجمتها.(٤٣)

والرابع: البراعة الفائقة في بيانه، فهو في أعلى مرتبة من مراتب طبقات الخطاب وأقسام الكلام: كالترغيب والترهيب، والمدح والذم، والإثبات والإرشاد، والإفهام والإفحام.

والخامس: البداعة الخارقة في أسلوبه، ومثل لذلك بالحروف المقطعة، وأنّها شفرات ورموز إلهية، وهي تنصف كلّ أزواج طبائع الحروف الهجائية. وذكر أنّ (الٓمٓ) عدّت أسلوبا بديعا وطرازا غريبا.(٤٤)

ويرى النورسي أن منشأ الإيجاز هو منشأ الإعجاز، وهو: أنّ البلاغة هي مطابقة مقتضى الحال، والحال: أنّ المخاطبين بالقرآن على طبقات متفاوتة، وفي أعصار مختلفة. فلمراعاة هذه الطبقات، ولمجاورة هذه الأعصار -ليستفيد مخاطب كلّ نوع ما قدّر له من حصّته- حذف القرآن في كثير للتعميم والتوزيع، وأطلق في كثير للتشميل والتقسيم، وأرسل النظم في كثير لتكثير الوجوه وتضمين الاحتمالات المستحسنة في نظر البلاغة والمقبولة عند العلم العربي: ليفيض على كلّ ذهن بمقدار ذوقه، فتأمل!(٤٥)

ويؤكد النورسي أنّ أسلوب إرشاد القرآن البليغ وجه من وجوه إعجازه، فقد احتفظ بسلاسته الفطرية، وهو أجلّ من أن يدنو منه التكلّف.(٤٦)

٤:١ التكرار في القرآن الكريم

عدّ النورسي رحمه الله التكرار في أسلوب القرآن -الذي حسبه الجاهلون مطعنا فيه- وجها آخر من وجوه إعجازه، وبيّن أنّ التكرار يأتي لتحقيق الحِكَم والمقاصد الآتية:

---

(٤٣) انظر: إشارات الإعجاز، ص ٥٩.

(٤٤) انظر: الكلمات، ص ٤٣١، والمكتوبات، ص ٥٠٣، واللمعات، ص ٤١٦.

(٤٥) إشارات الإعجاز، ص ٥٦.

(٤٦) انظر: الكلمات، ص ٥٢٨.

١- أنّ القرآن كتاب ذكر ودعاء ودعوة، فالذّكر يكرّر، والدعاء يردّد، والدعوة تؤكّد.

٢- أنّ كلّ سورة قرآن صغير؛ فلهذا أدرج أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سوره، فسهّل السبيل لكلّ أحد دون أن يحرم أحدا، فكرّر التوحيد، والحشر، وقصّة موسى عليه السلام...

٣- أنّ تكراره يناسب تجدّد حاجات الإنسان المعنوية.

٤- أنّ القرآن مؤسّس لهذا الدين، ولا بدّ للمؤسّس من التكرير للتثبيت، ومن الترديد للتأكيد، ومن التكرار للتقرير والتأييد.

٥- أنّ بحث القرآن في المسائل العظيمة والحقائق الدقيقة يتطلب تكرارها لتتقرر في القلوب، وتثبت في أفكار العامة.

ويخلص النورسي رحمه الله إلى أنّه لا تكرار حقيقيا في القرآن؛ فلكلّ آية حدّ ومطلع، ولكلّ قصة وجوه وأحكام وفوائد ومقاصد، فتذكر في موضع لوجه وفي آخر لأخرى، وعلى هذا فلا تكرار إلاّ في الصورة.[٤٧]

٥:١ هل القرآن على درجة واحدة من البلاغة؟

اتفق العلماء على أنّ القرآن الكريم في الذروة العليا من البلاغة إلاّ أن العزّ بن عبد السلام وأبا نصر القشيري ذهبا إلى أنّ القرآن متفاوت في مراتب الفصاحة، وعلى عكس ذلك القاضي.[٤٨]

ويرى الإمام أبو سليمان الخطابي أنّ الإعجاز يكمن في الكلام البليغ، وهو لا يخرج عن ثلاثة: البليغ الرصين الجزل. والفصيح القريب السهل. والجائز الطلق الرسل. وأنّ القرآن تضمنها جميعا؛ لأنّ المخاطبين ليسوا سواء، فهناك الحضري الذي هذّب لسانه، وهناك البدوي الذي أكسبته البداوة قوة ورصانة.[٤٩]

ولعلّ النورسي رحمه الله متأثر بهذا الكلام إذ ذهب إلى أنّ الأسلوب المكي يختلف في الإعجاز عن الأسلوب المدني نظرا لاختلاف طبيعة المخاطبين

(٤٧) انظر: الكلمات، ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٤٨) انظر: الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٣.

(٤٩) الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمّد. بيان إعجاز القرآن، مطبوعة ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق: محمد زغلول سلام ومحمد أحمد خلف الله، مصر: دار المعارف، بلا تاريخ، ص ٢٦.

والمعارضين، فالأسلوب المكي جاء عاليا قويا معجزا مقنعا، والأسلوب المدني جاء معجزا ببيانه السهل الواضح السلس.[٥٠]

والنورسي كذلك مدرك لحقيقة التصوير الفني في القرآن وتذوّق سحر جماله، وأكّد أنّ السّحر البياني إذا تجلّى في الكلام صير الأعراض جواهر، والمعاني أجساما، والجمادات ذات أرواح والنباتات عقلاء، فيوقع بينها محاورة قد تنجرّ إلى المخاصمة، وقد توصل إلى المطايبة، فترقص الجمادات في نظر الخيال.[٥١]

٦:١ القرآن الكريم والشعر

لقد اشتبه أسلوب القرآن على بعض الملاحدة خصوصا في عصر الباقلاني حيث كانوا يعدلون القرآن ببعض الأشعار؛ مما دفع الباقلاني رحمه الله إلى الانفراد بالقول: إنّ الوجه في إعجاز القرآن أنّه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم، ومباين لأساليب خطابهم، ليس من قبيل الشعر، ولا السجع، ولا الكلام الموزون غير المقفّى، ولهذا لم يمكن معارضته،[٥٢] بينما نجد النورسي يبين حِكَم تنزّه القرآن عن الشعر، فيجملها في ثلاث نقاط، هي:

الأولى: أنّ القرآن جامع لحقائق باهرة ساطعة لانهاية لها، لذا فهو مستغن عن خيالات الشعر.

الثانية: أنّ كلّ آية من آياته لا تتقيد بنظام الوزن فتصبح كأنّها مركز لأكثر الآيات وشقيقتها، إذ تمثل خيوط العلاقة بين الآيات المترابطة في المعنى دائرة واسعة، فكأنّ كلّ آية حرّة -غير مقيدة بنظام الوزن- تملك عيونا باصرة إلى أكثر الآيات، ووجوهها متوجّهة إليها.. فشاهد كمال الانتظام في عدم الانتظام!

وثالثتها: أنّ شأن الشعر هو تجميل الحقائق الصغيرة الخامدة وتزيينها بالخيال البراق، وجعلها مقبولة تجلب الإعجاب، بينما حقائق القرآن من العظم والسموّ والجاذبية بحيث تبقى أعظم الخيالات وأسطعها قاصرة دونها، وخافتة

(٥٠) انظر: الكلمات، ص ٥٣٠-٥٣٢.

(٥١) إشارات الإعجاز، ص ١١٩.

(٥٢) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيّب. إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، القاهرة: دار المعارف، بلا تاريخ، ص ٥٠.

أمامها،[٥٣] وهذا البيان أقوى من بيان الباقلاني وأحكم، على الرغم من أسبقية الباقلاني في الموضوع وأستاذيته.

٧:١ الفاصلة القرآنية

أفرد النورسي مبحثا خاصا لبيان الوجه المعجز للفاصلة القرآنية، وأطلق عليها الخلاصات والفذلكات، وبيّن أنّها تتضمن إمّا الأسماء الحسنى أو معناها، وإمّا أنّها تحيل قضاياها إلى العقل وتحثّه على التفكّر والتدبّر فيها، وإمّا أنّها تتضمن قواعد كلية من مقاصد القرآن فتؤيد بها الآية وتؤكدها،[٥٤] فهي مظهر معجز للقرآن الكريم ومن خلال استعراضه لفواصل القرآن خرج بالنتائج الآتية:[٥٥]

١- القرآن الكريم يبسط أفعال الصانع الجليل ثم يستخرج من تلك الأفعال والآثار الأسماء الإلهية، أو يثبت مقصدا من مقاصد القرآن الأساسية، مثاله قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٩).

٢- وقد ينشر بدائع صنعه تعالى ثم يلفها ويطويها في الخلاصة ضمن الأسماء الإلهية، أو يحيلها إلى العقل. مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٦٤).

٣- وقد يفصل القرآن في ذكر أفعال الله ثم يوجزها في الخلاصة، فهو بتفصيلها يورث القناعة والاطمئنان، وبإيجازها يسهل حفظها وتقييدها، مثاله قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(آل عمران:٢٧).

---

(٥٣) الكلمات، ص ١٥٠-١٥٢.

(٥٤) الكلمات، ص ٤٨٣.

(٥٥) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ٤٨٤-٥٠٠، وانظر: المكتوبات، ص ٢٤٢.

٤- وقد يذكر القرآن المخلوقات الإلهية مرتبة بترتيب معيّن، ثم يبيّن به أنّ في المخلوقات نظاما وميزانا، يريان ثمرة المخلوقات وكأنّه يضفي نوعا من الشفافية والسطوع على المخلوقات التي تظهر منها الأسماء الإلهية المتجلية فيها، فكأنّ تلك المخلوقات المذكورة ألفاظ، وهذه الأسماء معانيها وأنّها ثمرات، وهذه الأسماء نواها أو لبابها، مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف:٥٤).

٥- وقد يذكر القرآن الجزئيات المادية المعرّضة للتغيّر والتي تكون مناط مختلف الكيفيات والأحوال، ثم لأجل تحويلها إلى حقائق ثابتة يقيدها ويجمّلها بالأسماء الإلهية التي هي نورانية وكلية وثابتة، أو يأتي بخلاصة تسوق العقل إلى التفكر والاعتبار، مثاله قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:٣١-٣٢).

٦- وقد ينشر القرآن أحكام الربوبية على الكثرة الواسعة المنتشرة، ثم يضع عليها مظاهر الوحدة، ويجمعها في نقطة توحّدها كجهة وحدة بينها، أو يمكنها في قاعدة كلية. مثاله قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(البقرة:٢٥٥).

٧- وقد يذكر القرآن الآية لتبيّن أنّ الأسباب وإن بدت في الظاهر والوجود متصلة مع المسببات إلا أنّ بينهما في الحقيقة وواقع الأمر بونا شاسعا جدا، بحيث لا طاقة لأعظم الأسباب أن تنال إيجاد أدنى مسبّب، وفي هذا البعد تشرق الأسماء الإلهية، هذه المسافة بين الأسباب والمسببات لا تدرك إلا بمنظار الإيمان، مثاله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء

فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(النور٤٣-٤٥) وانظر: الآيات (٢٤-٣٢) من سورة عبس.

٨- وقد يذكر القرآن أفعال الله الدنيوية البديعة كي يهيئ الأذهان للتصديق، ويحضر القلوب للإيمان بأفعاله المعجزة في الآخرة، وقد يذكر العكس. مثاله آخر سورة يس، وسورة التكوير، وسورة الانشقاق.

٩- وقد يذكر القرآن بعضا من المقاصد الجزئية ليحوّلها إلى قواعد كلية، فيثبت ذلك المقصد الجزئي ويؤكده بالأسماء الحسنى. مثاله قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة:١)، فيلزم أن يكون ربّا للكون، وربّ الكون من شأنه أن يسمع ويبصر.

١٠- وقد يذكر القرآن ما اقترفه الإنسان من سيئات، فيزجره زجراً عنيفا ثمّ يختمها ببعض من الأسماء الحسنى لئلا ييأس ويقنط، مثاله قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء:٤٤).

وهذه وجوه بديعة لأثر الفاصلة القرآنية وما تؤدّيه من غايات وأهداف في بلاغة نظم القرآن، ولقد قارنت بين ما كتبه النورسي وبين ما كتبه أحمد أحمد بدوي في مبحث الفاصلة.[٥٦] فوجدت أنّ بدوي قد اقتصر في معظم بحثه على بيان مناسبة كلّ فاصلة للآية التي ختمت بها، ودار في فلك ما كتبه السيوطي في كتابه الإتقان، بينما ينظر النورسي لها نظرة شمولية فيذكر مناسبتها لآيتها، ويدلل على آثارها الإيمانية الفعالة في نفس وعقل ووجدان الإنسان؛ وذلك من خلال التعريف بأسماء الله وصفاته، وبيان آثار الصنعة الإلهية في الأنفس والآفاق. وفي بيان النورسي ردّ ساطع على جهالات دائرة المعارف البريطانية بهذا الشأن.

(٥٦) انظر: بدوي، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، القاهرة، دار نهضة مصر، بلا تاريخ، ص ٧٥-٨٩.

٨:١ تذوّق الإعجاز

يرى النورسي أنّ من أراد أن يتذوّق إعجاز القرآن فليرجع إلى ذلك العصر الجاهلي وفي صحراء البداوة بينا كلّ شيء أسدل عليه ستار الغفلة، وغشيه ظلام الجهل، ولفّ بغلاف الجمود والطبيعة، إذا بك تشاهد وقد دبّت الحياة في تلك الموجودات فتنهض مسبّحة ذاكرة لله بصدى قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(الجمعة:١)، وهكذا بانتقالك الشعوري إلى ذلك العصر تتذوق دقائق الإعجاز، أما الآن فإذا نظرت إليها من خلال ستار الألفة فإنّك بلا شك لا ترى رؤية حقيقية مدى جمال المعجز في كلّ آية.(٥٧)

قلت: إنّه وإن تبلّد الطبع، وغلبت الألفة فإنّ القرآن يبقى فياضا بجماله المعجز، وصنيع سيّد قطب رحمه الله في التصوير الفني يؤكد هذا الجمال المعجز. أجل! فإنّ القلوب الصَّدِأة لا ينعكس عليها جمال القرآن حتى وإن كان ذلك في العصر الجاهلي.

وفيما يتعلق بتذوق جمال النظم في القرآن يتابع النورسي عبد القاهر الجرجاني في أنّ إدراك هذا الوجه لا يتسنى إلاّ للشخص الذي ملك الذوق الأدبي والإحساس الفني.(٥٨) والنورسي على مذهب عبد القاهر الجرجاني في إمكانية التعبير عن الإعجاز، قال رحمه الله: إنّ السكّاكي اختار أّن الإعجاز ذوقيّ لا يعبّر عنه ولا يشرح، بل يذاق ذوقا، وأما صاحب دلائل الإعجاز فاختار أنّه يمكن التعبير عنه، ونحن على مذهبه في هذا البيان.(٥٩)

أما بقية وجوه الإعجاز فهي كالشمس في رابعة النهار، لا ينكرها إلاّ الذين جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا.

٩:١ لماذا الإعجاز البياني

إنّ سرّ اهتمام النورسي بإعجاز نظم القرآن وبلاغته الخارقة إدراكه أنّ البلاغة والأدب هي خاصية الإنسانية، وأنّ أعلى ما يربي روح البشر، وألطف ما

(٥٧) انظر: الكلمات، ص ١٥٣، ص ٥٠٥-٥٠٦.

(٥٨) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٥٩) إشارات الإعجاز، ص ١٨٨.

يصفي وجدانه، وأحسن ما يزيّن فكره، وأبسط ما يوسع قلبه، إنّما هو نوع من الأدبيات، ولأمر ما ترى هذا النوع أبسط الفنون وأوسعها مجالا، وأنفذها تأثيراً، وألصقها بقلوب البشر حتى كأنّه سلطانها.[٦٠]

ويبين النورسي أنّ القرآن لا يمكن أن يقاس بكلام آخر، فمنابع علوّ طبقة الكلام وقوّته وحسنه وجماله أربعة:

المتكلم "من قال".

والمخاطب "لمن قال".

والمقصد "لم قال".

والمقام "فيم قال". وبإنعام النظر في منابع القرآن تُدرك درجة بلاغته وحسنها وسموّها وعلوّها.[٦١]

١٠:١ رفض القول بالصّرفة

يرفض النورسي رحمه الله القول بأنّ إعجاز القرآن قد ثبت بالصّرفة كما ذهب إليه بعض علماء المعتزلة والشيعة، ويرى أنّ المذهب الأصح في الصرفة هو ما عليه الجرجاني والزمخشري والسكّاكي، وهو: أنّ قدرة البشر لاتصل إلى درجة نظمه العالي.[٦٢]

وبيّن حقيقة هذا القول الذي يذهب أصحابه إلى أنّه لا يمكن معارضة القرآن ولو بكلمة واحدة؛ لأنّ الله قد صرفهم عنه. فقال: وأمّا أنّ إعجاز القرآن كان بالصّرفة فقول مرجوح. واختارَ مذهب أكثرية العلماء؛ وهو أنّ لطائف بلاغة القرآن ومزايا معانيه هي فوق طاقة البشر؛ لأنّ كلمات القرآن وجمله ينظر بعضها إلى بعض، فتتواجه الكلمات والجمل.[٦٣]

١١:١ مقارنة بين الزمخشري والنورسي في بيان إعجاز نظم القرآن

يبدو أنّ المقارنة بين الزمخشري والنورسي في تطبيق نظرية النظم أولى

(٦٠) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٠.

(٦١) الكلمات، ص٥٠٠. وانظر: المثنوي العربي النوري، مصدر سابق، ص ٧٨، وص ١٥٦.

(٦٢) إشارات الإعجاز، ص ١٨٨.

(٦٣) المكتوبات، ص ٢٤٥-٢٤٦.

من الاقتصار على ما ذكره النورسي من وجوه بديعة في نظم القرآن وإدراكه العميق لإعجاز نظم القرآن، وشمولية تطبيقه هذه النظرية على النص القرآني. ولنأخذ الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة لأنّ المفسّر يضع عصارة فكره في الأجزاء الأولى من التفسير، ولأنّ النورسي لم يفسّر في كتابه «إشارات الإعجاز» إلا سورة الفاتحة وثلاثا وثلاثين آية من سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة:١-٢)

أثار الإثنان قضايا كثيرة تبرز أسرار التعبير في النظم، لكنهما وإن اتفقا في هذه القضايا إلا أنّهما اختلفا في تعليلها وأسلوب بيانها. فسّر التعبير بـ«ذلك» التي للبعيد عند الزمخشري للدّلالة على كلام تقضّى فأشير إليه بذلك، ثم بيّن لمَ صحت الإشارة بـ"ذلك" إلى ما ليس ببعيد، ولمَ ذكر اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث، وهو السورة. ويرى النورسي أنّها تفيد التعظيم، وتشير إلى أنّ القرآن كالمغناطيس المنجذب إليه الأذهان، فتظاهر بدرجة تراه العيون من خلفها إذا راجعت الخيال. ويرمز بلسان الحال إلى وثوقه بصدقه، وتبريّه عن الضعف والحيلة، وكما أنّها تفيد علوّ الرتبة المفيد لكماله، كذلك تومئ إلى دليله بأنّه بعيد عن ما سلك عليه أمثاله.

وبحث الزمخشري في وجه تأليف "ذلك الكتاب" مع "الم" وأنّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل كأنّ ما عداه في مقابلته ناقص، وأنّه الذي يستأهل أن يسمى كتابا.

وزاد النورسي بالكشف عن سرّ التعبير بـ"الكتاب" وذلك أنّ الكتاب لا يكون من مصنوع الأمّيّ، الذي ليس من أهل القراءة والكتابة.

وبينما يبحث الزمخشري في سرّ عدم تقديم الظرف في قوله: "لا ريب فيه" كما في قوله لا فيها غول، نرى النورسي يعرض لنا سرّا آخر، وهو التعبير بـ"في" دون سائر أخواتها، وسرّ الظرفية فيه فيقول: وذلك إشارة إلى إنفاذ النظر في الباطن، وإلى أنّ حقائقه تطرد وتطيّر الأوهام المتوضّعة على سطحه بالنظر الظاهر.

وبيّن الزمخشري سرّ قوله: "هدى للمتقين" والمتقون مهتدون، ولمَ لمْ يقل هدى للضالّين، وسرّ وضع المصدر موضع الوصف وإيراده منكرا، والإيجاز في

ذكر المتقين. وسرّ ترك العطف بين الجمل، وبيّن النورسي هذه الأسرار، وزاد في تفصيل بيانها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة:٣).

بيّن الزمخشري سرّ تعلق الآيات بما قبلها نحويا، وتساءل عن هذه الصفة "الإيمان بالغيب" أوَاردة بيانا وكشفا للمتقين، أم مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها، أم جاءت على سبيل المدح؟!! فبيّن احتمال كونها بيانا، واحتمال كونها صفة برأسها، واحتمال كونها مدحا للموصوفين، وأكّد النورسي ذلك، وبيّن سرّ مناسبة الآية للتي قبلها فمن مدح القرآن إلى مدح المؤمنين فهو نتيجة له، ثم قال: أمّا وجه "الذين" مع "المتقين" فتشييع التخلية بالتحلية التي هي رفيقتها أبدا... والتحلية فعل الحسنات إمّا بالقلب أو القالب أو المال، فشمس الأعمال القلبية الإيمان، والفهرسة الجامعة للأعمال القالبية الصلاة التي هي عماد الدين، وقطب الأعمال المالية الزكاة إذ هي قنطرة الإسلام.

وزاد النورسي فبيّن سرّ التعبير بـ"الذين يؤمنون" دون "مؤمنون"؛ وذلك لما فيه من التشويق على الإيمان والتعظيم له. وفي الفعل تصوير وإظهار تلك الحالة المستحسنة في نظر الخيال، وللإشارة إلى تجدّده واستمراره، وتجليه بترادف الدلائل الآفاقية والأنفسية.

وزاد كذلك ببيان سرّ التعبير بالمضارع في قوله: "ويقيمون الصلاة"؛ وذلك لإحضار تلك الحركة الحياتية، والانتباه الروحاني الإلهي في العالم الإسلامي إلى نظر السامع، ووضع تلك الوضعية المستحسنة والحالة المنتظمة من نواحي نوع البشر نصب عين الخيال؛ ليهيج المشاعر، ويوقظ ميلان السامع للتأسي.

واستثمر الزمخشري بيان إسناد الرزق إلى نون العظمة في قوله تعالى: "ومما رزقناهم ينفقون" لصالح مذهبه الاعتزالي، وبيّن سرّ التعبير بـ"من" التبعيضية، وتقديم مفعول الفعل، بينما نرى النورسي يفوقه في شمولية بيان أسرار النظم التي يستثمرها لصالح قضايا عصره، فيتحدى بالزكاة النظم الاقتصادية والاجتماعية في المدنية الحديثة، ويقول: إنّ من شروط الصدقة أن تقع موقعها

اللائق، وذلك:

- أن لا يسرف المتصدّق فيقعد ملوما، وهذا أفادته «من» التبعيضية.

- أن لا يأخذ من هذا ويعطي لذاك، بل من مال نفسه، وهذا مستفاد من تقديم "ممّا".

- أن لا يمنن فيستكثر، وهذا أفادته إضافة الرزق إلى نون العظمة، فالله هو المعطي.

- أن لا يخاف الفقر، وهذا مستفاد من إضافة الرزق إلى نون العظمة.

- أن لا يقتصر على المال، بل بالعلم والفكر والفعل أيضا، وهذا مستفاد من الإطلاق في الفعل.

- أن لا يصرف الآخذ في السفاهة، بل في النفقة والحاجة الضرورية. وبمادة "ينفقون" إلى شرط صرف الآخذ في النفقة والحاجات الضرورية.

قوله تعالى: ﴿والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(البقرة:٤).

تساءل الزمخشري عن هؤلآء أهم الأولون أم غيرهم؟ وأجاب بالاحتمالين. وبيّن سرّ العطف بالواو ومعناه، وعلى فرض أنّهم غير الأولين فهل يدخلون في المتقين أم لا؟ وأجاب بأنّ ذلك يتبع العطف وبيّن سر التعبير بالماضي في قوله: "أنزل" مع أنّه لم ينزل كلّه وقت ذاك. وبيّن سرّ تقديم "الآخرة"، وبناء "يوقنون" على "هم".

وزاد النورسي بأن بيّن سرّ التعبير بـ"الذين"؛ للدلالة على أنّ وصف الإيمان هو مناط الحكم. وبالمضارع "يؤمنون"؛ للدلالة على تجدّد الإيمان بتواتر النزول. و بـ"ما" الإبهام؛ إيماء إلى أنّ الإيمان مجملا قد يكفي، وإلى تشميل الإيمان بنزوله من عند الله تعالى، وفي الماضي إلى تحقّق نزوله وبـ"إليك" بدل "عليك" للإشارة إلى أنّ الرسالة وظيفة كلّف بها النبيّ ﷺ وتحمّلها بجزئه الاختياري.

وزاد كذلك بأن بيّن أسرار النظم في قوله: "وما أنزل من قبلك" ففيه عطف المدلول على الدليل، وعلى معنى: يا أيّها الناس إذا آمنتم بالقرآن فآمنوا بالكتب

السابقة، وعطف الدليل على المدلول، على معنى: يا أهل الكتاب إذا آمنتم بالأنبياء السابقين فآمنوا بمحمّد ﷺ وفيه إشارة إلى أنّ مآل القرآن -الإسلامية الناشئة زمن السعادة- كشجرة أصلها ثابت في أعماق الماضي، ومنتشرة العروق، متشوّبة عن منابع حياتها وقوّتها، وفروعها في سماء الاستقبال ناشرة أغصانها مثمرة، أيّ: أخذت الإسلامية بقرني الماضي والاستقبال وفيه تشويق لأهل الكتاب إلى الإيمان، وتأنيسهم والتسهيل عليهم.

وأكد ما ذكره الزمخشري في قوله تعالى: "وبالآخرة هم يوقنون" من أسرار، وزاد عليها ببيان العطف والتعريف، وسرّ التعبير بـ"الآخرة"، وسرّ ذكر "يوقنون" بدل "يؤمنون".

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(البقرة:٥)

بيّن الزمخشري وجوه موقعها من الإعراب وبين سرّ التعبير بـ"أولئك"، ومعنى الاستعلاء في قوله: "على هدى" وتنكير "هدى" وتكرير "أولئك" ولم جاء مع العاطف "وأولئك هم المفلحون". وضمير الفصل "هم" والتعريف في "المفلحون".

أمّا النورسي فقد أكّدها، وزاد ببيان وجه اتصال الآية بما تقدّمها، وسرّ التعبير في قوله: "من ربهم" التي يشير بها إلى أنّ الخلق والتوفيق في اهتدائهم من الله، وإلى أنّ الهداية من شأن الربوبية، فكما يربيهم بالرزق يغذيهم بالهداية وسر الإطلاق في قوله: "المفلحون" لما أنّ المخاطبين على طبقات كلّ يبتغي وجها من الفلاح.(٦٤)

وهكذا يتبين عمق إدراك النورسي لنظم القرآن، واستقلاليته في تذوّقه وبيانه الشمولي له. ويتبيّن كيف كان النورسي -أثناء بيانه لأسرار النظم- مشغولا باستثمار هذه الأسرار وتوظيفها لصالح الإسلامية التي تجابه اللادينية في عصر التحدّي الذي عاشه. أما نظرة الزمخشري فكانت ضيّقة حيث كان يوّظف بعض هذه الأسرار لصالح مذهبه الاعتزالي، وكان النورسي -لأجل أن يكون كلامه

(٦٤) انظر: الزمخشري، جار الله محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مصر: دار الكتاب العربي، بلا تاريخ، ج١، ص ٣٠-٤٦، وإشارات الإعجاز، ص ٤٥-٧١.

مفهوما- يلجأ إلى سهولة التعبير ووضوحه. وكان كذلك يعمد إلى ربط الجملة بالجملة في الآية الواحدة ليظهر كمال تناسبها وروعة تناسقها فيما بينها ومع ما قبلها من آيات فإنّه سرّ النظم.

"إن المفسرين السابقين لم يحاولوا تطبيق نظرية النظم من حيث هي منظومة متكاملة تشمل ترتيب السور والآيات والألفاظ، سورة بعد سورة، وآية بعد آية ولفظاً بعد لفظ، بتفاصيلها الكاملة فأراد -النورسي- أن يؤلّف تفسيرا يطبق فيه نظرية النظم تطبيقا شاملا".[٦٥] رحم الله الزمخشري والنورسي وعلماء المسلمين جميعاً الذين أخلصوا لله ولكتابه.

الوجه الثاني: جامعية القرآن الخارقة

وتمثلت هذه الجامعية في خمسة أمور، هي:[٦٦]

١:٢ الجامعية الخارقة في لفظه. فقد وضعت الألفاظ القرآنية وضعا بحيث تتضمن وجوها كثيرة ليس في كلّ كلمة، بل في كلّ حرف كذلك. ومثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿والجبال أوتادا﴾(النبأ:٧)، فلكلّ من العامي، والشاعر، والبدوي البليغ، والجغرافي الأديب، والمتخصّص في أمور المجتمع والملمّ بمتطلبات الحضارة الحديثة، والفيلسوف الطبيعي نصيب من هذا اللفظ.

والنورسي رحمه الله متيقظ لما يترتب على هذا الوجه من السّعة والشمول فيضع شروطا لكلّ قول ووجه في فهم الآية: حتى لا تكون مدخلا لأصحاب الأهواء ومدعاة لهم إلى إبداء أيّ قول. وهي: أنّ تلك الوجوه لابدّ أن تستحسنها البلاغة، ويستصوبها علم اللغة العربية، وتليق بسر التشريع.[٦٧]

٢:٢ الجامعية الخارقة في معناه، فقد أفاض القرآن من خزينة معانيه مصادر جميع المجتهدين.

٣:٢ الجامعية الخارقة في علمه، فقد أجرى القرآن من بحر علمه إضافة إلى علوم الشريعة الحكمة الحقيقية لدائرة الممكنات، والعلوم الحقيقية لدائرة

---

(٦٥) عبد الحميد، محسن. مقدمة كتاب إشارات الإعجاز للنورسي، ص ٧.

(٦٦) الكلمات، ص ٤٥١-٤٦٧، ٨٨١.

(٦٧) المصدر السابق نفسه، ص٨٨١، وانظر: الرافعي، إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص ٢٣٥.

الوجوب، والمعارف الغامضة لدائرة الآخرة.

٤:٢ الجامعية الخارقة في مباحثه، فقد جمع القرآن المباحث الكلية لما يخصّ الإنسان ووظيفته، والكون وخالقه، والأرض والسموات، والدنيا والآخرة، والماضي والمستقبل، والأزل والأبد، فضلا عن مباحث مهمة أساسية ابتداء من خلق الإنسان من نطفة إلى دخوله القبر، ومن آداب الأكل والنوم إلى مباحث القضاء والقدر...

٥:٢ الجامعية الخارقة في أسلوبه وإيجازه، وهذه الجامعية تتضمن خمسة أمور ايضا، هي:

١:٥:٢ أن لأسلوب القرآن جامعية خارقة من حيث إنّ سورة واحدة تتضمن بحر القرآن، وإنّ آية واحدة تضم خزينة تلك السورة، وإنّ أكثر الآيات كلّ منها كسورة قصيرة، وإنّ كلّ سورة في حكم قرآن صغير.

٢:٥:٢ إنّ الآيات القرآنية جامعة بدلالاتها وإشاراتها لأنواع الكلام والمعارف الحقيقية، والحاجات البشرية كالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والزجر والإرشاد، والقصص والأمثال، والأحكام والمعارف الإلهية، والعلوم الكونية، وقوانين وشرائط الحياة الشخصية والحياة الاجتماعية، والحياة القلبية، والحياة المعنوية والحياة الأخروية.. بمعنى أنّ آيات القرآن فيها من الجامعية ما يمكن أن يكون دواء لكلّ داء، وغذاء لكلّ حاجة.

٣:٥:٢ الإيجاز المعجز للقرآن؛ فقد يذكر القرآن مبدأ سلسلة طويلة ومنتهاها ذكرا لطيفا يُرى السلسلة بكاملها، وقد يدرج في كلمة واحدة براهين كثيرة لدعوى صراحة وإشارة ورمزا وإيماء.

٤:٥:٢ إيجاز القرآن جامع ومعجز، فلو أنعم النظر فيه لشوهد بوضوح أنّ القرآن قد بيّن في مثال جزئي وفي حادثة خاصّة دساتير كلية واسعة، وقوانين عامّة طويلة، وكأنّه يبين في غرفة ماء بحراً واسعا؛ فتعليم الأسماء لآدم يفيد تعليم جميع العلوم والفنون الملهمة لبني آدم.

٥:٥:٢ الجامعية الخارقة لمقاصد القرآن ومسائله ومعانيه وأساليبه ولطائفه ومحاسنه. حقا إنّ جميع هذه الأجناس المختلفة الكثيرة في موضع واحد من

دون أن ينشأ منه اختلال نظام أو اختلاط وتشوّش. إنّما هو شأن نظام إعجاز قهّار ليس إلاّ.

وهذا الوجه بهذا البيان الرائع البديع لم أره لغير بديع الزمان رحمه الله تعالى.

الوجه الثالث: الإعجاز المعرفي والحضاري

لقد تنبأ النورسي رحمه الله بتقهقر البشرية واضطرابها، وأكّد أنّ هدى القرآن سيكون بلا ريب عاليا في هذا التقهقر والاضطراب؛ لأنّ القرآن الكريم قد حافظ على شبابيته وفتوّته حتى كأنّه ينزل في كلّ عصر خاصاً إلى أهل ذلك العصر؛ لأنّه الخطاب الأزلي إلى جميع طبقات البشر.(٦٨)

فنداء القرآن المتكرر -على سبيل المثال- "يا أهل الكتاب" يفهم منه في هذا العصر أنّ المستكبرين من الناس وأهل الكتاب منهم خاصّة أحوج ما يكونون إلى إرشاد القرآن، فكأنّ المقصود بـ"أهل الكتاب" أهل الثقافة والمدنية الحديثة، فكيف كان القرآن معجزاً لهم؟ فلأجل ذلك المعارض الجديد الرهيب نضع الأسس والدساتير التي أتت بها المدنية الحديثة أمام أسس القرآن الكريم.(٦٩)

لقد بيّن النورسي أنّ عجز المدنية الحديثة أمام القرآن واردة من ثلاث جهات:

الجهة الأولى: وتتضمن عقد الموازنات بين ما جاء به القرآن الكريم من متطلبات الدنيا والآخرة لإسعاد الإنسان وبين ما هو في الحضارة الحديثة التي تثبت عجزها، فكثير من القضايا التي يقف المسلم منها على بيّنة ونور نرى المدنية الحديثة قد ضلّت فيها ضلالا بعيداً، مثل "بسم الله" التي يتحدّد بها اتجاه المسلم في كلّ حركة وسكنة. والإيمان، ونظرة المؤمن إلى الدنيا. والوحدانية. والعبادة وخصوصا الصلاة. ووظيفة الإنسان الحقّة، وقضية بيع النفس والمال إلى الله.

والإيمان بالله واليوم الآخر اللذان يحلان لغز الكون، وحقيقة الدنيا ومهامّ الإنسان فيها، ومبدأ الحشر والآخرة وأثرهما، وأسرار حكمة العالم ولغز خلق الإنسان والكون. وتأديب النفس، وإثبات الرسالة الأحمدية. والقضاء والقدر..

(٦٨) الكلمات، ص ٨٨١، وانظر: ص ٤٧١-٤٧٧.

(٦٩) نفسه، ص ٤٧٢.

كلّ هذه القضايا ضلت فيها الثقافة الحديثة، وثبت بها إعجاز القرآن الكريم.

الجهة الثانية: وتتضمن مقارنات بين دستور القرآن في نظرته للكون والحياة، ودستوره في التربية الأخلاقية،[٧٠] ودستوره في الحياة الاجتماعية من حيث ركيزتها وهدفها ودستورها ورابطتها وغايتها ونتيجتها في نظر القرآن، وفي نظر المدنية الحديثة ليرى كيف غلبها القرآن وتفوق عليها. ولنوضح تلك المقارنة التي ذكرها النورسي في الحياة الاجتماعية فحسب من خلال الشكل الآتي:

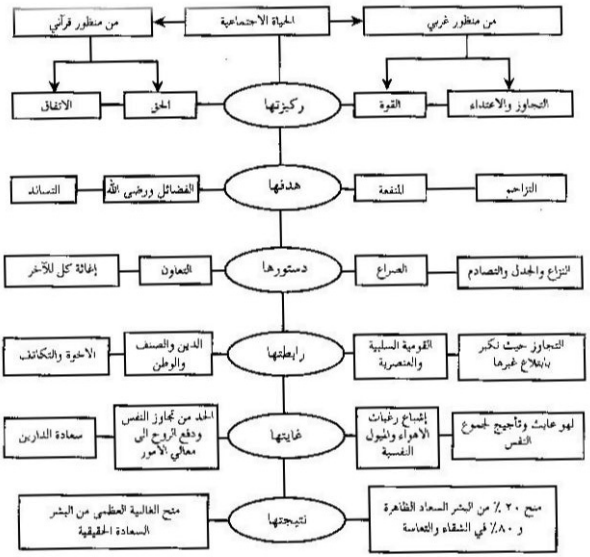

الجهة الثالثة: أكدت هذه الجهة أنّ دساتير القرآن وقوانينه لأنّها آتية من الأزل فهي باقية إلى الأبد، لا تهرم كما تهرم القوانين المدنية، فالزواج أو تعدد الزوجات قابلته المدنية الحديثة بفتح أماكن العهر والفحش، وفي الاقتصاد وفي الميراث وغيره تبقى قوانين القرآن خالدة ثابتة؛ فمثلاً، إنّ المدنية الحديثة بكلّ جمعياتها الخيرية عجزت، فلم تستطع بكلّ أنظمتها الصارمة ومؤسساتها

(٧٠) نفسه، انظر الصفحات: ١٤١، ١٤٤، ٥٠٨-٥١٠.

التربوية والأخلاقية – معارضة مسألتين من القرآن، هما: مسألة الزكاة، ومسألة الربا. وذكر أنّ أس أساس جميع الإضطرابات والثورات في المجتمع الإنساني إنّما هو كلمة واحدة هي:

"إن شبعت أنا، فلا عليّ أن يموت غيري"

كما أنّ منبع جميع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضا، هي: "اكتسب أنت، لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا"

لقد عجزت المدنية الحديثة أن تصلح بين تينك الطبقتين: الخواص والعوام، بينما اقتلع القرآن الكلمتين من جذورهما.[٧١]

والخلاصة: أنّ فلسفة أوروبا ومدنيتها الحديثة قد غلبت أمام إعجاز حكمة القرآن العلمي والعملي، كذلك هزمت آداب تلك المدنية وبلاغتها أمام أدب القرآن وبلاغته.[٧٢]

إنّ القرآن الكريم لا يقبل إلاّ طرازا من المدنية التي تمنح السعادة للجميع، بينما المدنية الحديثة قد محت راحة البشرية وهوت بها في مكان سحيق،[٧٣] ولذلك حذر النورسي أبناء بلاده من تقليد أوروبا التي شوهت الحقائق، وكادت لأبناء هذا الدين، وقال: يا أوروبا! اعلمي جيدا أنّك أخذت بيمينك الفلسفة المضلّة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفيهة، ثم تدّعين أنّ سعادة الإنسان بهما، ألا شُلّت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالا عليك، وستكون.[٧٤]

وذكر النورسي رحمه الله أنّ القرآن الكريم ذكر حوادث جزئية كتعليم آدم عليه السلام الأسماء كلّها، وذبح البقرة في قصة موسى عليه السلام، ووصف قلوب بني إسرائيل بأنّها كالحجارة أو أشدّ قسوة، وهو يهدف من ورائها إلى وضع قوانين شمولية للحياة، فقال: إنّ الحوادث الجزئية المذكورة في القرآن على صور حوادث تأريخية إنّما هي طرف وجزء من دساتير كلية شاملة ينبّئ

(٧١) نفسه، ص ٤٧٣-٤٧٤.

(٧٢) نفسه، ص ٤٧٦.

(٧٣) نفسه، ص ٨٥٦.

(٧٤) النورسي، اللمعات، مصدر سابق، ص ١٧٧.

عنها، وهي دروس ضرورية في الحكمة يحتاجها كلّ أحد في كلّ وقت.[٧٥]

وبيّن سرّ ورودها بهذا الأسلوب فقال: "إنّ الإيجاز المعجز هو أساس مهمّ من أسس الإعجاز وكذا لطف الإرشاد وحسن الإفهام الذي هو نور من هدى القرآن، يقتضيان أن تبين الحقائق الكلية والدساتير الغامضة العامة في صور جزئية مألوفة للعوام الذين يمثلون معظم مخاطبي القرآن، وأن لا تبين لأولئك البسطاء في تفكيرهم إلاّ طرفا من تلك الحقائق المعظمة، وصورا بسيطة منها".[٧٦]

الوجه الرابع: التكامل المعرفي

يبدو أنّ نظرة النورسي الشمولية إلى القرآن الكريم، ومعايشته لواقع التحدّي الذي شهدته الأمة مكنته من الاعتقاد العلمي والعملي اليقيني أنّ القرآن هو المرجعية الأساس في مختلف العلوم، وأنّ هذه العلوم جميعا تصدر من مشكاة القرآن، وأنّ القرآن هو المصدر الحقيقي لها، إنّ في أفكار النورسي تربة خصبة لإعادة تشكل المعرفة في ضوء جامعية القرآن الخارقة في مباحثه، وجامعيته الخارقة في مقاصده ومسائله ومعانيه وأساليبه ولطائفه ومحاسنه... كل أولئك تربة خصبة يمكن لهذه الفكرة، فكرة التكامل المعرفي أن تنمو فيها نموا نشطا، ومن الأفكار الأخرى التي قدّمها النورسي لإحداث عملية التكامل:

- بيان معجزات[٧٧] الأنبياء حيث تشير كل معجزة إلى خارقة من خوارق الصناعات البشرية، أما معجزة آدم عليه السلام فهي تشير إلى فهرس خوارق العلوم والفنون والكمالات، وتشوق إليها جميعا مع إشارتها إلى أسس الصنعة إشارة مجملة مختصرة، وأما المعجزة الكبرى للرسول الأعظم ﷺ ذات البيان المعجز فلأنّ حقيقة تعليم الأسماء تتجلى فيه بوضوح تام، وبتفصيل أتم: فإنّه يبين الأهداف الصائبة للعلوم الحقّة وللفنون الحقيقية، ويظهر بوضوح كمالات الدنيا والآخرة وسعادتهما، فيسوق البشر إليها، ويوجّهه نحوها، مثيرا فيه رغبة شديدة فيها، حتى إنّه يبين بأسلوب التشويق أن: أيّها الإنسان! المقصد الأسمى

(٧٥) الكلمات، ص ٢٧١.

(٧٦) المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٢.

(٧٧) لم يسمّ القرآن الكريم الخوارق التي جرت على أيدي الأنبياء معجزات، ولكن سمّاها آيات.

من خلق هذا الكون هو قيامك أنت بعبودية كلية تجاه تظاهر الربوبية، وأنّ الغاية القصوى من خلقك أنت هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات، والنتيجة: ما دامت الآيات التي تخص معجزات الأنبياء عليهم السلام لها نوع خاص من الإشارة إلى خوارق التقدّم العلمي والصناعي الحاضر، ولها طراز من التعبير كأنّه يخطّ أبعد الحدود النهائية لها، وحيث إنّه ثابت قطعا أنّ لكلّ آية دلالات على معان شتى، بل هذا متفق عليه لدى العلماء.. ولمّا كان هناك أوامر مطلقة لأتباع الأنبياء عليهم السلام والإقتداء بهم، لذلك يصح أن نقول: إنّه مع دلالات الآيات المذكورة على معانيها الصريحة هناك دلالات مشوّقة بأسلوب الإشارة إلى أهم العلوم البشرية وصناعاتها.(٧٨)

ونجده مثلا يذكر أنّ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾(الحجر:٢١) يشير إلى أنّ الحكمة العامة المهيمنة على الكون والتي هي تجلّ أعظم لاسم "الحكيم" إنّما تدور حول محور الاقتصاد، وعدم الإسراف، بل تأمر بالاقتصاد، ويستنبط من ورود ذكر "الميزان" في سورة الرحمن أربع مرات - أنّ العدالة والاقتصاد والطهر التي هي من حقائق القرآن ودساتير الإسلام ما أشدّها إيغالا في أعماق الحياة الاجتماعية! وما أشدّها عراقة وأصالة! وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القران بالكون، وكيف أنّها مدّت جذورا عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعرى وثيقة لا انفصام لها.(٧٩)

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد:٢٥) قال: لا يريد القرآن أن يبين استخراج الحديد تدريجيا من هذا المخزن الصغير -الأرض- بل يريد أن يبين أن تلك النعمة العظمى قد أنزلت من الخزينة الكبرى للكون مع كرة الأرض، وذلك لإظهار أنّ الحديد أكثر ضرورة لخزينة الأرض، بحيث إنّ الخالق الجليل عندما فصل الأرض من الشمس أنزل معها الحديد؛ ليحقق أكثر حاجات البشر ويضمنها، فالقرآن الكريم يقول بإعجاز: أنجزوا بهذا الحديد أعمالكم، واسعوا للاستفادة منه بإخراجه من باطن الأرض.(٨٠)

---

(٧٨) انظر: الكلمات، ص ٢٧٩، ٢٩٢-٢٩٣، ٥١٥، و إشارات الإعجاز، ص ٢٣٨.

(٧٩) اللمعات، ص ٥٢٦.

(٨٠) المصدر السابق نفسه، انظر: ص ٤٢٣-٤٢٤

ويقول: إنّه تعالى بتعليم آدم الأسماء كلّها يفيد تعليم جميع العلوم والفنون الملهمة لبني ادم، فمثلا علم الهندسة يرتكز على اسم الله تعالى "العدل، والمقدر". وعلم الطب يرتكز على اسمه تعالى "الشافي" والعلوم التي تبحث في حقيقة الموجودات كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان، هذه العلوم التي هي حكمة الأشياء ترتكز على اسمه تعالى "الحكيم".[٨١]

ويقرر في أكثر من موضع من رسائله أنّ الآيات القرآنية جامعة بدلالاتها وإشاراتها لأنواع العلوم والمعارف الحقيقية والحاجات البشرية... وجميع خلاصات العلوم الكونية، وقوانين وشرائط الحياة الاجتماعية، والتربوية، والشخصية، والحياة القلبية والمعنوية، والأخروية. بل إنّ الكلمات القرآنية لها هذه الصفة، وأكّد هذا المعنى عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾(الكهف:١٠٩) وعنى بـ"كلمات ربي": القرآن، فهو حيّ يتدفق بالحياة.[٨٢]

وهكذا نجد أنّ النورسي يؤكد أهمية هذا الوجه في تكامل العلوم في ضوء إعجاز القرآن فالديانة والشريعة الإسلامية المؤسسة على البرهان العقلي ملخصة من علوم وفنون تضمنت العقد الحياتية في جميع العلوم الأساسية: من فنّ تهذيب الروح، وعلم رياضة القلب، وعلم تربية الوجدان، وفنّ تدبير الجسد، وعلم تدبير المنزل، وفنّ سياسة المدنية، وعلم نظام العالم، وفنّ الحقوق، وعلم المعاملات، وفنّ الآداب الاجتماعية.. فمن زيّن وجدانه بالإنصاف يصدّق بأنّ حقيقة هذه الشريعة خارجة عن طاقة البشر دائماً لاسيما في ذلك الزمان.[٨٣]

فالقرآن لا يفهم إلا في ضوء كتاب الكون، وكتاب الكون لا يفهم إلاّ على أسس القرآن، والنورسي رحمه الله يؤكد هذه الحقيقية، أو هذا الأساس في فهم القرآن فيقول: إنّ القرآن المقروء هو أعظم تفسير وأسماه، وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع، الذي هو قرآن آخر عظيم منظور.[٨٤]

---

(٨١) انظر: الكلمات، ص ٢٩٠-٢٩١، ٧٤٩.

(٨٢) الكلمات، ص ٤٦٦. اللمعات، ص ٤٢١.

(٨٣) إشارات الإعجاز، ص ١٧٢

(٨٤) الكلمات، ص ١٤٣.

الوجه الخامس: الوحدة البنائية للقرآن الكريم

يفهم من كلام النورسي في هذا الوجه أنّ القرآن الكريم وَحدة واحدة، نزل ليصدّق بعضه بعضا، ويفسّر بعضه بعضا، وليس فيه موطن شبهة أو اختلاف؛ فقد نزل منجما في ثلاث وعشرين سنة ومع ذلك فإنّه يظهر من التلاؤم الكامل كأنّه نزل دفعة واحدة، ونزل منجما في تلك المدّة لأسباب نزول مختلفة، ومع ذلك فإنّه يظهر من التساند التام كأنّه نزل لسبب واحد، وجاء جوابا لأسئلة مكرّرة متفاوتة، ومع ذلك فإنّه يظهر من الامتزاج التام والاتحاد الكامل كأنّه جواب عن سؤال واحد. وجاء مبينا لأحكام حوادث متعدّدة متغايرة، ومع ذلك فإنّه يظهر من الانتظام الكامل كأنّه بيان لحادثة واحدة. ونزل متضمنا لتنزّلات كلامية إلهية في أساليب تناسب أفهام مخاطبين لا يحصرون، ومن حالات من التلقي متخالفة متنوعة، مع أنّه يبين من السلاسة اللطيفة والتماثل الجميل كأنّ الحال واحدة والفهم واحد. وجاء مكلما متوجّها إلى أصناف متعدّدة متباعدة من المخاطبين، مع أنّه يظهر من سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الإفهام كأنّ المخاطبين صنف واحد بحيث يظن كلّ صنف أنّه المخاطب وحده بالأصالة. ونزل هاديا وموصلا إلى غايات إرشادية متدرجة متفاوتة مع أنّه يبين من الاستقامة والموازنة الدقيقة والانتظام الجميل كأنّ المقصد واحد.[٨٥]

وهذا وجه بديع من وجوه إعجاز القرآن قد فصّل فيه بديع الزمان رحمه الله القول، وإن كانت فكرته مدركة لدى علمائنا غير مفصّلة في كلامهم، فالقرآن كلام واحد منتظم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلا ينبغي أن يتنازع فيه، وهذا من الأسس المهمة في التعامل مع الكتاب العزيز.

الوجه السادس: إقامته لمنهجية التوازن

عقد النورسي مبحثا مستقلا للدلالة على هذا الوجه، ويقصد به أنّ القرآن الكريم قد حافظ على التوازن في بيانه التوحيد بجميع أقسامه مع جميع مراتب تلك الأقسام وجميع لوازمه، ولم يخلّ باتزان أيّ كان منها، ثم إنّه قد حافظ

(٨٥) الكلمات، ص ٤٨١-٤٨٢.

على الموازنة الموجودة بين الحقائق الإلهية السامية كلّها، وجمع الأحكام التي تقتضيها الأسماء الحسنى جميعها مع الحفاظ على التناسب والتناسق بين تلك الأحكام، ثم إنّه قد جمع بموازنة كاملة شؤون الربوبية والألوهية، فهذه المحافظة والموازنة والجمع لا مثيل لها من آثار البشر؛ فالقرآن يرى جميع الدساتير التي تحقق سعادة الدارين ويبيّنها مع بيانه كلّ ركن من أركان الإيمان الستة بالتفصيل، وكلّ ركن من أركان الإسلام الخمسة بقصد وجدّ محافظا على الموازنة فيما بينها جميعا مديما تناسبها، فينشأ من منبع الجمال والحسن البديع الحاصل من تناسب مجموع تلك الحقائق وتوازنها إعجاز معنوي رائع للقرآن، ومن هنا ندرك أنّ علماء الكلام الذين رجحوا العقل على النقل عجزوا عن أن يوضّحوا ما تفيده عشرُ آيات من القرآن الكريم وتثبته إثباتا قاطعا بما يورث القناعة والاطمئنان.[٨٦]

ويرى أنّ حقائق الشريعة مع تلك المصادمات العظيمة والانقلابات العجيبة والعصور المديدة حافظت على موازنة قوانين الفطرة، وروابط الاجتماعيات اللاتي بدقتها لا تتراءى للعقول مع كمال المناسبة والمصافاة معها، فكلّما امتدّ الزمان تظاهر الاتصال بينها، ويتظاهر من هذه الحالة أنّ الإسلامية هي الدّين الفطري لنوع البشر، وأنّها حقّ.[٨٧]

إنّ كمال انتظام الشريعة العظمى النابعة من نصوص القرآن ومن إشاراته ورموزه، وجمال توازنها الدقيق وحسن تناسب أحكامها ورصانتها شاهد عدل على أحقية القرآن؛ لأنّ البيانات القرآنية لا يمكن أن تستند إلى علم جزئي لبشر.[٨٨]

ولا أدري بعد هذا البيان البديع لمَ جعل الشيخ الزرقاني رحمه الله هذا الوجه من الوجوه المعلولة في إعجاز القرآن.[٨٩]

---

(٨٦) انظر: الكلمات، ص ٥١٢-٥١٤.

(٨٧) إشارات الإعجاز، ص ١٧٠.

(٨٨) الكلمات، ص ١٥٤-١٥٥.

(٨٩) الزرقاني، محمد عبد العظيم. مناهل العرفان في علوم القرآن، مصر: مطبعة الحلبي، بلا تاريخ، ج ٢، ص ٣٠٩.

الوجه السابع: حاكمية القرآن وهيمنته

ذكر النورسي أنّ القرآن قد بسط أحد جناحيه نحو الماضي، والآخر نحو المستقبل، فالحقيقة التي اتفق عليها الأنبياء السابقون هي جذر القرآن وأحد جناحيه، فهو يصدقهم ويؤيدهم، وهم يؤيّدونه ويصدقونه بلسان حال التوافق، وكذلك فإنّ الأولياء الصالحين والعلماء الأصفياء هم ثمار استمدت الحياة من شجرة القرآن الكريم، فتكاملهم الحيوي يدلّ على أنّ شجرتهم المباركة هي ذات حياة وعطاء، وذات فيض دائم، وذات حقيقة وأصالة[٩٠] إنّ القرآن معدّل ومكمّل في الأصول، وجامع محاسن الكتب السابقة، وأصول الشرائع السالفة.[٩١]

فبسط جناحيه على الماضي والمستقبل دليل هيمنته. وتعديله وإكمال ما جاء في الكتب السابقة دليل حاكميته ومرجعيته، وتتلمذ الجمّ الغفير من العلماء الأولياء دليل عالميته. وأولى ما تكون هذه الهيمنة والحاكمية في الجانب العلمي والمعرفي، فضلا عن كونها في الجانب الحياتي.

الوجه الثامن: إخباراته الغيبية

الإخبارات الغيبية التي تضمنها القرآن ثلاثة أنواع وليست أربعة كما ذكر في المكتوبات:[٩٢] غيب الماضي، فقد ذكر أخبارا من لدن آدم -عليه السلام- إلى خير القرون، وغيب المستقبل كالإخبار بعصمته، وهزيمة أعدائه، وغلبة الروم، ودخول البيت الحرام. وإخباراته الغيبية المتعلقة بالحقائق الإلهية والحقائق الكونية، والأمور الأخروية.[٩٣]

وفي التعقيب على ذكر الإخبارات الغيبية التي تضمنتها سورة الفتح ذكر النورسي أنّ الإخبار الغيبي له لمعات كثيرة لا تعدّ ولا تحصى، لذلك فإنّ حصر أهل الظاهر تلك الإخبارات الغيبية في أربعين أو خمسين آية فقط إنّما هو ناشئ من نظر ظاهري سطحي، بينما في الحقيقة هناك ما يربو على الألف منها، بل قد

---

(٩٠) الكلمات، ص ٥٢٠.

(٩١) إشارات الإعجاز، ص ٥٩.

(٩٢) المكتوبات، مصدر سابق، ص ١٤٣.

(٩٣) الكلمات، ص ٤٦٨-٤٧١.

تكون في آية واحدة فقط أربعة أو خمسة أخبار غيبية، ويعني بها الآية الأخيرة من سورة الفتح.[٩٤]

ووجه آخر من وجوه الإعجاز الغيبي، أنّ القرآن ينقل النقاط الأساسية للأخبار الصادقة كالشاهد الحاضر لها بأسلوب بديع غزير المعاني لينبّه بها البشر، فقد نقل أخبار الأولين، وأحوال الآخرين، وأسرار الجنة والجحيم؛ وحقائق عالم الغيب وأسرار عالم الشهادة، والأسرار الإلهية والروابط الكونية. تلك الأخبار مشاهدة شهود عيان، لا يردّها الواقع ولا يكذّبها المنطق، بل لا يستطيع ردّها أبدا ولو لم يدركها، فهو مطمح العالم في الكتب السماوية، إذ ينقل الأخبار مصدقا بها في مظانّ الاتفاق، ويبحث فيها مصححا لها في مواضع الاختلاف،[٩٥] ولهذا الكلام صلة بالوجه السابق أيضاً، لقد تقرر في رأي النورسي أن القرآن الكريم من أوله إلى آخره بالنسبة إلى علماء الباطن هو نوع من الإخبار عن الغيب. [٩٦]

الوجه التاسع: خطابه كلّ طبقة من طبقات الناس

سئل النورسي رحمه الله عن سرّ اختلاف المفسرين في وجوه تركيب القرآن فقال: إنّ من وجوه إعجاز القرآن نظمه وسبكه في أسلوب ينطبق على أفهام عصر فعصر، وطبقة فطبقة.[٩٧]

لقد حافظ القرآن على شبابيّته وفتوّته فخاطب كلّ طبقة من طبقات البشر في كلّ عصر من العصور، وكأنّه متوجّه توجّها خاصّا إلى تلك الطبقة بالذات، إذ لمّا كان القرآن ذا خطاب عالمي متوجّها إلى كلّ طبقات البشر للإيمان ومعرفة الله؛ ناسب أن يكون الدرس الذي يلقيه موائم فهم كلّ منها، فكلّ طائفة تأخذ حظها، ولا يدع القرآن أحداً محروما من إعجازه.[٩٨] وتلك هي التنزّلات الإلهية

---

(٩٤) اللمعات، ص ٤٩.

(٩٥) الكلمات، ص ٨٨٢.

(٩٦) نفسه، ص ٤٦٩.

(٩٧) إشارات الإعجاز، ص ٤٩.

(٩٨) الكلمات، ص ٤٧٨، وانظر: المكتوبات، ص ٢٣٨-٢٤٠.

إلى عقول البشر لتأنيس الأذهان المتنوعة بتنوع أساليب التنزيل،[٩٩] حتى إنّ من لا يملك إلاّ الرؤية فإنّه يرى الإعجاز ولو كان أصمّا أبكما، وذلك أنّ كلمات المصحف تتقابل وينظر بعضها إلى بعض فمثلاً: إنّ كلمة وثامنهم كلبهم تناظر كلمة قطمير في سورة فاطر، فلو ثقبت الصفحات ابتداء من الكلمة الأولى لتبينت الكلمة الثانية بانحراف يسير، ولفُهم اسم الكلب!!.[١٠٠]

الوجه العاشر: تأسيسه للدّين وتبديله للحياة

لقد أسس القرآن دينا لا مثيل له في الماضي ولا في المستقبل، فهو حبل الله المتين، يمسك الأرض لئلا تفلت، ويديرها دورانا سنويا ويوميا، فلقد وضع وقاره وثقله على الأرض، وساسها وقادها، وحال بينها وبين النفور والعصيان.[١٠١]

وقد تمكن القرآن من تبديل الحياة الاجتماعية تبديلا هائلاً نوّر الآفاق وملأها بالسعادة والحقائق، وأحدث انقلابا عجيبا في نفوس البشر وفي قلوبهم، أو في أرواحهم وفي عقولهم، أو في حياتهم الشخصية والاجتماعية والسياسية، وأدام هذا الانقلاب وأداره.[١٠٢]

الوجه الحادي عشر: عدم معارضته مع طول الزمان

طوال ثلاثة عشر قرنا من الزمان -بل نحن في القرن الخامس عشر اليوم- يحمل أعداء القرآن روح التحدّي والمعارضة، وتولّدت في أوليائه وأحبائه روح التقليد والشوق إليه، وكتب هؤلاء وهؤلاء ملايين الكتب التي لو قورنت مع القرآن لحكم العامي من الناس أنّها كتب بشرية وهذا القرآن كتاب إلهي، ولقد فتح القرآن الأبواب للبشر، ونشر مضامينه طوال هذه المدّة الطويلة، ودعا لنفسه الأرواح والأذهان، ومع هذا لم يستطع البشر معارضته، فلقد انتهى زمن الامتحان.[١٠٣] قلت: إنّ التحدي سيظل قائما إلى أن يرث الله الأرض ومن

---

(٩٩) الكلمات، ص ٨٨٢.

(١٠٠) انظر: المكتوبات، ص ٢٤٠-٢٤١، ٥٢٣.

(١٠١) الكلمات، ص ٨٨٣.

(١٠٢) نفسه، ص ٥١٨.

(١٠٣) نفسه، ص ٨٨٣، وانظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٢.

عليها، ولكن الشيخ يقصد إفلاس البشر وعجزهم عن معارضته.

الوجه الثاني عشر: الإعجاز العلمي

يتحدث النورسي عن منجزات العلم الحديث، ويرى أنّ القرآن لم يهمل هذا الجانب لأنّه خطاب للبشرية قاطبة، وقد أشار القرآن إلى هذا من جهتين؛ الأولى: معجزات الأنبياء. والثانية: سرده للحوادث الجزئية. ورأى أنّ البحث فيه يتطلب دقّة متناهية.[١٠٤] لئلا يتعرض النصّ القرآني لسوء التفسير والتأويل.

وتعرّض له في تفسير الرعد والبرق، فقال: هما آيتان ظاهرتان من جهة العالم الغيبي في أيدي الملائكة الموكلين على عالم السحاب لتنظيم قوانينه. ثمّ إنّ الحكمة الإلهية ربطت الأسباب بالمسبّبات فإذا تشكّل السحاب من بخار الماء المنتشر في الهواء صار قسم حاملا (للإلكتريك) المنفي وقسم حاملا (للإلكتريك) المثبت؛ فحينما يتقاربان يتصادمان دفعة فيتولد صدى الرعد، ولا تجري هذه الحالات إلاّ تحت نظام وقانون يتمثلهما ملك الرعد والبرق.[١٠٥]

ورسائله زاخرة بالأمثلة على هذا الوجه من إعجاز القرآن الكريم.

الوجه الثالث عشر: القرآن هو الطريق الموصل إلى معرفة الله تعالى

ذكر النورسي أنّ القرآن قد فاق مناهج الصوفية والمتكلمين والفلاسفة في الوصول إلى معرفة الله تعالى، ومع أنّ منهج الصوفية والمتكلمين قد تفرعا من القرآن إلاّ أنّ البشر قد أفرغهما في صور شتى؛ لذلك أصبحا منهجين طويلين، وذوي مشكلات، فلم يبقيا مصانين من الأوهام والشكوك، أمّا منهج القرآن الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، وبجزالته الساطعة فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان.[١٠٦]

ويؤكد أنّ ما يعرّف لنا ربّنا ثلاثة معرفين: كتاب الكون، والآية الكبرى لهذا الكتاب العظيم، وهو محمّد ﷺ، والقرآن الحكيم.[١٠٧]

---

(١٠٤) نفسه، انظر ص: ٢٧٧-٢٧٨.

(١٠٥) إشارات الإعجاز، ص ١٤١.

(١٠٦) المثنوي العربي النوري، مصدر سابق، ص ٤٢٨.

(١٠٧) الكلمات، ص ٢٥٤.

ويفهم من هذا أنّ مصدري معرفة الخالق التي هي أهم المعارف والتي هي حق الله على عباده ومصدر معرفة الحقائق الأخرى هما: مصدر الوحي، ومصدر الكون يعني الحسّ والتجربة والمشاهدة. وهو كلام جدير بالفهم والتطوير؛ ليستثمر في مناهج التعليم والتربية.

ويؤكد النورسي رحمه الله أن لا تزاحم بين طرق الإعجاز،[١٠٨] وهو على يقين بأنّ وجوه الإعجاز لا تنقضي، وليس هذا إلاّ طرفا يسيرا من الكلام كشف عن شيء من إعجاز القرآن ولم يوفه حقّه.

وسيظلّ القرآن معجزة قائمة متجدّدة، وليس الزمن وحده هو الكفيل بإظهار وجوه أخرى، بل التفكر والتأمّل في آيات القرآن، بل الحياة مع القرآن الكريم كذلك.

المبحث الثالث

شبهات على إعجاز القرآن

لم يغفل النورسي الردّ على الشبهات التي أثارها ملاحدة العصر على القرآن الكريم، بل كان لها بالمرصاد، وأكّد أن القرآن الكريم يحمي نفسه وينفذ حكمه.[١٠٩]

واستعرض النورسي أهم تلك الشبهات، على النحو الآتي:

الشبهة الأولى: وجود المتشابهات والمشكلات في القرآن مناف للإعجاز المؤسّس على البلاغة المبنية على ظهور البيان ووضوح الإفادة.

الثانية: أنّ القرآن أطلق وأبهم في حقائق الخلقة وفنون الكائنات، وهو مناف لمسلك التعليم والإرشاد.

الثالثة: أنّ بعض ظواهر القرآن أميل إلى خلاف الدليل العقلي.

وردّه تلك الشبهات بقوله: إنّ أساليب القرآن مرعيّ فيها جمهور الناس "التنزّلات الإلهية إلى عقول البشر" حتى يتسنى للعوام دركها وفهمها؛ ولذلك

---

(١٠٨) إشارات الإعجاز، ص ١٧٩.

(١٠٩) الكلمات، ص ٨٧٨. وإشارات الإعجاز، ١٧٩.

جاءت متشابهة. وأكّد هذا عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٩)، فقال: إذا تفكّرت في وسعة خطابات القرآن ومعانيه ومراعاته لأفهام عامّة الطبقات من أدنى العوام إلى أخصّ الخواص ترى أمرا عجيبا، فكلّ يفهم "سبع سموات" بقدر استعداده من فيض القرآن الكريم.[١١٠]

وذكر النورسي أنّ كون العبارة مشكلا فإمّا راجع لدقّة المعنى وعمقه، أو لإيجاز الأسلوب وعلوّيته فمشكلات القرآن من هذا القبيل[١١١] ففيه إيهام؛ لأنّ الإشكال يقع في الأفهام لا في نصّ القرآن الكريم، وتأمّل في الآيات التي زعموها مشكلة! تجد اختلافا بينهم في عددها وقضية إشكالها، فكلّ إشكال فهو في فهم صاحبه لقلّة علمه وضعف وسيلته. وإنّ القرآن الكريم بريء من إغلاق اللفظ وتعقيد العبارة.

وردّ الشبهة الثانية بقوله: لو فصّل القرآن في العلوم في ذلك الوقت لشوّش أذهان الجمهور، والأولى أن يكلّم الناس على قدر عقولهم.

وردّ الشبهة الثالثة بقوله: إنّ مقاصد القرآن أربعة، فذكر الكائنات في القرآن إنّما هو تبعي واستطرادي للاستدلال بالصنعة الإلهية والنظام البديع على الخالق الحقيقي جل جلاله.[١١٢]

والحاصل: أنّ إعجاز القرآن الكريم لأنّه نزل لجميع الناس في جميع الأعصار يكون هذه النقاط الثلاث دلائل إعجازه، والذي علّم القرآن المعجز أنّ نظر البشير النذير وبصيرته النقادة أدقّ وأجلى وأنفذ من أن يلتبس أو يشتبه عليه الحقيقة بالخيال، وأنّ مسلكه الحق أغنى وأعلى وأرفع من أن يدلّس أو يغلط على الناس.[١١٣]

وقد أورد النورسي رحمه الله كذلك شبهات على أسلوب القرآن وردّ عليها رداً قاطعاً، منها: كيف يتنزل الله بعظمته وجلاله للتكلّم مع البشر بمثل محاورة

---

(١١٠) إشارات الإعجاز، ص ٢٢٧.

(١١١) نفسه، ص ١٧٥.

(١١٢) إشارات الإعجاز، ص ١٧٦-١٧٧.

(١١٣) المصدر السابق نفسه، وانظر: الكلمات، ص ٢٦٦.

الإنسان، وبإيراد أمثلة جزئية بأشياء محقّرة، وما الحاجة إلى أمثال هذه التمثيلات المومئة إلى العجز عن إظهار الحقيقة!!

وردّ النورسي هذه الشبهات بما مضمونه: أنّ إرادة الله تعالى وعلمه وقدرته كلية عمومية شاملة، وليس مقياس عظمته إلا مجموع آثاره، فإذا ألقت الشمس ضياءها على ذرّة ملوّثة أيقال لها: كيف تنزلت بعظمتها للاشتغال والاهتمام بمثل هذه الذّرة؟! ولمّا كانت هذه الذرّات الخسيسة مخلوقة لله معلومة له فلا مشاحة بالبداهة أن يبحث عنها، ولمّا كان المخاطب بهذا الكلام بشراً لبس القرآن أسلوب البشر الممزوج بحسّياته المسمى بـ"التنزّلات الإلهية إلى عقول البشر".. ألا تراك إذا حاورت صبيا تتصبّى له! ولمّا كان المقصد من إنزال القرآن إرشاد الجمهور، والجمهور عوام لا يرون الحقائق المحضة والمجردات الصرفة عراة عن متخيلاتهم - ألبس الله تعالى بلطفه وإحسانه الحقائق لباس مألوفاتهم؛ لتحسن ألفتهم.[١١٤]

خاتمة الفصل

وبعد، فإنّ أهم ما يمكن ملاحظته على منهج بديع الزمان في إعجاز القرآن وبيانه له ما يأتي:

- إنّ حديثه فيه استند إلى أرضية التحدّي والصراع، وتلك الظلال الاجتماعية والمعاني الإيمانية والدعوية، والغايات التربوية التي حملتها معاني الإعجاز في فكر النورسي، ولئن حرص علماؤنا على بيان إعجاز القرآن للمسلم على وجه التفصيل ولغيرهم على وجه الإجمال، فإنّ النورسي كان حريصاً على أن يبيّن وجوه إعجاز القرآن للناس كافّة على وجه التفصيل. صحيح أنّ النورسي قد تأثر بمن سبقه في بيان إعجاز القرآن إلاّ أنّه يجب الاعتراف أنّه حدّد معالم للإعجاز القرآني لم يسبق إليها، ومع أنّه متأثر بعبد القاهر الجرجاني ونظريته في نظم القرآن إلاّ أنّه لم يتوقف عند حدود ما قاله عبد القاهر، بل فصّل القول في قضية أخرى منبثقة عن هذه النظرية وهي قضية المناسبات التي أولاها أهمية كبرى، وطبقها

(١١٤) نفسه، انظر: ص ٢٠٢-٢٠٤.

تطبيقا شاملا في الآيات التي فسّرها، بحيث فاق الزمخشري في هذا التطبيق، وهذه المناسبات ثلاثة: وجه نظم الآية مع الآية، ووجه نظم جمل الآية الواحدة، ووجه نظم كيفية جملة جملة، بمعنى تناسق أجزاء الجملة الواحدة في ألفاظها، وتناسبها في معانيها -كما فعل البقاعي في نظم الدرّر- وهذا التفات رائع من النورسي إلى نظرية النظم وأهميتها في فهم سرّ الإعجاز في القرآن الكريم.

- إنّ إعجاب النورسي بعبد القاهر لم يمنع من أن تكون له استقلالية في التفكير والنظر في إعجاز القرآن، فلم يقلده في الاقتصار على وجه واحد من وجوه الإعجاز القرآني، ولم يجعل نظرية النظم الوجه الوحيد في الإعجاز.

- ولابدّ من التنبيه على قضية أخرى عند النورسي رحمه الله، وهي تفرّده بعرض وجوه جديدة في إعجاز القرآن كالإعجاز المعرفي الحضاري، وتأكيده على وحدة العلوم وتكاملها، وأنّ القرآن الكريم هو المصدر الأساس للعلم والمعرفة، وبيانه وحدة القرآن البنائية، وهيمنة القرآن على الكتب كلّها.. كلّ ذلك ممّا يسجل للنورسي في الرؤية الجديدة التي يتناول بها إعجاز القرآن.

ولقد ضرب النورسي أمثلة رائعة على كلّ وجه من وجوه إعجاز القرآن، وعلى كلّ فرعية من فروعه، ولم يقتصر في بيانه ذلك على الأمثلة المكررة عند السابقين من العلماء.

- ويبدو من خلال استعراض كتب الإعجاز أنّ مؤلفيها كانوا حريصين على أن يظهروا إعجاز القرآن على مستوى العلماء، فكان حديثهم معنيا به العلماء دون غيرهم، لكنّ النورسي رحمه الله قد أولى العوام عناية خاصّة في بيانه لإعجاز القرآن، وهذا باد من حديثه الكثير المتكرر بأنّ القرآن يفهمه العوام، معجز لطبقة العوام... فما سرّ هذا الاهتمام بالعوام؟ لاشكّ أنّ النورسي مثال يُحتذى للعالِم المربّي، فقد أراد أن يرتفع بمستوى العوام حتى يمكن الأكثرية منهم من أن تعي القرآن وتفهمه، وتسعى من خلاله إلى تحقيق سعادة الدنيا والأخرى، والارتقاء بهم إلى مستوى الخطاب القرآني.

- لقد اهتمّ بديع الزمان في حديثه عن الإعجاز -بوجه خاص- بأمرين:

أولهما: الإعجاز البياني، والثاني الإعجاز المعرفي والحضاري في مواجهة

الغرب وفلسفته المادية، ولكن ما قيمة الإعجاز البياني وقد فسدت سليقة الناس اللغوية؛ بسبب غلبة صنعة اللفظ حين استعرب العجم واختلطوا بالعرب، كما ذكر النورسي نفسه ذلك؟[١١٥] يوقن النورسي ذلك العالم المربي أنّ التربية تحتاج أول ما تحتاج إلى الطريقة والأسلوب، والبلاغة والأدب أمثل طريق إلى ذلك، فهي خاصية الإنسانية، وإنّ أعلى ما يربي روح البشر، وألطف ما يصفي وجدانه، وأحسن ما يزيّن فكره، وأبسط ما يوسّع قلبه، إنّما هو نوع من الأدبيات، ولأمر ما ترى هذا النوع أبسط الفنون وأوسعها مجالا، وأنفذها تأثيراً، وألصقها بقلوب البشر حتى كأنّه سلطانها. ويؤكد رحمه الله أهمية البلاغة وتأثيرها على العقل والوجدان، فلتلك الأسباب نرى النورسي يولي هذا الوجه أهمية قصوى.

- وينهج النورسي في حديثه عن الإعجاز البياني طريقين: أولهما: إقامة الأدلة والبراهين الشافية على ذلك، وقد شيّد هذا الطريق بتفسيره الرائع لسورة الفاتحة والآيات الثلاثة والثلاثين الأولى من سورة البقرة، وثانيهما: دفع كلّ الشبهات التي تعترض هذا الوجه في إعجاز القرآن، وقد رأينا بيانه المقنع لأسرار التكرار في أسلوب القرآن، ورأينا بيانه المقنع لتنزّه القرآن عن الشعر، ويخيّل إليّ أنّ النورسي قد أجاد في هذا أكثر من الباقلاني رحمه الله في تجريده معظم كتابه "إعجاز القرآن" لنقد الشعر وتحليله، وبيان تفوّق القرآن عليه؛ فقد أسرف في ذلك، ولو توجّه إلى بيان جمال نظم القرآن لكان أهم وأولى.

- لقد رأينا كيف أجاد في بيان مبحث الفواصل القرآنية الذي لم يقتصر فيه على بيان مناسبة الآية لما ختمت به، بل بيّن أنّها تشتمل على قواعد أساسية للإيمان بالله تعالى وصفاته، وتثبت مقاصد القرآن الكلية، وبيّن الآثار الإيمانية والنفسية للفاصلة القرآنية على وجدان الإنسان وقلبه، ولم أرَ أحدا سبق النورسي إلى هذا البيان البديع.

- أمّا إعجاز القرآن المعرفي والحضاري فقد استطاع النورسي أن يدركه ويبرهن عليه ويواجه به في عصر التحدّي، ويثبت من خلاله فشل وفساد المدنية الغربية الزائفة، وكيف أنّها ضللت البشرية عن رؤية الحق والحقيقة. لقد كان

(١١٥) إشارات الإعجاز، ص ١١٩.

النورسي في هذا يتكلم بلسان الواقع وبحاله المؤسف حين تركت الأمّة شرعة الله ومنهاجه وحذت حذو الغرب شبرا بشبر وذراعاً بذراع. لقد كان كلامه دعوة صريحة لاستدعاء القرآن الكريم إلى عالم الواقع الحياتي والمعرفي، وليكون المرجعية العظمى للأمّة في تصحيح عقيدتها وثقافتها، وإقامة حضارتها ومدنيتها.

- والنورسي رحمه الله في بيانه أنّ العلوم الاجتماعية والإنسانية والطبيعية تنبثق من مشكاة القرآن الكريم، وترتكز على وجه التحديد على أسماء الله الحسنى - يكون قد أضحى علما من أعلام إسلامية المعرفة التي ينادي بها المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

- إنّ أفكار بديع الزمان في إعجاز القرآن فيها من الواقعية والحيوية ما يمكّن من بلورتها في عالم الواقع. لقد وقفت على منجم ثرّ من الأفكار، ووجدت أنّ كلّ فكرة تعدّ وجها معجزا للقرآن الكريم، ولا أدري أبَلغت في هذا البيان الغاية أم قصّرت!

وهكذا، سيظل القرآن زاد العلماء الذي لا تنقضي عجائبه، وسيبقى مهيمنا على الكتاب كلّه والمعرفة كلّها، وما تزال العلماء تقول: إنّ القرآن ما زال بكراً!

الفصل الثاني

بيان مقاصد القرآن الكريم

المبحث الأول

بيان آراء العلماء في مقاصد القرآن الكريم

المبحث الثاني

بيان مقاصد القرآن في فكر النورسي

خاتمة الفصل

وتشتمل على أهم النتائج

الفصل الثاني

بيان مقاصد القرآن[١١٦]

مقدمة

هذا هو الفصل الثاني الذي يتوقع أن يكشف عن عطاء فكري متجدّد في التعامل مع القرآن الكريم، والكشف عن مقاصده عند النورسي رحمه الله تعالى.

لا يسع المتفهّم لـلقرآن الكريم أو المفسّر له أن يغفل عن دراسة مقاصده، أو الوقوف على أسرار خطابه وغايات آياته في الإنسان والكون الحياة، فهذا ممّا تتطلبه الدراسة المنهجية في التعامل معه: قراءة وفهما وتفسيرا. وقد وصف القرآن الكريم بأنّه كتاب أحكمت آياته، وأنّه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنّه أعجز الإنس والجنّ أن يأتوا بمثله -كما تقدّم بيانه- هذه الأوصاف وغيرها توجب قطعا أن يقف المسلم على أسرار هذا الكتاب بمعرفة ما أراد أن يؤصله من مقاصد وحكم وغايات؛ لتتحقّق في حياة الإنسان بفعل الإنسان نفسه، وليقيم تلك الحياة على أسسها. وفي هذا تحقيق للعبودية لله في الحياة، وبتحقيقها يحظى الإنسان بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

كذلك، فإنّ الغفلة عن اكتشاف مقاصد القرآن أو عدم الوقوف عليها يعمل على اضطراب سلّم الأولويات، واختلاط الموازين لدى اتجاهات الفكر الإسلامي، ممّا يعني أنّ الوقوف على مقاصده يؤدّي إلى ردم الهوّة، وغلق الفجوة بين دعاة الفكر الإسلامي؛ فتتوحّد الأولويات بظهور المقاصد الكلية للقرآن الكريم، وتصبح معيارا دقيقا وميزانا مستقيما لكل من أراد أن يحقّق

---

(١١٦) نشر هذا البحث في مجلة حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد (٢١)، ٢٠٠٣، ص ص ٣٤٩-٣٩٨. من المؤلفات التي حملت اسم المقاصد: الدر النظيم المرشد إلى مقاصد القرآن الكريم لمحمد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت٨١٧هـ) انظر: الأدنروي، أحمد بن محمّد. طبقات المفسرين، المدينة المنورة: مكتبة العلوم، ١٩٩٧، ص ٣١٢.

هداية القرآن في واقع المجتمعات الإسلامية خاصّة، والمجتمعات الأخرى بصفة عامّة، وعلى قدر الاقتراب من هذه المقاصد كان لزاما أن يؤدّي ذلك إلى القربى من الله تعالى وكتابه، بخلاف أولئك الذين اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

إنّ البحث في المقاصد يدفع إلى إيجاد عقلية منهجية حصيفة تضبط فكر المسلم وفعله وسلوكه وأخلاقه، فلا عبثية في الخلق في مفهومه وتصوّره، وكلّ سبب صادر عن مسبّب، وكلّ أمر له علّة وغاية. إنّ هذه العقلية تقف على تصوّر علمي يقيني راسخ، وهو أنّ اللهّ سبحانه خالق الكون، وأنّ الإنسان خليفة في هذه الأرض بالشرعة والمنهاج اللذين بعث بهما سيّد ولد آدم وخاتم الأنبياء والمرسلين محمّد ﷺ ليرسم بهما الحياة المثلى للإنسان في هذا الوجود. إنّه تصوّر يستند إليه "الإنسان الخليفة" آمنا مطمئنا، ويقيم بهما حياته على نور وبصيرة.

لقد وجّه العلماء بالغ اهتمامهم إلى بيان مقاصد الشريعة الخمسة، الضابطة لسلوك الفرد المسلم، والضامنة له سبيل الاستقرار والأمان في الحياة، وهي حفظ النفس والعقل والدين والنسل والمال. وتمّ الحديث عن مقاصد القرآن في سياق الدراسات الأصولية والفقهية، وذهب القول بمقاصد الشريعة وطغى على أيّ مقاصد أخرى، فالجويني والغزالي والرازي والآمدي وعزّ الدين بن عبد السلام والشاطبي... ومن المحدثين محمّد الطاهر بن عاشور... قد بذلوا جهودا مميزة، ومنحوا موضوع مقاصد الشريعة -المتمثلة في الضروريات والحاجيات والتحسينيات- عناية فائقة. وتكاد كلمة العلماء تقتصر على إبراز تلك المقاصد وبيانها على أساس أنّها نفسها مقاصد القرآن. فهذا سلطان العلماء الإمام أبو محمد عزّ الدين بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) يبيّن أنّ معظم مقاصد القرآن تتمثل في: "الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها".[١١٧]

"لقد توجّه البحث إلى مقاصد الإسلام من التشريع في قوانين المعاملات والآداب الجديرة بأن تخصّ باسم الشريعة، والتي هي مظهر ما راعاه الإسلام من تعاريف المصالح والمفاسد وتراجيحها مما هو مظهر عظمة الشريعة الإسلامية

(١١٧) ابن عبد السلام، عزّ الدين أبو محمّد. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، بيروت: مؤسسة الريان، ١٩٩٠. ج١، ص ٩.

بين بقية الشرائع والقوانين والسياسات الاجتماعية لحفظ نظام العالم، وإصلاح المجتمع" كما يقول محمد الطاهر بن عاشور.[١١٨]

ويظهر مما ذكره العلماء أنّ "مقاصد الشريعة" تتعلّق بمقصد التشريع الذي يضبط حركة الفرد المكلّف وسلوكه. وهذا واحد من مقاصد القرآن الكريم الذي تضمن أمورا أخرى غير التشريع. وبعبارة أخرى: إنّ مقاصد الشريعة تعدّ مفصلة لشيء من مقاصد القرآن الكريم.

إنّ مقاصد القرآن أعمّ، ومقاصد الشريعة أخصّ؛ لأنّ مقاصد الشريعة متعلّقة بالفرد الواحد، ودائرة في نطاقه باعتبار فردية التبعة، ومسؤولية التكليف. ولكن الحديث عن مقاصد القرآن باعتبار: الإنسان الخليفة، والإنسان الجماعة، والإنسان الأمّة، والإنسان الدولة، لم يتم بيانه في نطاق واسع. أقول: إنّ البحث في مقاصد الشريعة بدا واضحا في حديث كثير من العلماء، وهذا منسجم تماما مع التضخم الهائل الذي حدث في تراثنا الفقهي، وخاصّة فقه العبادات. وقد يعزى السبب في تضخم هذا الفقه إلى الانفصال الذي وقع بين القرآن والسلطان في توجيه حياة الإنسان، أو القيادة السياسية والقيادة الفكرية، وسار كلّ في طريقه بعيدا عن الآخر. وترتب عليه أن ترك العلماء الذين يمثلون القيادة الفكرية الحديث عن دنيا الحكام وتنظيمها وسنن الله في الكون، واشتغلوا بفقه العبادات على حساب فقه الحياة والواقع والكون الذي تتجلّى فيه المقاصد القرآنية، ولمّا كان ذلك كذلك، توجّه الحديث إلى مقاصد التشريع لضبط حركة الفرد المكلّف. في حين أنّ مقاصد القرآن الكريم التي يجب على المفسر إدراكها قبل البدء بتفسير القرآن ظلّت مستبطنة تفكير علمائنا وشعورهم، ولم تنعكس على عملهم التفسيري، ولم تحظ بتلك الأهمية مع أنّها ذات خطر أعظم، وأثر أعمق.

لقد تناول العلماء الحديث عن "حفظ العقل" وهو واحد من مقاصد الشريعة، فتحدّث الشاطبي -مثلا- "عن حفظ العقل بتناول ما لا يفسده، وهو في القرآن، ومكمّله شرعية الحدّ أو الزجر، وأن ليس له في القرآن أصل على الخصوص، فلم يكن له في السنّة حكم على الخصوص، فبقي الحكم فيه إلى اجتهاد الأمّة،

(١١٨) ابن عاشور، محمّد الطاهر. مقاصد الشريعة الإسلامية، تونس: الدار التونسية للنشر، بلا تاريخ، ص ٩.

وإن ألحق بالضروريات".[١١٩] "أو حفظه من أن يدخل عليه خلل؛ لأنّ اختلال العقول يؤدّي إلى عدم انضباط تصرّف أصحابها، مثل: منع شخص من السّكر، ومنع الأمّة من تفشي السّكر والمفسدات بين أفرادها".[١٢٠] أقول: لقد تحدّث العلماء عن السّكر المادي الذي يقتصر أثره على فرد، ولم يتحدّثوا عن سكر أعظم وأهم وأخطر، وهو السّكر الفكري الذي أصيب به العقل المسلم، فانشغل عن قضايا الأمّة، وغاب عن واقعها بما أثاره من معارك جدلية تجلّت في إقامته مذاهب كلامية وفلسفية وباطنية وعقائد اجتهادية خارج النصّ القرآني، ثم الدّخول إلى النصّ القرآني لتأييدها عن طريق العبث بنصوصه، وبما أثاره أيضا من معارك نحوية، وبما حشده من كمّ هائل من الروايات الأثرية التي شوشّت على النصّ القرآني جماله وإعجازه.. فهل هذا من مقاصد القرآن الكريم؟! ولم يتحدثوا -كذلك- عن السّكر الفكري الذي كان من نتائجه استقدام الاستعمار الصليبي ليعبث بمقدرات الأمّة وقيمها ومبادئها قديما وحديثا. وعليه، فإنني أدعي أن مقاصد القرآن أعم وأشمل من مقاصد الشريعة، ومع ذلك لم تحظ بما يماثل مقاصد الشريعة من عناية ودراسة واهتمام في تراثنا التفسيري.

إنه حين غاب العمل التفسيري عن إبراز مقاصد القرآن الكريم أوغل في قضايا كثيرة متشعبة شكلت في كثير من الأحيان حاجزا أمام هداية الله للناس في هذا الوحي، فما الذي جناه العقل المسلم فيما يرجع على الناس من هداية بإثارته تلك المعارك الكلامية بين المعتزلة والأشاعرة وغيرهم؟ أم ما الذي جناه من حشوه كتب التفسير بالأساطير والخرافات الإسرائيلية؟ وما الذي جناه من تلك الإشارات الصوفية أو المعاني الرمزية في التفسير... لقد شُحن العمل التفسيري بكثير من التفاصيل في قضايا عديدة تحمل جملة من الخلافات النحوية والكلامية والفقهية والروايات الإسرائيلية، وهذا الوضع جعل مادة التفسير التي تقدم الهداية القرآنية غير سهلة التناول من قبل جمهور العوام من الناس، بل ظلت محصورة في مستوى

---

(١١٩) الشاطبي، أبو إسحق إبراهيم بن موسى. الموافقات، تعليق عبد الله دراز، بيروت: دار المعرفة، بلا تاريخ، ج ٤، ص ٢٩.

(١٢٠) الحسني، إسماعيل. نظرية المقاصد عند ابن عاشور، الولايات المتحدة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥، ص ٢٣٩.

المتخصصين من العلماء القادرين على التعامل مع هذا الوضع التفسيري. ولعل هذه ثغرة من الثغرات التي جعلت العمل التفسيري ـإجمالاـ بحاجة ماسّة إلى الوقوف على مقاصد القرآن الكريم وهداياته على الرغم من وقوف المفسرين على بعض هذه المقاصد وتوجيه التفسير إليها، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وأجزل لهم المثوبة وحسن العطاء.

أقول: إنّ بيان مقاصد القرآن والأهداف العامّة منه ضرورة لازمة، وعمل منهجي، وقاعدة مهمّة لتفسير القرآن الكريم. والأثر المترتب على ذلك: أنّ مفسّر القرآن بدل أن يشغل قارئه بعلوم الآلة، لا بدّ أن يفتح له مجال تحقيق العبودية لله في أوسع ميادينها، ويأخذ بيده إلى إقامة العمران الإسلامي على منهاج القرآن الكريم.

ولنعرض -بإيجاز مقصود- هذه الدراسة مبيّنين آراء العلماء في مقاصد القرآن مرتبة ترتيبا تاريخيا غير قاصد الاستقصاء أو التأصيل التاريخي، لنستبين -أولا- طبيعة هذه المقاصد وحجمها في القرآن والأسباب الكامنة وراء اختيارها. ولنستبين -ثانيا- موقع المقاصد التي ذكرها النورسي بين ما قرره غيره من العلماء. ثم نعرض بعد ذلك بيان مقاصد القرآن في فكر النورسي في مستوياتها المتعدّدة.

وستنهج هذه الدراسة طريق الاستقراء في رسائل النور تبيانا لموقع المقاصد في فكر النورسي وما يترتب على معرفتها وإدراكها من آثار تتجلى في الواقع العملي.

المبحث الأول

آراء العلماء في مقاصد القرآن

للعلماء إسهام واضح في بيان مقاصد القرآن الكريم، وقد أدركوا ما للوقوف عليها من أهمية في منهج التعامل مع القرآن الكريم فهما وتفسيرا، لكنّ حديثهم فيها كان تبعيا استطراديا في الأعم الأغلب ولم يكن حديثا تأصيليا، وسنورد هنا آراء مشاهير العلماء في بيان هذه المقاصد:

١ - أبو حامد الغزالي (ت:٥٠٥هـ).

ذهب الإمام أبو حامد الغزالي في كتابيه: "إحياء علوم الدين" و"جواهر القرآن" إلى أنّ هدف القرآن الكلي ومقصده الأعظم هو بيان معرفة الله تعالى، وأنّ كلّ العلوم تتفرّع من هذه المعرفة. وقد حصر في الفصل الثاني من كتابه "جواهر القرآن" مقاصد القرآن ونفائسه، وذكر أنّها ترجع إلى ستة أقسام: ثلاثة منها أصول مهمّة، وثلاثة توابع متمّة. فأمّا مقصده الأقصى فدعوة العباد إلى الجبار الأعلى، وعليه فإنّ سور القرآن انحصرت في ستة أنواع: ثلاثة أصول، وهي: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه. وأما الثلاثة المتمّة فهي تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم، وحكاية أحوال الجاحدين وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجّة على الحق، وتعريف عمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الزاد، والأهبة والاستعداد.[١٢١]

ويفصّل الغزالي هذه المقاصد فيوصلها إلى عشرة أنواع: ذكر الذّات، وذكر الصفات، وذكر الأفعال، وذكر المعاد، وذكر الصراط المستقيم، وذكر أحوال الأولياء، وذكر أحوال الأعداء، وذكر محاجّة الكفار، وذكر الحدود، والأحكام.[١٢٢] ومما يثير التساؤل هنا أنّ الغزالي -رحمه الله- لم يذكر "النبوّات" صراحة على أنّها مقصد من مقاصد القرآن، وجعلها تابعة أو مندرجة في سلك هذه المقاصد. وكذلك، ذكره لمقصد أحوال الأولياء هنا هل يشمل فئة المؤمنين عموما، أم فئة معيّنة منهم؟

ويكشف هذا التقسيم عن تعلّق هذه المقاصد بالإنسان الفرد المكلّف من حيث ما يجب عليه من معرفة الله تعالى، وما يترتب على هذه المعرفة من استقامة في تصوّر ذلك الفرد وسلوكه. ومن ثمّ فالأصل الأصيل في مقاصد القرآن هو حسن الاعتقاد بالله تعالى، ومعرفة التصوّر الحقّ لهذا الوجود، ويدخل غير ذلك في هذا الأصل تبعا. إنّ هذه المقاصد قد كشفت عن أهدافها سعيا بالفرد إلى سموّه

(١٢١) الغزالي، أبو حامد محمّد بن محمّد. جواهر القرآن، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨١، ص ٩. وانظر: الغزالي، أبو حامد محمّد بن محمّد. إحياء علوم الدين، بيروت: دار المعرفة، بلا تاريخ، ج ١، ص ٢٨٩.

(١٢٢) الغزالي. جواهر القرآن، مصدر سابق، ص ١٧.

وكماله الإنساني بمعرفته لخالقه عزّ وجل. وهو اتجاه حدّد مقاصد القرآن الكلية بناء على نزعة صوفية إيجابية. وظلّ أمر عمارة الأرض أو العمران الإسلامي بهدي الوحي مجملا غير مفصّل في حديث أبي حامد رحمة الله تعالى عليه.

"والمشكل أيضا في هذا التصنيف للمقاصد تفضيله ما تضمنه بعض القرآن على بعض، فيرى أنّ الطبقة السفلى من علم اللباب معرفة قصص القرآن وما يتعلّق بالأنبياء وما يتعلّق بالجاحدين والأعداء! ويتكفل بهذا العلم القصّاص والوعاظ وبعض المحدّثين، وهذا علم تعمّ الحاجة إليه! أقول: معلوم أنّ هذه الطبقة قد شكلت مساحة واسعة من نصوص القرآن فكيف تكون من شغل القصّاص وغيرهم! وكيف لا تعمّ الحاجة إلى أكثر من نصف القرآن؟! مع أنّه ذكر في "الإحياء" الذي صنّفه قبل جواهر القرآن- كلاما عن القصص القرآني مغايرا لهذا الكلام، وهو عين الصواب، فقد قال: هذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنّة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرآن من شيء إلاّ وهو هدى ونور، وتعرّف من الله تعالى إلى خلقه، فتارة يتعرّف إليهم في أفعاله المخوّفة والمرجوة، فيتلوا عليهم سنّته في أعدائه، وفي أنبيائه، ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة: الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنّته في عباده".[١٢٣]

٢ - فخر الدين محمد بن عمر الرازي(ت٦٠٦هـ)

يبدو أنّ بيان التصوّر الحقّ قد غلب الاعتراف به على أنّه المقصد الأساس في القرآن عند كثير من علمائنا -وهو بذلك حقيق وجدير- فقد ذهب الإمام الرازي إلى الأمر نفسه، وبيّن أنّ مدار القرآن على أربعة مسائل: الإلهيات، والنبوّات، والمعاد، والقضاء والقدر، وهي مقصود القرآن كلّه،[١٢٤] وكثيرا ما يقرر الرازي المسائل الثلاثة الأولى، وأنّها مدار القرآن الكريم كلّه، وينصب لها الأدلة العقلية في مواجهة الخصوم.[١٢٥] ويقوم اتجاه الرازي في هذا التحديد

(١٢٣) الدّغامين، زياد خليل. «نظرية الإمام الغزالي في التعامل مع القرآن الكريم»، مصر: مجلة المسلم المعاصر، العدد (٨٠) سنة (١٩٩٦) ص ١٣٠.

(١٢٤) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. مفاتيح الغيب، بيروت: دار الفكر، ١٩٨١، ج٢٠، ص ٢٢٦.

(١٢٥) المصدر السابق نفسه، ج٢، ص٩٠، وانظر:ج ٢، ص ٩٥-١٠٠. وقد ذهب إلى ذلك محمد بن

لمقاصد القرآن الكلية على خلفية الصراع الفكري القائم بين المذاهب الفكرية الإسلامية -والمعتزلة على وجه الخصوص- والهادف إلى تصحيح التصوّر الكلي للفرد المسلم من وجهة نظر أشعرية.

٣ - أبو اسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠هـ)

هذه المقاصد القرآنية التي ذكرها الإمام الرازي جعلها الإمام الشاطبي مقاصد لأغلب السور المكية، وذكر أنّها مشتملة على ثلاثة مقاصد، هي: الوحدانية، والنبوّة والبعث. وأنّ هذه المقاصد ترجع في أصلها إلى معنى واحد، هو: الدعاء إلى عبادة الله تعالى.[١٢٦] وهذا المقصد الكلي الأصيل يعبّر عن مضمون ما ذكره الإمام الغزالي من قبل، ولم يشأ الشاطبي أن يفصّل فيه القول، فإنّ القرآن الكريم -باستثناء أغلب السور المكية في نظر الشاطبي- متوجّه إلى بيان مقاصد الشريعة وأنواعها: الضروريات والحاجيات والتحسينيات. وقد حظيت هذه المقاصد عنده باهتمام كبير حتى شكّلت في النهاية نظرية علمية محكمة. واستحقت أن تكون أنموذجا يُحتذى في تطوير فكرة المقاصد، وتوظيفها في خدمة الفقه والتشريع الإسلامي؛ ولذلك وصف بعضهم الإمام الشاطبي بأنّه شيخ علم المقاصد.[١٢٧]

٤ - أحمد شاه وليّ الله الدّهلوي (ت١١٧٦هـ)

ذهب الشيخ أحمد شاه ولي الله الدّهلوي إلى أنّ معاني القرآن المنطوقة لا تخرج عن خمسة، هي: علم الأحكام. وعلم المخاصمة والردّ على الفرق الضالة. وعلم التذكير بآلاء الله تعالى. وعلم التذكير بأيّام الله تعالى يعني: الوقائع التي أوجدها الله تعالى من جنس تنعيم المطيعين وتعذيب المجرمين. وعلم التذكير بالموت وما بعده من الحشر والنشر.[١٢٨]

علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، انظر: إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوّات، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٤، ص ٣-٤.

(١٢٦) الشاطبي. الموافقات، مصدر سابق، ج٣، ص ٢٨٠.

(١٢٧) الريسوني، أحمد، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٩٩٢، ص ٥.

(١٢٨) انظر: الدّهلوي، أحمد شاه ولي الله. الفوز الكبير في أصول التفسير، بيروت: دار قتيبة، ١٩٨٩، ص ١١-١٣.

هذه المعاني المنطوقة للقرآن تعني الغايات والمقاصد التي يمكن أن تتجلّى في هذه العلوم. وما ذكره الشيخ الدّهلوي يشتمل على مقاصد الشريعة، وهو المقصود بعلم الأحكام، ويأتي العلم الخامس ليشمل مقصد البعث والنشور. وترد العلوم الثلاثة الوسطى ضمن الأصول الثلاثة المتمّة التي ذكرها الإمام أبو حامد، وليس في كلام الشيخ الدّهلوي رحمه الله ما يبيّن تجاوزه لما ذكره أبو حامد في الشكل أو المضمون.

٥ - الأستاذ الإمام محمد عبده (ت١٣٢٣هـ)

يرى الأستاذ الإمام محمّد عبده أن ما نزل القرآن لأجله أمور: أحدها: التوحيد. وثانيها: وعْد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة. وثالثها: العبادة التي تحيي القلوب بالتوحيد وتثبته في النفوس. ورابعها: بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة. وخامسها: قصص من وقف عند حدود الله تعالى، وأخذ بأحكام دينه وأخبار الذين تعدّوا حدوده ونبذوا أحكامه ظهريا؛ لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر.[١٢٩] وهذا كذلك منبثق مما بيّنه أبو حامد من مقاصد للقرآن الكريم. لكن وإن اتفقا في تحديد مقاصد القرآن الكلية إلا أنّ الفرق بينهما يتمثل في أسلوب بيان وعرض هذه المقاصد، وتوظيفها في العمل التفسيري للقرآن الكريم، ولا شكّ في أنّ الأستاذ الإمام كان -في مجال التفسير- أشدّ اهتماما بما حدّده من مقاصد والتزاما.

٦ - محمد رشيد رضا (ت١٣٥٥هـ)

أعطى الشيخ محمد رشيد رضا قدرا كبيرا من العناية والاهتمام بمقاصد القرآن الكريم، فقد تضمن كتابه "الوحي المحمدي" بيانا مفصّلا لهذه المقاصد، فجاء حديثه شاملا مستوعبا كلّ ما ذكره العلماء من قبل، وقد جعل مقاصد القرآن في عشر غايات رئيسة، هي:[١٣٠]

الأولى: بيان أركان الدين: التوحيد، والبعث والجزاء، والعمل الصالح.

---

(١٢٩) عبده، محمّد. دروس من القرآن الكريم، بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٨٤، ص ٢٦-٢٧.

(١٣٠) انظر: رضا، محمّد رشيد. الوحي المحمدي، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧٩، ص ١٦٨-٣٤٠.

الثانية: بيان شؤون النبوّة والرسالة ووظائف الرسل.

الثالثة: بيان أنّ الإسلام دين الفطرة السليمة، والعقل، والفكر، والعلم، والحكمة، والفقه، والبرهان، والحجّة، والضمير والوجدان، والحرية، والاستقلال.

الرابعة: بيان الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثمان: وحدة الأمّة، وحدة الجنس البشري، وحدة الدين، وحدة التشريع بالمساواة في العدل، وحدة الأخوّة الروحية والمساواة في التعبّد، وحدة الجنسية السياسية الدولية، وحدة القضاء، وحدة اللغة.

الخامسة: بيان مزايا الإسلام العامّة في التكاليف الواجبة والمحظورة.

السادسة: بيان حكم الإسلام السياسي الدّولي: نوعه وأساسه وأصوله العامّة.

السابعة: بيان الإصلاح المالي.

الثامنة: إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وفلسفتها.

التاسعة: إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

العاشرة: بيان هداية الإسلام في تحرير الرقّ. اهـ.

وتتلخص هذه المقاصد في أمرين، الأوّل: بيان التصوّر الحقّ لله الخالق، والكون الدّال على خالقه، والإنسان المخلوق الخليفة. وهذا ممّا سبق العلماء إلى بيانه بصورة إجمالية. والثاني: عمارة الأرض وسياسة الحياة في ميادينها المختلفة بنظام الشرع وهدايته.

وجاء هذا التفصيل في عرض مقاصد القرآن استجابة قويّة لمواجهة التحديات التي أثقلت كاهل الأمّة في تعاملها مع الحضارات الأخرى. وهذه المقاصد تستجيب لما تطمح الإنسانية إلى تحقيقه في واقع الحياة، وهي جديرة بذلك؛ لأنّها منتظمة في وحي الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إلى نبيّه محمّد ﷺ. والذي يذكر هنا أنّ الاهتمام بهذه المقاصد يشي بمحاولة إصلاحية في منهج فهم القرآن الكريم وتفسيره، وقد ظهر تجسيد هذه المقاصد بقدر من الوضوح والاعتدال في تفسير المنار.

٧ - محمد الطاهر بن عاشور (ت:١٣٩٣هـ)

هذا الذي أورده الشيخ رشيد رضا رأينا الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن

عاشور يبيّنه بوضوح قائلا: "إنّ المقصد الأعلى من القرآن صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية، فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأنّ الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصّة، وهي العبادات الظاهرة كالصّلاة، والباطنة كالتخلّق بترك الحسد والحقد والكبر، وأمّا الصلاح الجماعي فيحصل أولا من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكلّ إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك، وهو ضبط تصرّف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبّر عنه الحكماء بالسياسة المدنية.

وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرّف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعيُ المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع".[١٣١]

ويقسّم ابن عاشور هذا المقصد الكلّي بعد الاستقراء إلى ثمانية أمور:[١٣٢]

الأول: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح.

الثاني: تهذيب الأخلاق.

الثالث: التشريع وهو الأحكام خاصّة وعامّة.

الرابع: سياسة الأمّة، وهو باب عظيم في القرآن، القصد منه صلاح الأمّة وحفظ نظامها.

الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، وللتحذير من مساويهم.

السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار، وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب، وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان

(١٣١) انظر: ابن عاشور، محمّد الطاهر. التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤، ج ١، ص ٣٨.

(١٣٢) انظر: المصدر السابق نفسه، ج١، ص ٤٠-٤١.

العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين، وفي دعوته إلى النظر.

السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع آيات الوعد والوعيد، كذلك المحاجّة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية صدق الرسول ﷺ؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدّي اهـ.

وهذا تنظير محكم ومنضبط لمقاصد القرآن الكلية، وينمّ عن حسّ بالمسؤولية إزاء ما تواجهه الأمّة من أزمات وتحدّيات، وفيه نفحة من أثر كلام أبي حامد الغزالي، وقبس من شعاع مدرسة الأستاذ الإمام. لقد جاء ذكر ابن عاشور للصلاح العمراني تعبيرا بليغا عن غاية تنزيل القرآن، لتكون الصلة محكمة بين النصّ، وبين الواقع الذي يتنزل فيه النص، أعني: الواقع النفسي والاجتماعي والمعرفي، أو الواقع البيئي الذي هو مختبر حركة الإنسان ونشاطه الشامل في كلّ المجالات. أقول: إنّ المهم هنا هو التوظيف الذكي لهذه المقاصد؛ لتظهر بجلاء في العمل التفسيري للقرآن الكريم؛ لإعادة تشكيل العقل المسلم، وتحديد أولوياته والمهامّ التي ينبغي له أن ينجزها قياما بواجب الخلافة، وتحقيقا لمقتضيات العبودية، وإصلاحا للعمران الإنساني، وبناء المدنية الحديثة على أسس التقوى والفضيلة.

٨ - أبو الأعلى المودودي (ت١٤٠٠هـ)

يرى المودودي أنّ جماع دعوة القرآن هو أنّ الله تعالى هو الإله الواحد الأحد، والربّ الفرد الصمد، لا إله إلا هو، ولا ربّ سواه، ولا يشاركه في ألوهيته ولا في ربوبيته أحد.[١٣٣] وأنّ القارئ للقرآن المتتبع لآياته يحسّ أنّ ما نزل به القرآن الكريم لا يدور إلاّ على هذه المصطلحات الأربعة: الإله، الربّ، العبادة، الدّين. ولا بدّ لمن يدرس القرآن أن يتفهم معانيه الصحيحة بمعرفة هذه المصطلحات التي تمثل مقاصد القرآن الكريم.[١٣٤] وهو حديث يتوجّه إلى بناء التصور الاعتقادي الحق لهذه المصطلحات المنتشرة في آيات القرآن الكريم.

(١٣٣) انظر: المودودي، أبو الأعلى. المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب: محمد كاظم سباق، الكويت: دار القلم، ١٩٨١، ص ٥.

(١٣٤) المصدر السابق نفسه، ص ٧.

وإصلاح التصور أمر توجّه إليه العلماء من قبل. ومقصد الدّين والعبادة يشملان كلّ ما تحدّث عنه العلماء من مقاصد الشريعة.

٩ - محمد الغزالي (ت١٤١٦هـ)

القرآن الكريم مع استفاضة معانيه، وكثرة سوره، يمكن القول بأنّه يدور على محاور خمسة كما يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله. هذه المحاور هي أهداف عامّة كلية للقرآن الكريم، وهي: الله الواحد. الكون الدالّ على خالقه. القصص القرآني. المعاد والحساب. التربية والتشريع.[١٣٥] وهي محاور عبّرت عن مقاصد القرآن وما تضمنه من موضوعات، ولا يتوقف وصف مضمون القرآن عند هذا الحدّ، بل مجال إعادة صياغة هذه المحاور وارد بكلّ يسر. لقد بيّن الشيخ أنّ القصور عن إدراك محاور القرآن كمحور القصص القرآني أدّى إلى تخلّف في العلوم الإنسانية لدى المسلمين اليوم. وقد أضاف محورا آخر سمّاه محور الفطرة الإنسانية الذي يمكن أن ينشأ بناء عليه علم فلسفة إسلامي.[١٣٦]

١٠- يوسف القرضاوي

ذكر العلامة يوسف القرضاوي مقاصد القرآن وبيّن أنّها واقعة في سبعة مقاصد أكّدها القرآن الكريم، ودلّل عليها بصريح آياته:[١٣٧]

الأول: تصحيح العقائد والتصوّرات للألوهية والرسالة والجزاء.

الثاني: تقرير كرامة الإنسان وحقوقه.

الثالث: توجيه البشر إلى حسن عبادة الله تعالى وتقواه.

الرابع: الدعوة إلى تزكية النفس البشرية.

الخامس: تكوين الأسرة الصالحة وإنصاف المرأة.

السادس: بناء الأمة الشهيدة على البشرية.

---

(١٣٥) انظر: الغزالي، محمّد. المحاور الخمسة في القرآن، دمشق: دار القلم، ١٩٩١، الصفحات: ١٧، ٥٣، ٨٦، ١٤١، ١٨١.

(١٣٦) انظر: الغزالي، محمّد. كيف نتعامل مع القرآن، مدارسة أجراها معه عمر عبيد حسنة، الولايات المتحدة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٢، ص ٨٥-٨٨.

(١٣٧) القرضاوي، يوسف. كيف نتعامل مع القرآن الكريم، جامعة قطر: مركز بحوث السنة، ١٩٩٦، ص ٦٥.

السابع: الدعوة إلى عالم إنساني متعاون. اهـ.

والناظر في هذه المقاصد يدرك أنّ موضوعها الإنسان في مستويات مختلفة، فمن الإنسان الفرد، إلى الإنسان الأسرة، إلى الإنسان الأمة، فمن حيث كونه فردا يهيّئ له القرآن التصوّر الحق للوجود ويبيّن له أسس الاعتقاد الحقّ، وأنّه مخلوق مكرّم، وأطلق له العنان في تزكية نفسه؛ لينطلق الإنسان الفرد من ذلك إلى الإنسان بناء الأسرة الراشدة، وإنشاء أمة الشهادة، وبيان الطريق الحق لهداية البشرية، وتأصيل مبدأ التعاون بين أممها وشعوبها، وهذه نظرة موضوعية وشاملة إلى مقاصد القرآن، خاصّة وأنّ موضوعها الرئيس هو الإنسان الفرد والإنسان الجماعة.

المبحث الثاني

مقاصد القرآن في فكر النورسي

تمهيد:

لعلّ بديع الزمان النورسي هو من أكثر المفكرين المسلمين المعاصرين الذين بذلوا جهدا مميزا في حديثهم عن مقاصد القرآن الكريم، وجاء هذا الحديث مفصّلا ومؤكدا لما قرّره العلماء السابقون، أمثال: أبي حامد الغزالي وفخر الدين الرازي وأبي إسحق الشاطبي. ومع ذلك فقد بيّن قضايا لم يسبق إليها في مجال المقاصد القرآنية سنبيّنها في هذا المبحث.

لقد تحدّث النورسي عن مقاصد القرآن، فبيّن أبعادها الشمولية وطبيعتها، والأساس المترتب على معرفتها من حيث منهج فهم القرآن، وأثرها في إعجازه، ثم تحدّث عن مقاصد القرآن في أربعة مستويات، سنعرضها في المطالب الآتية:

المطلب الأول: المقصد الكلي.

المطلب الثاني: المقاصد الرئيسة الأربعة للقرآن الكريم.

المطلب الثالث: مقاصد السور القرآنية.

المطلب الرابع: مقاصد الآيات القرآنية.

ثم ذهب بعد ذلك يتحدّث عن مقاصد في قضايا شتى، كلّها تؤدّي إلى مقاصد القرآن الجامعة، وتزيد من تفصيلها. ومن المفيد أن نبيّن ابتداء أنّ معظم

حديث النورسي كان متوجّها إلى مقاصد القرآن الأساسية الأربعة: التوحيد، والنبوّة، والمعاد والعدالة. ويحسن أن ننبّه إلى بعض الأمور قبل ذلك.

١. شمول المقاصد القرآنية وطبيعتها

إذا نظرنا في التعريف المفصّل للقرآن الكريم عند النورسي نجد أنّه اشتمل على بيان مقاصد القرآن كلّها من توحيد وحشر ونبوّة وعدالة. وهذا التعريف الشامل لكتاب الوحي ارتكز على قاعدة أساس تتمثل في أنّ القرآن تفسير لكتاب العالم، أو كتاب الوجود والكون، وأنّ خاصية الشمول كانت أبرز خصائصه المقاصدية. ويولي النورسي مقصد العدالة أهمية كبيرة من حيث كون القرآن ممثلا ومحقّقا للحكمة الحقيقية لنوع الجنس البشري، ومن حيث كونه المرشد الهادي إلى ما خلق له البشر، وهو كتاب شريعة وحكمة ودعاء وعبودية، وهو كتاب أمر ودعوة، وكتاب ذكر وفكر للإنسان والإنسانية. إنّ هذا الكتاب -كما يصف النورسي- قد لبّى كلّ حاجات الإنسان المعنوية.[١٣٨]

إنّ هذه المقاصد الأربعة متسقة في شمولها مع شمول الخطاب القرآني، بل ما جاء القرآن في خطابه إلا لبيان هذه المقاصد. ويرى أنّ القرآن قد جمع في خطابه جميع المباحث الكلية التي تخصّ الإنسان ووظيفته، والكون وخالقه، والسّموات والأرض، والدنيا والآخرة، والماضي والمستقبل، والأزل والأبد، فضلا عن ضمّه مباحث أساسية ابتداء من خلق الإنسان من النطفة إلى دخوله القبر، ومن آداب الأكل والنوم إلى مباحث القضاء والقدر، ومن خلق العالم في ستة أيام إلى وظائف هبوب الريح.[١٣٩]

إنّ القرآن الكريم لم يترك قضية كلية يحتاجها الإنسان إلاّ وقد بيّنها، تصديقا لقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨) سورة الأنعام. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(النحل:٨٩) هذه الأمور الكلية والمبادئ العامّة هي موضوع الخطاب القرآني وقضيته المحورية في اتصاله بالوجود الإنساني من المبدأ إلى المنتهى.

---

(١٣٨) انظر: النورسي. الكلمات، مصدر سابق، ص ٢٦٤.

(١٣٩) المصدر السابق نفسه، ص ٤٥٧-٤٥٨.

ويحدّث النورسي عن الطبيعة المتوازنة في هذه المقاصد، فيقول: إنّ جامعية القرآن الخارقة في مقاصده وغاياته، قد راعت الرعاية التامّة وجسّدت وأقامت موازنة مطّردة مطابقة لدساتير الفطرة وقوانينها، ومتّحدة معها في المقاصد والغايات، فحافظت على الميزان والتوازن.[١٤٠] وهذا بيان في غاية الدّقة من حيث إظهاره أنّ القرآن انطوى على مقاصد جامعة، تعبّر بجلاء عن التناسق الكلي في نظام هذا الوجود من قوانين وسنن تتفق كلّها مع فطرة الله التي فطر الناس عليها. هذا التناسق يلتقي مع ذلك النظام في المقاصد، وكما تدلّ آيات الله القرآنية على وحدانيته سبحانه، كذلك آيات الله الكونية تؤكده وتدلّ عليه، وتقصد إليه.

٢. الأساس المنهجي المترتب على معرفة مقاصد القرآن

يبني النورسي على معرفة مقاصد القرآن أساسا مهمّا في منهج فهم القرآن والتعامل معه، وهو أنّ ما عدا هذه المقاصد الأربعة كلّه وسائل لهذه المقاصد، وما ذكر في القرآن من مسائل كونية، أو آيات كشف عنها العلم الحديث، أو حوادث جزئية كلّ أولئك وسائل جاء ذكرها استطرادا، إنها وسائل موصلة إلى المقاصد الكلية، ولأنّها وسائل أوجز القرآن في ذكرها، وأجمل في بيانها. ولأنّها وسائل لم يفصّل القرآن فيها كثيرا؛ بسبب توجّه خطابه إلى عموم الخلق، وليس كلّهم يدرك هذه المسائل، يقول النورسي: "ومن القواعد عدم التعمق في تفصيل الوسائل؛ لئلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني، فيفوت المقصد. ولهذا السرّ أبهم القرآن وأهمل وأجمل في بعض المسائل الكونية... ثمّ إنّ الأكثر المطلق من مخاطبي القرآن عوام ليس بمقدورهم فهم الحقائق الغامضة إلا بوساطة التمثيل، فلهذا أكثر القرآن الكريم منه".[١٤١]

وبدا النورسي حريصا على لمّ شتات العقل المسلم وتهذيبه، فقد سبق أن غرق في بيان تفاصيل جزئية انشغل بها عن مقاصد القرآن، فتجد لمجرد ذكر "السماء" أو "الأرض" يخوض المفسر العلمي في قضايا لا حصر لها. كذلك المتكلم في قضاياه المتشعبة، وكذلك الصوفي والفقيه والأصولي

(١٤٠) انظر: النورسي. الملاحق، مصدر سابق، ص ١٨٤.

(١٤١) النورسي، المثنوي العربي النوري، مصدر سابق، ص ٧٥. وانظر: المكتوبات، ص ٢٦٨.

والفيلسوف... كلّ قد غرق في تفاصيل لم تتوجّه إليها مقاصد القرآن اتجاها أوليا، في حين أنّ ذكر هذه المسائل الجزئية أو ذكر الكائنات في القرآن كان يهدف إلى تقرير مقاصد أساسية ينبغي أن يوليها المتفهّم للقرآن كلّ اهتمامه وعنايته. يقول النورسي: "إنّ كلّ فرد من أفراد الكائنات يدخل المجلس القرآني فهو مكلّف بأربع وظائف، هي:

- إعلان عظمة الخالق الجليل بانتظامه واتفاقه مع غيره.

- إظهار أنّ الإسلام هو زبدة العلوم الحقيقية من حيث إنّ كلاّ من الأفراد موضوع وخلاصة لعلم من العلوم الحقيقية.

- إثبات تطابق الإسلام مع القوانين والنواميس الإلهية الجارية في العالم.

- توجيه الأفكار إلى حقائق الأشياء، و الحثّ عليها، والتنبيه إليها، من حيث إنّ كلّ فرد منها أنموذج لحقيقة من الحقائق".[١٤٢]

٣. أثر المقاصد في إعجاز القرآن

الربط بين مقاصد القرآن وإعجازه عمل منهجي حرص النورسي على إبرازه لما له من أثر لا يخفى في توجيه الدراسات الإعجازية والمقاصدية، فقد بيّن أنّ هذه المقاصد مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم؛ لسعة ما هدف القرآن إلى تحقيقه، ولشموله وجامعيته الخارقة في المقاصد والغايات، ودقّته البالغة في رسم وتخطيط تلك المقاصد المنسجمة مع نظام الكون والحياة، والمبيّنة للتصوّر الحقّ، فقال: "إنّ القرآن المعجز قد بيّن سبيل سعادتي الدّارين، ووضّح غايات خلق الكون، وما فيه من المقاصد الربانية، موضّحا ما يحمله ذلك الخطاب الكريم من الإيمان السامي الواسع الذي يضم الحقائق الإسلامية كلّها، عارضا كلّ ناحية من نواحي هذا الكون الهائل، ومقلبا إيّاه كمن يقلب خارطة أو ساعة أمامه، معلّما الإنسان صانعه الخالق سبحانه من خلال أطوار الكون وتقلباته، فلا ريب ولا بدّ أنّه لا يمكن الإتيان بمثل هذا القرآن أبدا"[١٤٣] هذه

(١٤٢) النورسي، سعيد ميرزا. صيقل الإسلام، تحقيق وترجمة: إحسان الصالحي، إسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٥. ص ٢٩-٣٠.

(١٤٣) النورسي، الشعاعات، مصدر سابق، ص ١٧٩، وانظر ص ٢٩٧.

الإحاطة المطلقة بالمقاصد دليل على كون القرآن الكريم كلام الله المعجز، لأنّه ليس بمقدور العقل البشري الإحاطة ببيان هذه المقاصد. وبهذا يجعل القرآن العقل في حجمه الطبيعي، ويحدّد له مجال البحث والنظر في إطار ما رسم له.

لقد سبق أن بيّنا أنّ النورسي يجعل الجامعية الخارقة في مقاصد القرآن ذات طبيعة شاملة، ويحدّث هنا أنّ هذه الجامعية ذات مظهر إعجازي عميق بجمعها كلّ خلاصات العلوم الكونية، وفهارس المعارف الإلهية، والدساتير النافعة للحياة البشرية الشخصية والاجتماعية، والقوانين السامية لحكمة الكون، وهو جمع لا يظهر أيّ أثر من آثار الخلط وعدم الاستقامة في التركيب أو المعنى.[١٤٤]

والوجه الآخر في اعتبار المقصد مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن كما يبيّن النورسي أن منابع علو الكلام وقوّته وحسنه وجماله أربعة: المتكلم والمخاطب والمقصد والمقام[١٤٥] فالمقصد يكسب الإعجاز قوّة، بل المقصد مظهر من مظاهر الإعجاز. ولقد بذلت الفلسفة كلّ قواها العقلية لكي ترشد الناس إلى السبيل القويم في هذه الحياة، فماذا قدّمت منذ نشأتها إلى اليوم غير بعث الحيرة والاضطراب في أذهان الناس وقلوبهم؟ أليس جدير بالفلسفة أن تستسلم لسلطان الوحي وهدايته؟

هذه المقاصد القرآنية لا يقتصر ظهورها على مجمل ما في القرآن الكريم، بل قد يتجلّى المقصد في آية واحدة من آياته، ويكمن ذلك -كما يذكر النورسي- في التجاوب بين الآيات ومقاصدها، ومن هنا يبرق الإعجاز ويلمع؛ لأنّ القرآن نزل في أكثر من عشرين سنة منجّما لمواقع الحاجات نزولا متفرّقا متقاطعا متلائما كأنّه نزل دفعة واحدة. قال: ونزل مهديا وموصلا لغايات إرشادية متدرجة متفاوتة مع كمال الاستقامة والنظام والموازنة كأنّ المقصد واحد وتدور تلك المقاصد والغايات على الأقطاب الأربعة: التوحيد والنبوّة والحشر والعدالة، فبسرّ امتلائه من التوحيد التأم وامتزج، وانتظم واتحدّ.[١٤٦]

---

(١٤٤) الكلمات، ص ٤٦٦.

(١٤٥) المثنوي العربي النوري، ص ١٥٦.

(١٤٦) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٩-٢٣٠.

ولنعرض ما بيّنه النورسي بشيء من التفصيل لتوضيح تصوّره لمقاصد القرآن الكريم في مستوياتها المتنوّعة:

المطلب الأول: المقصد الكلي

تحدّث النورسي حديثا مسهبا عن مقاصد القرآن الكريم، وبيّن أنّ هناك مقصدا جامعا تنتهي إليه كلّ المقاصد وتقوم عليه وتستند إليه، وتستمد منه قوّتها وشموليتها. إنّ هذا الهدف الكلي الأعظم الجامع، والوظيفة الأساس التي جاء القرآن ليؤدّيها هي تعليم شؤون دائرة الربوبية.[١٤٧] وليس هناك من شيء وراءه. وهو على حدّ قول الإمام الغزالي دعوة العباد إلى الجبار الأعلى سبحانه وتعالى... وإنّ ما في القرآن لا يعدو واحدا من هذه الأقسام الثلاثة: الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده.[١٤٨]

ويعبّر النورسي عن هذا المقصد أحيانا بقوله: "إنّ القرآن بمجموعه قوت وقوّة للقلوب"[١٤٩] بمعنى أنّ حياة القلوب لا تكون إلا بمعرفة الله تعالى، وشؤون ربوبيته.

ولما كان هذا الهدف الكلّي هو أساس وجود الخلق كان حريّا أن يعرفه كلّ إنسان مهما كان مستواه العلمي أو تحصيله المعرفي، ولذلك يرى النورسي أنّ المقصود الأهم من القرآن الحكيم هو إرشاد الجمهور الذين يمثلون أكثرية الناس، لأنّ خواصّ الناس يمكنهم أن يستفيدوا من مسلك العوام،[١٥٠] ولا كذلك العكس.

وهكذا يذهب النورسي إلى أنّ المقصود الأعظم من تنزيل القرآن هو تحقيق الهداية للناس، وذلك بتعريفهم بالله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله وسننه في الخلق، وهذا المقصد يشكل الوحدة الإيمانية الشاملة التي يخاطب بها عموم البشر، ويلغي كلّ ثنائية عجز الفكر البشري عن تجاوزها، فكلّ كائن وكلّ أثر

---

(١٤٧) الكلمات، ص ٢٩٣.

(١٤٨) انظر: الغزالي، أبو حامد محمّد بن محمّد، إحياء علوم الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦، ج ٤، ص ٣٦١-٣٦٤.

(١٤٩) إشارات الإعجاز، ص ٣٩.

(١٥٠) النورسي. صيقل الإسلام، مصدر سابق، ص ٥٩.

وكلّ حدث وكلّ... ينبغي أن يفهم في ضوء هذا المقصد الجامع. وهذه عملية تأصيل للاعتقاد الذي يقوم عليه تصوّر المسلم، بل هو لـمُّ شتات المسلم كلّه فكرا ووجدانا، وروحا وسلوكا، وهو -كذلك- إنقاذ له من التجزيئية في النظرة لهذا الكون وما فيه.

المطلب الثاني: المقاصد الرئيسة الأربعة للقرآن الكريم

بعد أن بيّن النورسي المقصد الكلّي بيّن أنّ مقاصد القرآن الأساسية أو عناصره الأصلية أربعة، هي: "التوحيد والنبوّة والحشر والعدالة. ويعبّر أحيانا عن أنّ هذه المقاصد الأساسية، والعناصر الأصلية منبثّة في كلّ جهة من جهات القرآن"[١٥١] هذه المقاصد الأربعة هي تفصيل لبيان التصوّر الصحيح، والعمل المستقيم اللذين أجملا في المقصد الكلّي الجامع.

ويظهر من كلام النورسي أنّه ليس أوّل من يقول بهذه المقاصد، ولكنّها مقررة لدى العلماء المدققين، قال: "من المعلوم أنّ مقاصد القرآن لدى المدققين أربعة..."[١٥٢] وواضح أنّه يقصد الغزالي والرازي وغيرهما.

ويكشف النورسي عن سرّ الوصول إلى هذه المقاصد الأربعة، فيبيّن أنّ الطريق إلى معرفتها هو طريق الفطرة، فما من إنسان إلا ويطرح على نفسه الأسئلة الفطرية ليعرف: من أين المبتدأ؟ والى أين المنتهى؟ وماذا يصنع في هذا الوجود؟ ومن سلطان الكون الذي يسير بأمره؟ وينهض الأنبياء للإجابة عن هذه التساؤلات، وينهض محمد ﷺ ليجيب بلسان القرآن، ليفصّل جواب كلّ واحد منها، فيبيّن سرّ الوجود وحكمته بقدرة الله تعالى، وبعثة الأنبياء، والأمانة التي يحملون، ومقصد السفر من طريق الحشر إلى السعادة الأبدية.[١٥٣]

ويفهم من كلام النورسي أنّ القرآن الكريم والنبيّ الأمين قد فصّلا هذه المقاصد الإيمانية تفصيلا قصديا بما لا مزيد عليه، وذلك بخلاف الإجمال الوارد في بيان الأنبياء السابقين لهذه المقاصد. وأنّ حكمتها هو: توسط البرازخ

(١٥١) انظر: إشارات الإعجاز، ص ٢٣، والمكتوبات، ص ٤٩٢ (الهامش). وصيقل الإسلام، ص ٢٩.
(١٥٢) صيقل الإسلام، ص ١٢٠.
(١٥٣) إشارات الإعجاز، ص ٢٤.

وتفاوت القابليات وتنوّع ألوان تجلّي الأسماء في المظاهر الكلية والجزئية والظلّية والأصلية.[١٥٤] وممّا يفهم من هذا الكلام أنّ البيان الأوفى تمثل في القرآن، وفيمن أنزل عليه القرآن. وبيان القرآن بيان أصيل لا حاجب يحجبه، ولا حاجز يمنعه، وذلك كمن ينعم بضياء الشمس ليس دونها سحاب، في حين أنّ مسلك الفلاسفة ومسلك الصوفية وهو مسلك الولاية فيه برازخ وحواجز، فهو كمن ينعم بنور القمر العاكس لضياء الشمس. ويقصد النورسي بذلك الردّ على أصحاب العقل والفلسفة التي تتوهم النور في الأسباب بغفلتها عن مسبّب الأسباب سبحانه.

١ - التوحيد أو الوحدانية:

عرّف النورسي بهذا المقصد معتمدا المنطق العقلي والتسليم الفطري الوجداني من خلال النقاط الآتية:[١٥٥]

- أنّ كلّ ذرّة في هذا الوجود تشهد بوجود الله سبحانه. وهذه دعوة إلى التأمل في صفحات هذا الكون.

- إنّ معرفة الله نقطة استناد وحيدة للإنسان تجاه تقلبات الحياة ودواماتها، وتزاحم المصائب وتوالى النكبات، إذ لو لم يعتقد الإنسان بالخالق الحكيم الذي أمره كلّه حكمة ونظام، وأسند الأمور كلّها إلى المصادفات العمياء وركن إليها، وإلى ما يملكه من قوّة هزيلة لا تقاوم شيئا، فسينتابه الفزع والرعب وينهار من هول ما يحيط به من بلايا... وهذا ما لا يتفق وكمال روح الإنسان المكرّم، إذ يستلزم سقوطه إلى هاوية الذل والمهانة مما ينافي روح النظام المتقن القائم في الكون كلّه... نعم! إنّه لا ملجأ إلا بمعرفة الله تعالى.

- إنّ مسلك القرآن الكريم في التعريف بالله سبحانه لا يقارن بمسلك الفلاسفة أو الصوفية أو المتكلمين، ولا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه وأقربه إلى الله وأشمله لبني الإنسان. ويتمثل هذا الطريق في:

---

(١٥٤) المثنوي العربي النوري، ص ٤٥١.

(١٥٥) انظر: صيقل الإسلام، ص ١٢١- ١٣٤.

- دليل العناية، وهو رعاية المصالح والحكم في نظام العالم الأكمل، مما يثبت قصد الصانع وحكمته وينفي وهم المصادفة.

- دليل الاختراع، وخلاصته أنّ الله قد أعطى كلّ فرد وكلّ نوع وجودا خاصّا، هو منشأ آثاره المخصوصة، ومنبع كمالاته اللائقة، فلا نوع يتسلسل إلى الأزل، لأنّه من الممكنات، فضلا عن أنّ حدوث قسم منها مشاهد، وقسم آخر يراه العقل بنظر الحكمة... إنّ الصانع الجليل قد ختم في جبهة كلّ شيء ختم الحدوث والإمكان، فالمادّة ليست أزلية. وتفصيل هذا الدليل في القرآن مسطور.

- إنّ الطبيعة شريعة إلهية فطرية، أوقعت نظاما دقيقا بين أفعال وعناصر وأعضاء جسد الخليقة المسمّى بعالم الشهادة، هذه الشريعة الفطرية -الطبيعة- مطبعة إلهية، وهي محصلة وخلاصة مجموع القوانين الاعتبارية الجارية في الكون. وعلى الإنسان أن ينظر إلى الآثار الإلهية لا من جهة الممكنات، ولكن من جهة القدرة الثابتة التامّة لواجب الوجود بآثارها المحيّرة للألباب. إنّ صنعة الله في نظام العالم لا يستطيع العقل أن يتصوّر أدقّ منها ولا أعجب ولا أغرب. وكما أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضا، كذلك سطور كتاب العالم يفسّر ما وراءه من حكمة وإتقان.

- والله سبحانه وتعالى منفصل عن الخلق، لا كما يدّعي الشاطحون من أهل التصوّف والفلسفة القائلين بوحدة الوجود.

- ويستشهد النورسي بدليل التمانع الوارد في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء:٢٢)، فالنظام الدقيق المتقن السائد في هذا الكون لهو أقوى دليل على وحدانية الصانع الجليل سبحانه. وهو سبحانه منزّه عن جميع النقائص؛ لأنّها تنشأ من عدم استعداد ماهيات الماديات، وهو تعالى مجرد عن الماديات. اهـ.

٢ - النبوّة أو الرسالة

يتحدّث النورسي عن النبوّة، وعن النبيّ محمّد ﷺ بوصفه أصدق شاهد، وأفصح برهان، وأقطع حجّة على الصانع الجليل. ويبيّن أنّ عدم العبثية في أفعاله سبحانه وحاجة الخلق إلى مرشد، يستلزم قطعا النبوّة في نوع البشر.

ويظهر هذا الدليل من جهات ثلاث:[١٥٦]

الأولى: الإنسان مدرك عجزه وقصوره في صنعته، وزحمة الأوهام عليه، وافتقاره في جبلّته الإنسانية... ولمّا لم يكف ميل الإنسان الطبيعي وسوق إنسانيته، وقصر نظره، واختلاط الأوهام في عقله احتاج البشر إلى مرشد ومعلّم، وذلك المرشد هو النبيّ. كذلك عدم كفاية القانون البشري في تنظيم شؤون الحياة وإنماء بذور ثمرة استعدادات الإنسان يتطلب شريعة إلهية حيّة خالدة مرسلة مع نبيّ مصطفى.

الثانية: استعداد الإنسان غير المتناهي، وآماله ورغباته غير المحصورة، وأفكاره وتصوّراته غير المحدودة، وقوّته الشهوية والغضبية غير المحدّدة... وعدم رضاه يوحي بأنّه مخلوق للسعادة الأبدية. وما في هذه الدنيا من فوضى واضطراب لا يسع كمالات الإنسانية، بل يحتاج إلى عالم أرحب لا تزاحم فيه، ولا يشبع الإنسان إلا السعادة الأبدية المكنونة في صدف الحشر الجسماني.

الثالثة: اعتدال مزاج الإنسان، ولطافة طبعه، وميله إلى الزينة، أيّ: ميله الفطري إلى العيش اللائق بالإنسانية. وهذا لا يتم إلا بتحقيق العدالة بين بني البشر، وعقل كلّ إنسان لا يكفي في درك العدالة، ومن ثمّ كانت النبوّة في نوع البشر ضرورة مطلقة.

ويزيد توضيح هذا المقصد بالنقاط الآتية:[١٥٧]

- إنّ ما يسمّى بـ"ملكة معرفة الحقوق" و"ملكة رعاية الحقوق" في اجتهاد البشر، خاصّة الملحدين -الذين استغنوا بهما عن الشريعة- ما هو إلا مجرد توهّم باطل، نعم! إنّ نواميس الحكمة لا تستغني عن دساتير الحكومة، كما تحتاج البشرية أشدّ الحاجة إلى قوانين الشريعة والفضيلة الحاكمة على الوجدان، لأنّ الإنسان بقواه وملكاته عاجز عن المحافظة على قوى الحكمة والعفّة والشجاعة، لذلك فهو بالضرورة محتاج إلى نبيّ يمسك بميزان العدالة الإلهية النافذة والمؤثرة في الوجدان والطبائع.

---

(١٥٦) انظر: صيقل الإسلام، ص ١٣٥-١٤١.

(١٥٧) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٢-١٥٢.

- إنّه لا يمكن إنكار ظاهرة بعثة ألوف من الأنبياء بمعجزاتهم التي تؤكد وجود النبوّة وضرورتها.

ثم يستمر النورسي في عرض براهين نبوّة محمّد ﷺ العقلية في رسالته "محاكمات عقلية". ويخلص في النهاية إلى القول في الإجابة على سؤال ياباني هو: ما الدليل الواضح على وجود الإله الذي تدعونا إليه؟ والجواب: إنّه محمّد ﷺ الذي هو أقوى دليل وأعظم حجّة على وجود الله تعالى؛ إذ هو الذي عرّف به تعريفا واضحا وضوح الشمس.

هذا الاتجاه في الإثبات تكرر ذكره كثيرا على لسان النورسي، ولا أعلم أنّ هناك من سلكه قبله؛ فالأصل أنّ القرآن دليل على صحة نبوّته، فأن ينقلب ليكون النبيّ هو الدليل على صحة القرآن بكلّ حقائقه! لعلّ النورسي أراد بذلك أنّه لمّا توافر للنبيّ أن يكون في ذاته وصفاته وقدرته على التأثير والتغيير، وما توافر له من تصديق المستقبل بكلّ ما فيه من علوم... ولمّا كان ذلك كذلك كان حريّا أن يكون دليلا على وجود الله تعالى، إذ كيف يبارز العالم وينتصر عليه لولا أنّ الله معه يؤيّده وينصره!!

٣ - الحشر الجسماني[١٥٨]:

أقام النورسي الأدلة والبراهين العقلية -في ضوء بيان القرآن الكريم- على ضرورة البعث والنشور، وبيّن إمكانية وقوعه عقلا، وأن حياة الخلق لا تصلح إلا به، وأوضح برهان على ذلك هو نبي الله محمّد ﷺ. والحشر الذي يقصده النورسي هو الحشر الجسماني الذي هدف من إبرازه وتأكيده إلى الردّ على الفلاسفة وغيرهم.

واستقى الأدلة العقلية عليه من أنّ الكائنات لو لم تنجر إلى السعادة الأبدية لصار نظام الكائنات الأكمل صورة زائفة خادعة واهية؛ لأنّ الذي جعله نظاما هو السعادة الأبدية. ثم إنّ الحكمة الإلهية التي هي مثال العناية الأزلية تعلن السعادة الأبدية، وتنفي وجود العبثية في هذه الحكمة.

كذلك، مبدأ عدم الإسراف في الفطرة الثابت بشهادة علم منافع الأعضاء،

(١٥٨) تناول النورسي هذا المقصد في رسالة مستقلة من رسائل النور، سمّاها "رسالة الحشر"، وهي الكلمة العاشرة من "الكلمات" ص ٤٧-١٢٨.

ولا سيما في العالم الأصغر -الإنسان- يدل على عدم الإسراف في الاستعدادات المعنوية للإنسان وآماله وأفكاره وميوله، وهذا يعني أنّه مرشح للسعادة الأبدية. ولولا هذه السعادة لتقلّصت كلّ المعنويات، وإذا كان الاهتمام بالجسد إلى هذا الحدّ، فكيف تكون العناية بجوهر الروح نفسه! وعليه فهذا الجسد سيعود عبر الحشر إلى الحياة ثانية.

كذلك، هذا النظام المتقن يدلّ على السعادة الأبدية. يشهد لذلك -أيضا- القيامات النوعية المتكررة الحاصلة في اليوم والليلة ترمز وتشير إلى القيامة الشخصية في الإنسانية بل تشهد لها.

ورحمة الرحمن الرحيم تبشر بقدوم السعادة الأبدية؛ لأنّها تصيّر الرحمة رحمة والنعمة نعمة، وتنجّيها من كونها نقمة وتخلّص الكائنات من نياحات الفراق، ولو لم تجئ تلك السعادة لتحوّلت جميع النعم نقما. ومما يدل على الحشر كذلك شهادة إعجاز القرآن.[١٥٩]

إنّ ثلث القرآن تقريبا وأوائل أغلب السور القصار آيات جليّة دالّة على الحشر، أيّ: إنّ القرآن ينبّئ عن الحقيقة نفسها بآلاف من آياته الكريمة صراحة وإشارة ويثبتها بوضوح وجلاء. وهناك ما يقرب من أربعين سورة افتتحت بالحديث عن الحشر، أليس إنكاره -بعد ذلك- محالا في مائة محال. ويستشهد بكل مظاهر هذا الكون وتقلباته للدلالة على الحشر كفصل الربيع.[١٦٠]

٤ - العدل[١٦١]:

أشار إلى هذا المقصد بعض العلماء مثل: محمّد رشيد رضا كما سبق بيانه. كذلك أشار إليه ابن عاشور، وعلاّل الفاسي. وقد ذكر بعضهم أنّ من

---

(١٥٩) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ١٥٩-١٦١. وسيأتي توضيح هذه المسألة بالتفصيل في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(١٦٠) انظر: الشعاعات، ص ٢٣١-٢٣٢، ٢٣٥.

(١٦١) لم يتمّ النورسي حديثه في المقاصد، فلم يتحدّث في "محاكمات عقلية" من الصيقل الإسلامي عن المقصد الرابع، وهو العدل أو العبودية مع العدل. أقول: ولأهمية هذا المقصد في الحياة الإنسانية نظّمت مؤسسة الثقافة والعلوم المؤتمر الدولي الثامن لفكر النورسي، وكان بعنوان: العدالة لأجل عالم أفضل للإنسانية، وعقد في ١٨-٢٠/١١/٢٠٠٧. وسيأتي الحديث عن بعض تطبيقات العدالة في الفصل الأخير.

المقاصد العامة للشريعة إقامة المساواة بين الناس، وقيامهم بما كلّفوا به من عدل واستقامة.[١٦٢] وهم ينظرون إلى العدل من زاوية تعلقه بأعمال المكلّف مما جاء به التشريع. وتعني عند الشيخ رشيد المساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، والملك والسوقة، والغني والفقير، والقويّ والضعيف.[١٦٣] في حين أنّ النورسي ينظر إلى العدالة على أنّها حقيقة من حقائق القرآن ودساتير الإسلام، وهي موغلة في النفس الإنسانية والحياة الاجتماعية، ومرتبطة بأحكام الكون وقوانينه، وهي كذلك واحدة من حقائق الإسلام المقتضية للحشر والحياة الآخرة. وهي سنة إلهية جارية في الكون تدور رحى الموجودات عليها.[١٦٤]

وقد أكّد النورسي أهمية هذا المقصد حتى أنّه نقل عن الإمام الأعظم أبي حنيفة: أنّ الاسم الأعظم لله تعالى هو العدل الحكم.[١٦٥]

والتساؤل حول إضافة مقصد العدالة إلى مقاصد القرآن يختلف من مفكر لآخر، من حيث الوجهة التي قصدها، والدافع الذي دعاه لأن يسلط الضوء عليه. وقد تجلّى هذا الدافع عند الأستاذ المفكر بديع الزمان النورسي؛ فسيادة الظلم في واقع حياة الناس على يد الأنظمة الإلحادية، وتفشّي الفساد والانحراف الخلقي في أوساط المجتمعات ناتج عن انعدام العدالة التي هي أساس انتظام الكون والحي، ويبدو أنّ سيادة الظلم على عهد (جون تورك) دعاه إلى تسليط الضوء على العدالة. إنّ الدولة في نظر النورسي عبارة عن العدالة، والشورى، وحصر القوّة في القانون[١٦٦] وكثيرا ما أشار إلى انقلاب الأوضاع، وأنّ الظلم قد وضع على رأسه قلنسوة العدالة، ولبست الخيانة رداء الحميّة، وأطلق على الجهاد اسم البغي، وعلى الأسر اسم الحرية.[١٦٧] وسيأتي بيانه.

ولم يغفل النورسي عن الأثر النفسي المترتب على الشعور بالعدالة والحرية

(١٦٢) انظر: الريسوني. نظرية المقاصد، مرجع سابق، ص ٦-٧.

(١٦٣) محمد رشيد رضا. الوحي المحمدي، مصدر سابق، ص ٢٥٩.

(١٦٤) النورسي، اللمعات، مصدر سابق، ص ٥٢٥-٥٢٦.

(١٦٥) النورسي، الملاحق، مصدر سابق، ص ٧٤.

(١٦٦) انظر: صيقل الإسلام، ص ٤٣٩، ٥٢٥، ٥٢٧.

(١٦٧) المكتوبات، ص ٦٠٤.

الذي يبعث الحياة في الإنسان ومشاعره وآماله ورغباته وأخلاقه الإسلامية.[١٦٨] ويعيد له كرامته المهدورة في ظل تلك الأنظمة، إنّ تحقيق إنسانية الإنسان وكرامته هو العدالة. وهي مقصد قرآني جامع لا يقتصر أثره على نظام الحياة الإنسانية، بل يشمل كلّ أنظمة الكون والوجود.

يتحدّث النورسي عن العدالة من حيث إنّها مكمّلة للمقاصد الثلاثة أو ناتجة عنها، وأنّها أهم أساس للربوبية، وأنّ العدالة الحقيقية تتطلب وجود جهنّم وتقتضيه؛ لأنّ عقاب ظالم هتَك حرمات ألف من الأبرياء، هو رحمة بآلاف الأضعاف بالمظلومين من خلال العدالة.[١٦٩] وإنّ الله ما خلق الجنة والنار والصراط والميزان إلا لأجل تجليات وتحقّق العدالة والحكمة والرحمة التي هي أهم أساس للربوبية.[١٧٠]

ويتحدّث عن العدالة من حيث اتصالها ببعثة الأنبياء، والنبوّة الخاتمة على وجه الخصوص. إن سنن الله الجارية في هذا الكون بالعدالة والحكمة والعناية تشهد بما تقتضيه أفعالة الرحمانية سبحانه كإنزال القرآن المعجز البيان على محمّد ﷺ.[١٧١]

ويرى أنّ الحاكم على الدهر وعلى طبائع البشر إلى يوم القيامة هو "حقيقة الإسلام" التي هي تجلّي العدالة الأزلية في عالم الكون، والتي هي الإنسانية الكبرى.[١٧٢]

لقد كانت نظرة النورسي إلى هذا المقصد القرآني شاملة؛ فالأثر البيّن للعدالة يتجلّى في كلّ عقيدة إيمانية، ويتجلّى في كلّ نظام من أنظمة هذا الكون وقوانينه وسننه، فكلّ شيء فيه قائم على الحكمة والعدل، فالقدر عدل كلّه، وليس فيه ما يخالف العدالة حتى لو كان عذاب القحط.[١٧٣]

ويرى أنّ في الصلاة -مثلا- تأسيس الانقياد لقانون العدالة الإلهية، وامتثال

(١٦٨) صيقل الإسلام، ص ٤٦٦.

(١٦٩) الشعاعات، ص ٢٨٧. وانظر: المثنوي العربي النوري، ص ٩٠-١٠٠.

(١٧٠) نفسه، ص ٢٩٩

(١٧١) نفسه، ص ٦٦٧.

(١٧٢) صيقل الإسلام، ص ٥١.

(١٧٣) انظر: الملاحق، ص ٣٦٨، ١٦١، والمثنوي العربي النوري، ص ٤٠٥.

النظام الرباني، وإدامة تصوّر عظمة الصانع في القلوب وتوجيه العقول إليها[١٧٤] وهي عدالة تحقّق معاني سامية للوجود الإنساني. وينتقد أولئك الذين يشنون هجوما على الدين ليرجعوا بالبشرية إلى عهود البداوة والجهل متسترين باسم المدنية، وهذا الذي يُفني البشرية وراحتها وعدالتها وسلامتها.[١٧٥]

ويبيّن النورسي أنّ العدل واحد من تجليات اسم الله الأعظم، وأنّ التوازن غالب على كلّ أنظمة الحياة، وهذا من مظاهر تجلّي اسمه سبحانه "العدل". وما العلوم التي أنتجها الإنسان إلا ترجمة لذلك النظام البديع، وتعبير عن ذلك التوازن الرائع. والموازنة الرائعة المتجلية في انتظام الكواكب السيارة، مع حركة الأرض السفينة السابحة في الفضاء، وأحوال النباتات وحياتها وأنواعها التي تزيد على الأربعمائة ألف، والانسجام والتناسق الكامل والموازنة الدقيقة الحاصل في جسم كلّ كائن حيّ... كلّ أولئك يدلّ على أنّ الله سبحانه هو "العدل القدير الرحيم الحكيم".

ولو تأمّل الإنس والجنّ في هذه التوازن العام الذي يحكم نظام الوجود، لأدركوا أنّ أعمالهم توزن بميزان العدل الإلهي يوم الحشر، وهو توازن يوجب على البشر إقامة العدل.[١٧٦]

ويرى كذلك أنّ الجود المطلق والرزق بلا حساب لا ينافي الحكمة والعدالة.[١٧٧] فللّه تعالى أن يتفضل على عباده بما يشاء، كيف يشاء، متى يشاء، وهو في ذلك العدل الحكم؛ لأنّ كلّ ذلك يقع بحكمة لغايات يعلمها الله سبحانه. إنّ كلّ مقاصد القرآن الكريم تدور على هذه الأربعة الأقطاب كما يقول الأستاذ بديع الزمان النورسي.[١٧٨]

أقول: إنّ هذا الطرح النوري في مقصد العدالة قد تقدّم بعلم مقاصد القرآن الكريم إلى أفق بعيد، خاصّة توظيفه هذا المقصد في واقع الحياة الإنسانية

(١٧٤) إشارات الإعجاز، ص ٥٣.

(١٧٥) الملاحق، ص ٣٧٣.

(١٧٦) انظر: اللمعات، ص ٥٢٣-٥٢٧.

(١٧٧) المثنوي العربي النوري، ص ٣٥٦.

(١٧٨) نفسه، ص ٢٣٠.

متحدّيا بذلك مسلكيات العدالة المزيفة التي تدّعيها المدنية الحديثة.

المطلب الثالث: مقاصد السور القرآنية

مقاصد السور موضوع تناوله العلماء منذ أمد بعيد، ونذكر منهم على سبيل المثال: الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره المسمّى "مفاتيح الغيب"، والإمام الشاطبي في "الموافقات"، ولعلّ أهم من تحدّث عنه بشيء من الوضوح الإمام برهان الدين البقاعي (ت٨٨٥ هـ) في كتابه المسمّى "مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور"، وقد عرض لبيان مقاصد السور في تفسيره القيّم المسمّى "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". وكان يبيّن موضوع السورة الكلّي ومقصدها الرئيس.

ومن المحدثين من أولى موضوع "مقاصد السور" قدرا كبيرا من الاهتمام، مثل المعلم عبد الحميد الفراهي في كتابه المسمّى "دلائل النظام". وتناوله الأستاذ سيّد قطب في كتابه المسمّى "في ظلال القرآن"، فهو موضوع لم يكن الحديث فيه جديدا بالنسبة إلى الأستاذ النورسي، ولعلّنا -مع ذلك- نقف على حجم الإضافة التي أضافها في مقاصد السور القرآنية.

إنّ المنهج الذي اتّبعه النورسي في دراسة الآية والسورة القرآنية جدير ببحث مستقل وحده، تُرصد فيه الأسس المنهجية في تفسير القرآن الكريم، ذلك أنّه لم يشتغل بالآية ومفرداتها، والسورة ونظمها، دون الإلتفات إلى مقاصدها، بل مقصد كلّ آية في القرآن الكريم.

يقرر النورسي ابتداء أنّ كلّ سورة من سور القرآن في حكم قرآن مستقل، ولما كان القرآن خطابا للجميع، ولا يتسنى لكلّ أحد في كلّ وقت قراءة تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سوره، لا سيما الطويلة حتى صارت كلّ سورة قرآنا صغيرا، فيسهّل السبيل لكلّ أحد، وينادي مشوّقا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧).[١٧٩] وهذا في رأيه من أسباب وحكم التكرار في القرآن الكريم.

فالقضية الأولى -إذن- عند النورسي هي عموم الخطاب القرآني لأفراد البشر كافّة، وأنّ خطابه يحمل رسالة شاملة يريد أن يؤدّيها من أقصر طريق،

(١٧٩) المثنوي العربي النوري، ص ٧٠.

وأعمق أسلوب وأوضحه إلى قلوب الناس المخاطبين، ولهذا أجمل القرآن ذكر المقاصد في كلّ سورة من سوره.

أما القضية الثانية فهي أنّ أفراد البشر ليسوا على مرتبة واحدة من حسن الفهم والتبصّر بمعاني الكلام، وإدراك أبعاده ومقاصده، ولهذا يقرر النورسي أنّ كلّ سورة قد تضمنت مجمل ما في القرآن الكريم من مقاصد وقصص؛ لئلا يحرم من يقرأ سورة فقط عمّا أنزل له في التنزيل، وعمّا أريد منه؛ إذ في المكلّفين: الأميّ أو الغبيّ، ومن لا يتيسر له إلا قراءة سورة قصيرة فقط، فمن هذه اللمعة الإعجازية تصير السورة قرآنا تامّا لمن قرأها.(١٨٠) بمعنى اشتمالها على معظم مقاصد القرآن الرئيسة.

ويؤكد النورسي حقيقة أنّ سورة واحدة قد تتضمن بحر القرآن العظيم الذي ضم الكون بين جوانحه، وأنّ آية واحدة تضم خزينة تلك السورة، وأنّ أكثر الآيات كلّ منها كسورة صغيرة، وأكثر السور كلّ منها كقرآن صغير... فلكي لا يحرم أحد من القرآن، فإنّ كلّ سورة في حكم قرآن صغير.(١٨١)

فهناك -إذن- قضية جوهرية، أو نقطة مركزية تشدّ الإنسان في كلّ سورة من سور القرآن، وهي البؤرة المقاصدية التي تجتمع فيها مقاصد القرآن الأربعة، فتظهر جليا في السور الطويلة، ويظهر بعضها في قصار السور. فالقارئ للقرآن -كما يرى النورسي- عليه أن يسلّط نظره في هذه البؤرة التي تشدّه إلى الله تعالى، وتشدّه إلى الإيمان بالنبوّة، وتشدّه إلى الاعتقاد بالبعث والحشر الجسماني، وتقرر في تصوّره مبدأ العدالة المطلقة التي ينتظم بها سلك الوجود.

وإذا كانت السورة تمثل قرآنا مصغرا عند النورسي، فإنّ تفسير سور القرآن ينبغي أن يتوجّه إلى تحقيق هذه المقاصد القرآنية، وليسهم في تأصيل التصوّر الصحيح، ليكون حاضرا في قلب المؤمن ويقينه ووجدانه وسلوكه، فيدفعه هذا إلى الاستقامة في القول والعمل. وبهذا يضع النورسي حدّا لتشتيت العمل التفسيري، وذهابه مذاهب شتى مبتعدا عن غايات القرآن المقاصدية.

ويمكن الاستدلال على ما ذهب إليه النورسي من خلال حديثه عن مقاصد

(١٨٠) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٨.

(١٨١) انظر: الكلمات، ص ٤٥٩-٤٦٠.

بعض السور، ففي بحثه عن مقصد سورة النبأ -مثلا- نجده يقول: "سورة النبأ إذا أنعم فيها النظر فإنّها تصف وتثبت أحوال الآخرة والحشر والجنة وجهنم بأسلوب بديع يطمئن القلب ويقنعه، حيث تبيّن أنّ ما في هذه الدنيا من أفعال إلهية ربانية متوجهة إلى كلّ من تلك الأحوال الأخروية"[١٨٢] والشاهد هنا أنّ السورة مسوقة لبيان واحد من مقاصد القرآن الأربعة وهو مقصد الحشر، وهذه قضية المفسّر الأولى التي يتوجب أن يذهب إليها في تفسيره. وهذه هي القضية الأولى التي يتوجب أن يلتفت إليها القارئ في قراءته.

كذلك، حين يبحث في مقصد سورة الانشقاق، يبيّن أنّها مسوقة لتبيّن مدى انقياد السموات والأرض وامتثالهما أوامر الله سبحانه، فهما على استعداد للانقياد لأيّ أمر إلهي.[١٨٣] هذا هو غرضها وموضوعها، وبه يظهر مقصد وحدانية الله تعالى الذي له وحده الأمر والنهي، والتصّرف في الملك. وله سبحانه تنقاد الخلائق والعوالم كلّها.

إنّ النورسي بهذا الفهم يؤصّل منطلق النظر في السورة القرآنية، ومن ثمّ تفسيرها في ضوء مقصدها الجامع، وموضوعها الأساس، وقضيتها الجوهرية، وغرضها الرئيس. وهذه قاعدة مهمّة في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. وبها يضع المفسر عن كاهله حمل التشتت والتشعب في القضايا الجزئية، والمسائل التفصيلية التي تبتعد عن المقصد الأساس للسورة القرآنية، ومن ثمّ الابتعاد عن مقاصد القرآن الكلية وهداياته الشاملة للإنسان.

المطلب الرابع: مقاصد الآيات القرآنية

ينظر النورسي إلى الآية القرآنية بوصفها البؤرة الأساسية لمقاصد القرآن أو العدسة اللاّمة التي تلتقي في بؤرتها كلّ المقاصد القرآنية، فهي البذرة أو النواة لتلك المقاصد. ويؤكد حقيقة أن المقاصد القرآنية كلّها قد تتبدّى في سورة، بل في آية بقوله: "إن هذه المقاصد الأربعة تتجلى في كلّ سورة من سوره وآية من آياته".[١٨٤]

وفضلا عن ذلك، فإنّ "من أساس البلاغة الذي يبرق به حسن الكلام

(١٨٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٣٢.

(١٨٣) نفسه، ص ٤٣٣-٤٣٤.

(١٨٤) إشارات الإعجاز، ص ٢٤.

وتجاوب الهيئات، وتداعي القيود، وتأخذها على المقصد الأصلي، وإمداد كلّ بقدر الطاقة للمقصد الذي هو كمجمع الأودية، أو الحوض المتشرب من الجوانب، بأن تكون مصداقا وتمثالا لما قيل":[١٨٥]

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكلّ إلى ذاك الجمال يشير

فكل كلمة في الآية تشير إلى مقصدها الأساس الذي سيقت من أجله، والذي يبرز واحدا من مقاصد القرآن الكبرى تصريحا، أو إشارة وتلميحا. وقد عجّت رسائل النور بمثل هذا الخطاب.

"إن مقاصد الآية تتجلّى في ذلك التجاوب الرفيع بين الآيات ومقاصدها على الرغم من الأسباب المانعة من هذا التجاوب".[١٨٦]

يبيّن النورسي أنّ مقاصد القرآن الأربعة تتجلى في كلّ آية منه، بل قد تتجلّى هذه المقاصد في جملة واحدة من الكلام الإلهي... وضرب لذلك مثلا بقوله تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم" من حيث دلالتها على هذه المقاصد، فـ"بسم الله" لتعليم العباد بوساطة "قل" المقدّرة فيه، و"قل" الأمّ في تقدير الأقوال القرآنية، فعلى هذا يكون في "قل" إشارة إلى الرسالة، وفي "بسم الله" رمز إلى الألوهية، وفي تقديم الباء تلويح إلى التوحيد، وفي "الرحمن" تلميح إلى نظام العدالة والإحسان، وفي "الرحيم" إيماء إلى الحشر.[١٨٧]

وكذلك قوله تعالى: "الحمد لله ربّ العالمين"، ففي "الحمد لله" إشارة إلى الألوهية، وفي لام الاختصاص رمز إلى التوحيد، وفي "ربّ العالمين" إيماء إلى العدالة والنبوّة أيضا؛ لأنّ بالرسل تربية نوع البشر، وفي "مالك يوم الدين" تصريح بالحشر.[١٨٨]

كذلك يجد المتأمل في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ ربّك﴾ (الأنبياء:٤٦) هذا المقصد الرئيس، فالآية -كما يقول النورسي- مسوقة للتهويل المستفاد من التقليل، والتعبير بـ"المسّ" بدل الإصابة في قوله: "مسّتهم" يشير

(١٨٥) نفسه، ص ٤٥.

(١٨٦) الكلمات، ص ٤٨١-٤٨٢.

(١٨٧) إشارات الإعجاز، ص ٢٤.

(١٨٨) نفسه، ص ٢٣-٢٤.

إلى القلّة والتروّح فقط. والتحقير في جوهر وصيغة وتنوين "نفحة" يلوّح بالقّلة. والبعضية في قوله: "من" تومئ إليها أيضا. وتبديل النكال بـ"عذاب" يرمز إليها، والشفقة المستفادة من الـ"ربّ" تشير إليها كذلك. وقس!! فكلّ يمدّ المقصد بجهته الخاصّة. وقس على هذه الآية أخواتها.[١٨٩] بمعنى أنّ كلّ مفردات الآية وكلماتها تمدّ مقصد التهويل المستفاد من التقليل من زواية خاصّة، فلكلّ حرف رسالة، بل لكلّ حركة غاية. ومقصد الآية الرئيس يجلّي أثرا من آثار مقصد وحدانية الله تعالى.

ويتصوّر النورسي اعتراضا على هذا الكلام الذي قد يلمح منه شيء من التكلّف في بيان اتجاه مفردات الآية إلى مقصدها الرئيس الذي يتجّه إلى بيان مقصد كلّي في القرآن!! أو شيء من التكلّف في بيان أنّ كلّ سورة تشتمل على هذه المقاصد الأربعة!! ويتولّى بنفسه الردّ على هذا الظنّ من جهتين:

الجهة الأولى: إنّ هذه المقاصد الأربعة لا تنتشر بدرجة واحدة في كثير من السور، بل في أكثر السور يكون المقصود بالذات مقصدا واحدا، وتكون بقية المقاصد ورادة على سبيل الاستطراد. أما الأحكام المشيرة إلى المقاصد في الآية الواحدة فهي أحكام ضمنية، فما في البسملة -مثلا- أحكام ضمنية، لا صريحة، ولذلك فهي تحتاج إلى اجتهاد لبيان تلك الأحكام المقاصدية.

الجهة الثانية: إذا كان لكلّ آية أحكام، أو قصدت إلى بيان مقامات، فإنّه حريّ بكلّ مقام أو حكم أن يكون له مناسبة مخصوصة إلى روح السورة العام ومقصدها الرئيس، ويكون ذلك الحكم أو المقام دليلا على ذلك المقصد.[١٩٠]

هذه أول وأهم مفارقة بين حديث النورسي عن المقاصد وحديث من سبق من العلماء، فالسابقون قد قرروا هذه المقاصد في ضوء القرآن كلّه أو سوره المكية، بينما يرى النورسي أنّ كلّ آية مشتملة عليها.

والمفارقة الثانية أنّ النورسي حين فسّر آيات القرآن عمل على إبراز هذه المقاصد وشدّ الكلام إليها، ومن ثمّ يبقى القارئ المتفهّم لكتاب الله مشدودا إلى

(١٨٩) نفسه، ص ٤٥.

(١٩٠) نفسه، ص ٤٠.

قضايا القرآن المحورية ومقاصده الشمولية؛ لأنّ القرآن في نظر النورسي ليس كتاب جغرافيا أو كومزجرافيا (الفلك والجغرافية والجيولوجيا)، وليس درساً في تاريخ الخلقة.[١٩١] وإن ذكر كلّ أولئك في القرآن برموز وإشارات. إنّ القرآن -في نظر النورسي- كتاب نزل لتدريس معرفة الصانع الجليل سبحانه وتعالى. أمّا المفسرون الآخرون فقد انشغل كثير منهم وأشغل القارئ معه بكمّ هائل من المباحث والمسائل التي لا تتصل بالآيات من قريب أو بعيد، إشباعا لعقل المسلم بألوان الثقافة المختلفة.

لقد توجّهت رسائل النور التي هي تفسير للقرآن الكريم إلى بيان مقاصد الآيات والنظر إليها من هذه الحيثية، سيرا مع مقاصد القرآن في فهم القرآن، وهذا أساس منهجي لم يتحقق في كثير من كتب التفسير.

ومن الأمثلة التي توضح هذا الأساس، قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾(يس: ٣٨) فقد بيّن أنّ المقصد الإلهي في هذه الآية إبراز النظام والانتظام في هذا الكون، وهو ينمّ عن حقيقة هي أن لا إسراف ولا عبث في الخلقة، والحكمة الأزلية لا تترك الطريق القصير المستقيم، ولا تختار الطريق الطويل المتعسف، مبيّنا أنّ جريان الشمس قد يكون حقيقة أو مجازا.[١٩٢]

لقد كان النورسي يبحث عن هذه المقاصد في كلّ مسألة أو قضية ذكرت في القرآن، ليبقى دائما مع النصّ القرآني في دلالاته وهداياته. ولعلّ أبرز موضع تعرض له لبيان هذه المقاصد: "فواصل الآيات"، أو ما أطلق عليه: "فذلكات"، وهي التي تأتي تعقيبا على حادثة جزئية تشتمل على دساتير كليّة، فقد يتوهم قصير نظر أن هذه الفواصل لا مناسبة تربطها مع آيتها، ولكن البحث الرصين الواعي يرى فيها مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن -كما تقدّم بيانه- يقول: "إنّ أغلب السور المطوّلة والمتوسطة التي كل منها كأنّها قرآن على حدة، لا تكتفي ببيان مقصدين أو ثلاثة من مقاصد القرآن الأربعة: التوحيد أو إثبات الصانع الواحد، والنبوّة أو الرسالة، والحشر الجسماني، والعدل، بل القرآن بماهيته، أيّ: كلّ سورة منه: كتاب ذكر وإيمان وفكر، كما أنّه كتاب شريعة وحكمة

(١٩١) انظر: إشارات الإعجاز، ص ١٧٧-٢٢٥.

(١٩٢) صيقل الإسلام، ص ٩٢-٩٣.

وهداية، يتضمن كتبا عدّة، ويرشد إلى دروس متنوعة، فتجد أنّ كلّ مقام يفتح أمام الإنسان أبوابا للإيمان ولمعرفة الله ومراتب وحدانيته، يحقّق بها إقرار مقاصد عديدة، من حيث إنّ القرآن يقرأ ما هو مسطور في كتاب الكون الكبير ويبيّنه بوضوح، فيرسخ في أعماق المؤمن إحاطة ربوبيته سبحانه بكلّ شيء، ويريه تجلياته المهيبة في الآفاق والأنفس؛ لذلك فإنّ ما يبدو ظاهرا من مناسبة ضعيفة يبنى عليها مقاصد كلية، فتتلاحق مناسبات وثيقة، وعلاقات قوية بتلك المناسبة الضعيفة ظاهرا، فيكون الأسلوب الأمثل مطابقا تماما لمقتضى ذلك المقام، فتتعالى مرتبته البلاغية".[١٩٣]

كذلك من المواطن التي برز فيها بحثه عن مقاصد القرآن من خلال آياته موطن القصص القرآني؛ فيرى أنّ إيراد القرآن للقصص كان بهدف أخذ العبرة منها، وينتقي منها النقاط التي هي كالعقد الحياتية التي تناسب مقصدا من مقاصد القرآن ويربطها به، فالقصة والعبرة تتعانقان في الذهن والأسلوب.[١٩٤]

هذه المقاصد يبحث عنها النورسي في كلّ آيات القرآن؛ لتكون منارا للمفسر يسير معها لتتجلّى في عمله التفسيري، وتشدّ المسلم باستمرار إلى المقصد الأسنى في هذه الحياة، وهو معرفة الله جلّ جلاله.

خاتمة الفصل

وبعد، فإنّ موضوع المقاصد سواء مقاصد القرآن أو مقاصد الشريعة بحاجة إلى مزيد من البحث، لبلورة الأسس المنهجية اللازم على المفسّر أو الفقيه اتّباعها وهو يتوجّه إلى كتاب الله بالتفسير، أو وهو يستنبط الأحكام الشرعية.

ويمكننا تسجيل بعض النتائج المستخلصة المستفادة ممّا ذكره العلماء من مقاصد للقرآن، فأقول وبالله التوفيق:

أولا: إنّ فكرة البحث في مقاصد القرآن كتأليف أو تنظير لم يلتفت

(١٩٣) انظر: الشعاعات، ص ٣١٠-٣١١، والكلمات، ص ٥٣٢-٥٣٣، ٤٨٣، والمثنوي العربي النوري، ص ٣٣٩، ٤٥٨.

(١٩٤) انظر: صيقل الإسلام، ص ٨١.

إليها العلماء إلاّ في عصور متأخرة في ثنايا بحوثهم في الدراسات القرآنية والتفسيرية. ويعود السبب في ذلك إلى الاهتمام بمقاصد الشريعة التي تغطي الجانب السلوكي لدى الفرد المسلم من عبادات ومعاملات وعقوبات... وليس عدم تأليفهم في ذلك جهلا منهم بها، ولكنها كانت مستبطنة شعور كلّ واحد منهم. مع أنّ هذه المقاصد مكمّلة ومتمّمة لمقاصد القرآن الكريم.

ثانيا: كان إبراز مقاصد القرآن يتم أحيانا في تجزيئية لا تشمل كلّ سور القرآن وآياته. ولم تظهر هذه المقاصد في واقع العمل التفسيري، ولم تُتّخذ قواعد وأسس في منهج فهم القرآن الكريم وتفسيره.

ثالثا: خلاصة هذه النظرات، اتّفاقهم على أنّ التوحيد مقصد كليّ أعظم من مقاصد القرآن الكريم، وأنّ البعث والنشور مقصد كلّي ثان، والنبوّة مقصد كليّ ثالث من مقاصد القرآن، ولا يكاد يخالف أحد من العلماء في هذه المقاصد الثلاثة إلا في التعبير وأسلوب البيان، وهي مقاصد تندرج في مقصد أعظم هو بيان التصوّر الحقّ للوجود وخالق الوجود.

أما فيما يتعلق بفكر النورسي في موضوع مقاصد القرآن فيمكنني أن أسجل النتائج الآتية:

أولا: النتيجة الأساس التي توصّلت إليها هذه الدراسة بعد هذا التجوال في رسائل النور هي أنّ مقاصد القرآن مثّلت في فكر النورسي نقطة المركز التي يدور في فلكها كلّ قضية أو قصة أو حادثة أو سؤال... مذكور في كتاب الله عزّ وجلّ. وقد شكّلت هذه المقاصد الأساس الذي ينطلق منه الباحث أو المفسر أو كلّ صاحب نظر في القرآن الكريم. لقد أولى مقاصد القرآن رعاية بالغة فاقت جهود كثير من المفسرين.

ثانيا: أكدّ النورسي ما قرّره العلماء من قبل في المقاصد الكلية: التوحيد، والنبوّة والبعث والعدل، وهو إلى هذا الحدّ لم يزد شيئا، ولكنه -والحق يقال- ترجم عن هذه المقاصد بأسلوب علمي عقلي مقنع، وبيّن كيفية فهم هذه المقاصد بأسلوب العصر، وباللغة والمنطق الذي يفهمه أهل العصر. هذا العرض للمقاصد القرآنية لا يؤسس فقط منهج النظر في القرآن، ولكنه -كذلك-

أسلوب محكم في الدعوة إلى القرآن، بل في التعريف بالقرآن الكريم. لقد دخل النورسي عصر التحدّي وقد أعدّ له من البيان القرآني حجّة وسلاحا، ووظّف هذا البيان في دمغ وجه الإلحاد الذميم وكشف عواره، وبيان فساد المدنية الحديثة الداعية إليه بتزييف العلم.

ثالثا: هناك حلقة محكمة النسج، دقيقة السبك والصياغة في فكر النورسي المقاصدي، هي اجتماع هذه المقاصد في القرآن، واجتماعها كذلك في سورة واحدة من سور القرآن، بل اجتماعها في آية واحدة من آياته الكريمة، فتكون الآية دالّة على مقصد قرآني واحد أو أكثر، إجمالا أو تفصيلا، تصريحا أو تلميحا، ومن ثمّ تصبح الآية بؤرة مركزية أو كبؤبؤ العين، ولله المثل الأعلى ولكتابه. وهذا لا يدع مجالا لتشتيت بيان النصّ القرآني وتفسيره، وبهذا يبقى كلّ قارئ للقرآن سائرا مع غاياته وأهدافه ومقاصده، ومن ثم تترك هذه المقاصد بصماتها وآثارها الواضحة على تفكير الإنسان وسلوكه وقيمه، بل على نظامه المعرفي بأكمله.

رابعا: لقد بيّن العلماء وفصّلوا الحديث في مقصد الوحدانية، والنبوّة والبعث، أمّا العدالة فقد أولاها النورسي ما تستحق من البيان، فلم يجعلها قاصرة أو محصورة في مجال التشريع كما ذكر بعض العلماء، بل بيّن أنّها مبدأ كوني يسري كالروح في جسم هذا الكون الواسع. وأنّها تتجلّى في السياسة والاقتصاد، وفي العبادات والمعاملات، وفي الاعتقاد والسلوك. وينبغي تحقيقها في واقع حياة الإنسان، وإلاّ فإنّ النظام الإنساني سينهار، ويكون الإنسان هو الخاسر الوحيد.

الفصل الثالث

بيان تكريم الإنسان في القرآن الكريم

تمهيد

في مفهوم التكريم الإلهي للإنسان

المبحث الأول

طبيعة خلق الإنسان وأهمية موقعه

المبحث الثاني

سموّ الهدف ووضوح الغاية وشرف المهمّة.

المبحث الثالث

التكريم بالنبوّة

المبحث الرابع

التكريم بالعبادة

المبحث الخامس

التكريم بالتسخير

المبحث السادس

التكريم بالمصير الأخروي

المبحث السابع

مفسدات التكريم

خاتمة الفصل

وتتضمن أهم النتائج

الفصل الثالث

بيان تكريم الإنسان في القرآن الكريم [١٩٥]

مقدمة

لعلّ من أسباب الهزيمة النفسية التي يعاني منها المسلم المعاصر في واقع الحياة عدم شعوره بأفضليته أو تميزه على غيره من أبناء جنسه، بل شعوره أحيانا بدونية المنزلة والمكانة والتفكير، لما يتصف به الآخر من نشاط علمي، وإبداع تقني، ورخاء اقتصادي، وهيمنة سياسية، فتنشأ لذلك عقلية التبعية والتقليد والشعور بالدونية. هذا الشعور راود المسلم المعاصر أو يراوده وهو في انسلاخ عن دينه، وقطيعة مع كتاب ربّه، وغفلة عن مكانته، وجهل بطبيعة المنزلة التي يتبوأها في ظلّ حمله للرسالة الإلهية، وأمانة التكليف الرباني.

إنّ الإنسان مخلوق مكرّم، ولم يحظ مخلوق آخر بمثل ما حظي به في البيان القرآني من تفضيل في نشأة خلقه وطبيعته، وما تضمنته طبيعته من حقائق وأسرار، والاحتفال الكبير الذي واكب ذلك الخلق، وشهود الملائكة ذلك الاحتفال، يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤) ويقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠)، فتأمّل ليكون موضوع الخطاب الإلهي، وموضع العناية الربانية بإرسال الرسل، وإنزال الكتب.

لقد حفل كتاب الوحي المنزّل على خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ بآيات كثيرة تذكّر الإنسان على الدوام بطبيعة الموقع الذي يتبوّؤه، وبمظاهر التكريم الإلهي العديدة له رحمة به أن يفقد خاصية التمايز، ووسام الشرف والتكريم والأفضلية والسموّ والترقّي إلى أرفع درجات الكمال.

---

(١٩٥) نشر هذا البحث في مجلة «دراسات»، الجامعة الأردنية، مجلد (٢٩)، العدد (١)، ٢٠٠٢. ص ص ٢٢-٤١ بعنوان «مظاهر تكريم الإنسان في البيان القرآني: "قراءة في فكر النورسي".

وقد دأب العلماء في كتب التفسير يتحدثون عن تكريم الله للإنسان من حيث إنّه نفخة من روح الله تعالى، ومن حيث سجود الملائكة له، ومن حيث المهمّة التي أنيطت به، وهي مهمة الخلافة وحمل الأمانة، إلا أنّ هناك عددا من المظاهر لم تحظ ببيان واف من قبل الباحثين.[١٩٦] هذه المظاهر كانت محلّ عناية النورسي وموضع اهتمامه، وتنبّه إلى قيمة هذه المظاهر، وأدرك آثارها على نفسية الإنسان عموما، وعلى نفسية المسلم على وجه الخصوص، ولا عجب في هذا فطبيعة المعركة -التي وقف على ثغرة بالغة الخطورة منها- تطلبت أن يقف على بيّنة وبصيرة من هذه المظاهر، فتميّز حديثه بالتفصيل في عرض مظاهر التكريم الإلهي للإنسان، وأولاها بعدا تحليليا أعمق، وبيانا أشمل، فتحدّث عن خلق الإنسان وطبيعة موقعه في هذا الوجود، والهدف والغاية منه، وتكريمه بالمهمّة والوظيفة التي أنيطت به، وتحدّث عن تكريمه بالنبوّة والعبادة والتشريع، وتكريمه بالتسخير، وتحدّث عن المصير المشرّف الذي هو عنوان تكريم حقيقي للإنسان، ثم تحدّث عن مفسدات التكريم، وحال الغفلة التي ينخرط بها الإنسان في سلك البهائم والعجماوات بسبب غفلته.

أقول: لقد جاء طرح النورسي لهذه القضية على خلفية التحدّي الذي كان يعيشه إبّان الغزو الفكري والثقافي الذي واجه المجتمع الإسلامي في تركيا بعد سقوط الخلافة، فانبرى يواجه مبادئ الفلسفة الغربية التي عملت على تجسيد

---

(١٩٦) تناول موضوع تكريم الإنسان من القدماء أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٠هـ) في كتابيه: "الذريعة إلى مكارم الشريعة" و"تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين". وتناوله من المحدثين د. عبد المجيد النجار في دراسة متخصصة بعنوان "عقيدة تكريم الإنسان وأثرها التربوي" فبيّن شرفية الخلق، وحسن التقويم، ورفعة التكليف، وعزّة التعبد، وطمأنينة الخلود، ثم بيّن الأثر التربوي لعقيدة التكريم، انظر: النجار، عبد المجيد عمر. عقيدة تكريم الإنسان وأثرها التربوي، مصر: مجلة المسلم المعاصر، العددان ٧٣-٧٤، سنة ١٩٩٤-١٩٩٥، ص ١١١-١٣٩. وتحدّث بصورة عامة عن مظهر تكريم الإنسان عباس محمود العقاد في كتابه "الإنسان في القرآن"، وعائشة عبد الرحمن في كتابها "القرآن وقضايا الإنسان" و"مقال في الإنسان". وتحدّث أيضا سيّد قطب في كتابه "خصائص التصوّر الإسلامي" ومحمد المبارك في كتابه "نظام الإسلام: العقيدة والعبادة" وزكي ميلاد كتابه "قصة الإنسان". وكان تناول النورسي لهذا الموضوع متصفا بالإحاطة والشمول، ومن هنا تنبع أهمية هذه الدراسة في بيانها لمظاهر تكريم الإنسان في القرآن الكريم في فكر النورسي.

وتكريس مفهوم مادية الإنسان، ولم تميّز بينه وبين أدنى الحيوانات الثديية، فهي تجري تجارب على سلوك الفئران أو القرود، ولا مانع من أن تعمّم نتائج تلك التجارب على الإنسان. وهذا أكبر خرق لقانون التكريم، ويعدّ اعتداء صارخا على الكرامة الإنسانية. إنّ الحضارة الغربية أرهقت الإنسان روحيا وخلقيا، وألهته وأشغلته بجني المال وبمظاهر العلم وإنتاجه البرّاق. من أجل ذلك أكدّ النورسي أنّ الحضارة الغربية لم توفّر السعادة المادية إلا لفئة قليلة من البشر، وظلّ الجمهور الأعظم من أبناء هذه الحضارة يئنّ من جراحاتها وآلامها؛[١٩٧] لأنّها لم توقّر الإنسان، ولم تحترم كينونته الجامعة، فأسرفت في توفير أسباب الرقيّ والعيش المادي له، ومحقت كيانه الروحي فجعلته قائما على أساس مادي في الطبيعة والطموح.

وعلى الرغم ممّا بلغته هذه الحضارة من العلم المادي إلا أنّها لم تستطع أن تتصوّر نهاية مشرقة أو سعيدة للإنسان، أو أن تضع حدّا لآلامه التي أنتجتها هذه الحضارة، بل قصرت نظره على هذه الحياة وجعلتها محطته الأولى والأخيرة. لقد وصف النورسي الإنسان الغربي بأنّه لو انقلب باطنه إلى ظاهره لوجد الخيال تجاهه صور ذئاب ودببة وحيّات وقردة وخنازير، ولهذا دفعت المدنية الحاضرة ثمانين بالمائة من البشرية إلى أحضان الشقاء، وأخرجت عشرة بالمائة إلى السعادة مموّهة زائفة، وظلت العشرة الباقية بين أولئك وهؤلاء.[١٩٨]

أقول: على هذه الخلفية قام النورسي يبيّن مظاهر تكريم الله للإنسان في ضوء البيان القرآني، لذلك فإنّ هذه الدراسة ستكشف عن حقيقة هذه المظاهر ومجالاتها، وما أولاه من عناية لهذا الموضع فيما يأتي.

تمهيد: في مفهوم التكريم الإلهي للإنسان

وردت مادة "كرم" في القرآن الكريم سبعا وأربعين مرّة، وكان أغلب ورودها متصلا بالإنسان فيما وهبه تعالى وأعدّ وهيّأ له سبحانه من عيش كريم، وأجر كريم، ورزق كريم، وفيما أنزل عليه من قول كريم.

---

(١٩٧) انظر: الكلمات، ص ١٤٥، ٤٧٢.

(١٩٨) انظر: صيقل الإسلام، ص ٣٥٧.

والإكرام والتكريم -كما يذكر الراغب الأصفهاني- "أن يوصل إلى الإنسان إكرام، أيّ: نفع لا يلحقه فيه غضاضة، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئا كريما، أيّ: شريفا. والكرم إذا وصف به الله تعالى فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر".[١٩٩] والكرم -كما تذكر معاجم اللغة- "ضدّ اللؤم".[٢٠٠]

ويرد الكرم بمعنى العزّة، ومنه جاء "الكريم" في القرآن وصفا لذي الجلالة سبحانه، أو اسما من أسمائه الحسنى ووصفا لعرشه. وفي التكريم والإكرام وهما نقيضا التحقير والإذلال جاءت صيغة مكرّمة لصحف الوحي، وجاء الفعل في تكريم الله وإكرامه للمتقين، وقوبل بالإهانة في آية الحج: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء﴾(الحج:١٨).[٢٠١]

أقول: يظهر من السياق القرآني أنّ هذا التكريم -في معظم وروده حين يتصل بالإنسان، أو حين يكون هو موضوعه- يكون في موقع يتطلب من الإنسان السعي الحثيث إليه لينال بالعمل والجدّ والعزيمة، فالتكريم قرين النشاط الإنساني في إطار الهداية القرآنية، والتفاعل معها تفاعلا إيجابيا. ومن وحي قوله تعالى: ﴿اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم:٣٢-٣٤)، يبيّن النورسي أنّ ارتباط الموجودات ببعضها ارتباط تفاهم وتجاوب في منتهى الحكمة يدلّ على أنّ الإكرام سنّة إلهية وقانون رباني يطلق عليه: "قانون الكرم، وناموس الرأفة، ودستور الرحمة".[٢٠٢]

وفي عرض تفريقه بين الكرامة والإكرام يرى النورسي أنّ إظهار الإكرام لا ضرر فيه، لأنّه من قبيل التحدّث بنعمة الله تعالى التي لا نصيب فيها من كسب

---

(١٩٩) انظر: الأصفاني، المفردات، مصدر سابق، ص ٤٢٨-٤٢٩.

(٢٠٠) الرازي، محمد بن أبي بكر. مختار الصحاح، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٩، ص ٥٦٨.

(٢٠١) انظر: عبد الرحمن، عائشة. التفسير البياني للقرآن الكريم، مصر: دار المعارف (بلا تاريخ) ج ٢، ص ٢٠-٢١.

(٢٠٢) الكلمات، ص ٧٩٢.

الإنسان، فالنفس لا تستطيع أن تسنده إليها، وأنّه أعلى وأسمى من الكرامة.[٢٠٣] بمعناها الاصطلاحي إذ فيها شيء من كسب الإنسان.

من كلّ ما سبق يتبيّن أنّ مفهوم تكريم الله للإنسان يعني إيصال الإنسان إلى مرتبة شريفة عزيزة يسمو فيها -بجهده وجهاده- نحو الكمال، تحقيقا لإنعام الله تعالى وإحسانه -غير المحدود- بعيدا عن الذلّ والإهانة والتحقير، وعملا وفق سننه التي لا تتبدّل ولا تتغيّر. وتحمل هذه المرتبة تكريما في الصورة والمعنى، وتكريما في الخَلق والخُلق، وبعبارة جامعة يمكن القول: إنّ هذا التكريم كائن فيما خلق الله عليه الإنسان وفيما شرع له.

المبحث الأول

طبيعة خلق الإنسان وأهمية موقعه

١. الخلقة السويّة المتفوّقة

تميّز الإنسان في خلقه بنفخة من روح الله، فكان خلقا سوّيا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾(الانفطار:٦-٧). هذا الخلق السويّ بما تحلّى وتجمّل به من طبيعة جامعة تسهم في تشكيلها الفطرة والعقل والقلب، والإرادة والمادّة والروح جعل هذا المخلوق الصغير منطويا على عالم كبير، وقد أكدّ النورسي هذه الحقيقة بقوله: "إنّ الإنسان مع صغر جرمه، وضعفه، وعجزه، وكونه حيوانا من الحيوانات، ينطوي على روح غال، ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولا لا حصر لها، ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويحوز أفكارا غير محصورة، ويتضمن قوى غير محدودة، مع أنّ فطرته عجيبة، كأنّه فهرس جامع للأنواع والعوالم".[٢٠٤]

ومن أعظم القوى التي تهيأت للإنسان قوّة العقل آلة الإدراك، ووسيلة التفكير، وأداة الاستيعاب، به يعي عن الله وحيه وخطابه، فيميّز بين الحقّ والباطل، ويعرف ما ينفعه وما يضرّه، هذا النوع من الإدراك استقلّ به الإنسان،

(٢٠٣) انظر: المكتوبات، ص ٣٩-٤٠.

(٢٠٤) انظر: المثنوي العربي النوري، ص ٢٤٤. وصيقل الإسلام، ص ١٦٠-١٦١.

فكان مظهر تكريم وتفوّق له على سائر الكائنات.

ويبيّن النورسي وظيفة العقل وأهميته، وكيف كان الإنسان به مكرّما، فيقول: إنّه قد ثبت بالاستقراء التام وتحرّيات العلوم وأبحاثها أنّ الإنسان هو أكرم المخلوقات وأشرفها: لأنّه يستطيع أن يكشف بعقله عن مراتب الأسباب الظاهرية في خلق الكائنات ونتائجها، ويعرف العلاقات بين العلل والأسباب المتسلسلة، ويستطيع أن يقلّد بمهارته الجزئية الصنائع الإلهية، والإيجاد الرباني المنتظم الحكيم، ويستطيع أن يدرك بعمله الجزئي وبمهارته الجزئية إتقان الأفعال الإلهية، وذلك بجعل ما لديه من جزء اختياري ميزانا جزئيا ومقياسا مصغرا لدرك الأفعال الإلهية الكلية والصفات الجليلة المطلقة. كلّ ذلك يثبت أنّ الإنسان أشرف مخلوق وأكرمه.[٢٠٥]

٢. الطبيعة الجامعة للحقائق الكاملة

ومن أسرار هذه الطبيعة الإنسانية التي تبيّن حقيقة التكريم أنّ الإنسان -كما بيّن النورسي- خلاصة تتجلّى فيه حقائق عالمي الغيب والشهادة، ومظهر لتجلّي أسماء الله الحسنى، فقال: "إنّ الله تعالى خلق الإنسان وجعله نسخة جامعة للكائنات، وفهرساً لكتاب العالم... وأودع في جوهره أنموذجا من كلّ عالم تجلّى فيه اسم من أسمائه تعالى، وبالشكر يصير كلّ أنموذج مشكاة لعالمه ومرآة له، وللصفة المتجلية فيه، والاسم الظاهر منه، فيكون الإنسان بروحه وجسمه خلاصة عالمي الغيب والشهادة، ويتجلّى فيه ما تجلّى فيهما"[٢٠٦] من حقائق كاملة؛ ذلك أنّ فطرة الإنسان قد تهيّأت لتفهم أسرار الخلق وحكمة الخالق، وتهيّأت كذلك لتعرف الله تعالى حقّ المعرفة، و"إنّ من عجائب جامعية فطرته أن أدرج الفاطر الحكيم في هذا الجرم الصغير موازين لا تعدّ لوزن ما لا يحدّ من مدّخرات رحمته، وأدمج فيه آلات لا تحصى أجهزتها المعنوية لفهم ما لا يتناهى من مكنونات كنوز أسماء الله الحسنى".[٢٠٧] ومن البدهي القول أن لا مخلوق على وجه الأرض شابه خَلْقه خَلْق الإنسان.

---

(٢٠٥) انظر: صيقل الإسلام، ص ٥٠٣.

(٢٠٦) انظر: إشارات الإعجاز، ص ٢٧.

(٢٠٧) المثنوي العربي النوري، ص ٣٤٣.

٣. الإنسان الرباني قطب الكائنات ومحورها

لم يواز ولم يدان منزلة الإنسان في البيان القرآني شيء من المخلوقات، فالإنسان -كما وصف النورسي- قطب الكائنات ومحورها بما حوى من استعدادات، وما امتلك من قابليات تتناسب مع طبيعة موقعه في هذا الوجود. ويرى "أنّ موجودات العوالم الأخرى قد أوجدت على شكل دائرة واسعة بحيث يتبوّأ الإنسان فيها مركزها، فالغايات المرجوّة من الأحياء عادة تتمركز في هذا الإنسان، والخالق الكريم سبحانه يحشد جميع الأحياء حول الإنسان، ويسخّر الجميع لأجله وفي خدمته، جاعلا هذا الإنسان سيّدا عليها، وحاكما لها، فالخالق العظيم يصطفي الإنسان من بين الأحياء، بل يجعله موضع إرادته، ونصب اختياره، ولا غرو فهو خليفة الأرض".[٢٠٨]

إنّ النورسي بنظرته المحلّقة في عالم الإنسان، والموغلة في معرفة أسرار النفس الإنسانية، ومن خلال قول رسول الله ﷺ: "إنّ الله خلق آدم على صورته"[٢٠٩] رأى في الإنسان مرآة عاكسة لأسماء الله الحسنى، فترى أنّ أسماءه تعالى: القدير، الحكيم، البصير، العليم تتجلى في خلق الإنسان على هذه الطبيعة العجيبة، وتتجلى في سلوك الإنسان الخليفة في عمارته للأرض على أسس الخطاب الإلهي وهدايته، فيشير إلى كون الإنسان مرايا عاكسة لتجلياته سبحانه[٢١٠*] ودلالة الإنسان ظاهرة قاطعة جلية تشبه في قطعيتها وجلائها دلالة المرآة الساطعة بصورة الشمس وانعكاسها على الشمس نفسها، فالمراد من الصورة السيرة والأخلاق والصفات.[٢١١] وهو ما أشار إليه أبو حامد الغزالي رحمه الله (ت٥٠٥هـ) حين ذكر أنّ المقصود بالحديث من قرب العبد إلى الله

(٢٠٨) المكتوبات، ص ٤٧٠، و الشعاعات، ص ٢٣٦.

(٢٠٩) البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح، (متن فتح الباري) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض: دار الإفتاء السعودية، (بلا تاريخ)، كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، ج ١١، ص ٣، ح ٦٢٢٧.

(٢١٠) وهذا يعني أنّ الإنسان قادر على إظهار تجليات أسماء الله الحسنى المتظاهرة في الوجود كافة بما يملكه من صفات واستعدادات، ففي روحه وجسده وعقله وما ينتج عن كل منها ما يكشف عن تجلّي أسماء الله الحسنى، فترى اسمه القدير كما ترى اسمه الحكيم.

(٢١١) انظر: اللمعات، ص ١٥٤. و الملاحق، ص ٢٨٤.

بالصفات التي أمر فيها بالإقتداء والتخلّق بأخلاق الربوبية حتى قيل: تخلّقوا بأخلاق الله[٢١٢] وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبرّ والإحسان واللطف وإفاضة الخير، والرحمة على الخلق والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحقّ، ومنعهم من الباطل.[٢١٣]

إنّ هذه الاستعدادات والقابليات في طبيعة خلق الإنسان تمكنه من بلوغ مرحلة من الترقّي والكمال تجعله بحقّ جديرا بسجود الملائكة له، واستحقاقه أن يكون خليفة[٢١٤] وهذا مظهر بالغ الأهمية من مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان.

لقد استطاع النورسي أن يدرك في ضوء فهمه للبيان القرآني أبعاد النفس الإنسانية، وما انطوت عليه من معالم، وما جبلت عليه من طبيعة فارقت بل تميّزت عن كلّ صنوف الكائنات. هذه الطبيعة تمكن الإنسان، بل تؤهله إلى رقيّ غير محدود، فيبلغ بذلك مرتبة الأنبياء والمرسلين: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(النساء:٦٩) هذا إن أحسن إدراك طبيعة نفسه، وطبيعة خلقه، والموقع الأسمى الذي تفيّأه في هذا الوجود.

يؤكد النورسي هذا في الوقت الذي تسير فيه أوروبا في ظلمات من الظنّ والتخمين في فهم سرّ الإنسان وحقيقة وجوده، وطبيعة موقعه حتى غرقت في مستنقع المادية الآسن، فلم تعترف بتلك الطبيعة الإنسانية الشاملة. ويهدف من ذلك إلى أن يعرّي المادية الغربية من ثوبها المزيّف، ويؤصّل الحقيقة القرآنية في فهم الإنسان: خلقه وطبيعة موقعه.[٢١٥] إنّ الترقّي المادي الذي وصل إليه الإنسان يقتضي بلوغ أضعافه من الترقّي الروحي؛ لأنّ الإنسان ما شرف إلا

(٢١٢) ذكر ابن حجر أنّ الأكثر على عود الضمير -خلق آدم على صورته- على المضروب، وأعاد بعضهم الضمير على الله متمسكا بما ورد في بعض طرقه. انظر: العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض: دار الإفتاء السعودية، (بلا تاريخ) ج ٥، ص ١٨٢-١٨٣.

(٢١٣) الغزالي، إحياء علوم الدين، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٠٦.

(٢١٤) انظر: صيقل الإسلام، ص ٣٢.

(٢١٥) لمزيد من الإطّلاع انظر: الدغامين، زياد خليل. إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي، إزمير: دار النيل، ١٩٩٨، ص ٢٠٤-٢٣١.

بالروح، فهي أسمى من المادّة قطعا. والترقّي الروحي يعدّه النورسي معراجا مهمّا لمعرفة الله تعالى.

المبحث الثاني

سموّ الهدف ووضوح الغاية وشرف المهمّة

تتعدّد مظاهر تكريم الله للإنسان في خطاب القرآن الكريم، فبعد الحديث عن تكريمه بنعمة الخلق في أحسن تقويم، وتميّزه عن سائر المخلوقات، وتبوّئه أسمى موقع في الوجود وأهمّه، ينتقل الحديث إلى بيان أنّ من أعظم مظاهر تكريم الله له هدايته إلى المقصد الأسمى من وجوده، والغاية من ذلك الوجود، والمهمّة التي أوكل إليه إنجازها في هذا الوجود، فكان مخلوقا بصيرا يعلم بداية هذا الوجود وهدفه ومصيره، ويعلم حقيقة موقعه فيه. وهي مهمّة جليلة سامية، وبإنجازها يرقى الإنسان في سلّم التكريم والكمال.

إنّ الأهداف والمهام الكبرى والغايات العظمى التي شرف الإنسان وكرّم بتحقيقها في فكر النورسي تتمثل في معرفة الله تعالى والإيمان به، وتحقيق العبودية له، والقيام بواجب الخلافة وعمارة الأرض. ولقد تأهل الإنسان في خلقه على تلك الطبيعة الخارقة الشاملة إلى تحقيق ذلك كلّه. وتناسب تأهيله -كذلك- مع حجم المهامّ التي أكرمه الله تعالى بمعرفتها وإنجازها، ولذلك تأهّل دون غيره لتلقّي خطاب ربّ العزّة جلّ جلاله، واستحقّ أن يشرف بهذا الخطاب.

١. الإيمان بالله ومعرفته أشرف غاية

إنّ سموّ هدف وغاية وجود الإنسان ممّا يكمل إنسانيته ويؤكد مبدأ تكريمه؛ فالإيمان بالله ومعرفة الحقّ أسمى غايات الوجود الإنساني، وهو العلم الحقّ الذي يجب معرفته، وفي هذا السياق يبيّن النورسي ما للإيمان من أثر في كمال الإنسان، وأنّ حقائق أنوار أسماء الله الحسنى، وسائر أركان الإيمان ترتبط بحقائق الكون، حتى اتفق أهل الحقيقة على أنّ أجلّ العلوم قاطبة، وقمّة المعرفة، وذروة الكمال الإنساني إنّما هو في الإيمان والمعرفة القدسية السامية

المفصّلة والمبرهنة النابعة من الإيمان الحقيقي.[٢١٦] وتكمن أهمية هذا الكلام في ربطه بين حقائق الإيمان وحقائق الكون على وجه يستحيل به الفصل بينهما، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ هذا الكلام يحمل تكذيبا للفلسفة المادية الغربية التي تحاول أن توظّف حقائق الكون لتكذيب حقائق الإيمان، وتسعى جاهدة من أجل أن تسخّر العلم في نقض حقائق الدين وعقائده على ضوء صراعه مع دين الكنيسة، زعما منها أنّ الدين مجرد عقائد غيبية اختلقها الإنسان في ظلّ أحوال معينة.[٢١٧]

إنّ معرفة الله سبحانه والاستناد إليه، بل الإرشاد إليه من أشرف غايات الإنسان، وقد جاء القرآن الكريم يرشد الإنسان إلى معرفة هذه الحقيقة، بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦) يقول النورسي: "لا يمكن أن يكون شيء موهوم مبدءاً لحقيقة خارجية؛ فنقطة الاستناد والاستمداد حقيقتان ضروريتان مغروزتان في الفطرة والوجدان، حيث إنّ الإنسان مكرّم وهو صفوة المخلوقات، فلولاهما لتردّى الإنسان إلى أسفل سافلين"[٢١٨] ومظهر السعادة في هذا التكريم أنّ كلّ مؤمن يستطيع أن يكون بنور القرآن والإيمان سعيدا بسعادة جميع الموجودات وبقائها ونجاتها من العدم وصيرورتها مكاتيب ربانية، ويغنم نورا عظيما بعظم الدنيا، فكلّ يستفيد من هذا النور حسب درجته.[٢١٩]

٢. العلم والعقل يؤكدان حقائق الإيمان

كما رفض النورسي أن يكذّب العلم حقائق الإيمان، كذلك رفض أن يكون العقل هو المكذّب لتلك الحقائق، وأنّى له ذلك وأحاسيس الإنسان كلّها متجهة إلى الخالق اتجاها فطريا! إنّه مهما حاول العقل أن ينسى الخالق وأهمل نفسه، فإنّ الوجدان يبصر الخالق ويتوجّه إليه، وكذا الحدس والإلهام يدفع إلى معرفة

---

(٢١٦) انظر: المكتوبات، ص ٤٢٦-٤٢٧. و اللمعات، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٢١٧) لمعرفة نظرة أشهر فلاسفة الغرب للدين، انظر: بدوي، عبد الرحمن. موسوعة الفلسفة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٤. ج١، ص ٣٣٧-٣٣٩، ٤٥١-٤٥٢، ٤٨٣-٤٨٤، ٥٤٨-٥٥٠. ج ٢، ص ٥٥٤-٥٦٠.

(٢١٨) المثنوي العربي النوري، ص ٤٣٠، انظر: اللمعات، ص ٢٦١.

(٢١٩) المكتوبات، ص ٣٧٢.

الله تعالى. إن قلب الإنسان مثلما ينشر الحياة في سائر الجسد، فإنّ العقدة الحياتية فيه وهي معرفة الله تنشر الحياة إلى آمال الإنسان وميوله المتشعبة في مواهبه واستعداداته غير المحدودة... فهذه هي نقطة الاستمداد. والمعرفة الإلهية نفسها هي نقطة الاستناد للإنسان أمام تقلّبات الحياة ودوّاماتها، وأمام تزاحم المصائب والنكبات وتواليها عليه، إذ الإنسان إن لم يعتقد بالخالق الحكيم الذي كلّ أمره نظام وحكمة، وأسند الأمور والحوادث إلى المصادفات العمياء، وركن إلى ما يملكه من قوة هزيلة لا تقاوم شيئاً من المصائب، فإنّه سينهار حتماً من فزعه وخوفه من هول ما يحيط به من بلايا. وهذا ما لا يتفق وكمال روح الإنسان المكرّم، إذ يستلزم سقوطه إلى هاوية الذلّ والمهانة، مما ينافي النظام المتقن القائم في الكون كلّه، أيّ إنّ هاتين النقطتين: نقطة الاستمداد والاستناد ضروريتان لروح الإنسان.[٢٢٠]

ويعبّر النورسي عن شرف الغاية والهدف ببيان أنّ أسمى غاية للخلق، وأعظم نتيجة للفطرة الإيمان بالله سبحانه. وأعلى مرتبة للإنسانية، وأفضل مقام للبشرية هو معرفة الله تعالى. وأزهى سعادة للإنس والجنّ، وأحلى نعمة هي محبّة الله تعالى. وأصفى سرور لروح الإنسان، وأنقى بهجة لقلبه هو اللذّة الروحية[٢٢١] وهو مالا تأبه له المدنية الحديثة؛ لانغماسها في وحل المادية العمياء.

هذه المعرفة التي توحّد الله تعالى هي عنوان كمال وتكريم للإنسان، يقول النورسي: "إنّ الإنسان بسرّ التوحيد، صاحب كمال عظيم بين جميع المخلوقات، وهو أثمن ثمرات الكون، وألطف المخلوقات وأكملها، وأسعد ذوي الحياة، ومخاطب ربّ العالمين، وأهلٌ ليكون خليله ومحبوبه. حتى أنّ جميع المزايا الإنسانية وجميع مقاصد الإنسان العليا مرتبطة بالتوحيد وتتحقق بسرّ التوحيد، فلولا التوحيد لأصبح الإنسان أشقى المخلوقات، وأدنى الموجودات، وأضعف الحيوانات، وأشدّ ذوي المشاعر حزناً، وأكثرهم عذاباً وألماً".[٢٢٢]

---

(٢٢٠) انظر: المثنوي العربي النوري، ص ٤٣١، وصيقل الإسلام، ص ١٢٢.

(٢٢١) انظر: المكتوبات، ص ٢٨٩.

(٢٢٢) الشعاعات، ص ١٨.

٣. أثر معرفة الله في الإنسان

إنّ استمداد الكمال الإنساني يظهر في بيان النورسي من كمال الحقّ سبحانه، فما في الكون من حكم سامية ومن جمال خارق ومن قوانين عادلة ومن غايات حكيمة، إنما تدلّ بالبداهة على وجود حقيقة الكمالات.. وهي شهادة ظاهرة على كمال الخالق سبحانه الذي أوجد هذا الكون من العدم، ويدبّر أمره في كلّ جهة وناحية، إدارة معجزة جذابة جميلة، فضلاً عن أنّها دلالة واضحة على كمال الإنسان الذي هو المرآة الشاعرة العاكسة لتجليات الخالق جل وعلا.[٢٢٣]

ويتحدث عن أثر التكريم بمعرفة الله الواحد على شعور الإنسان وتصوّره فيذكر أنّ انتساب الإنسان بالإيمان إلى الله سبحانه يبدّل الأجل والموت من الإعدام الأبدي إلى تذكرة مرور ورخصة إلى العالم الباقي، وأنّ الإنسان يفخر بشرف انتسابه هذا.[٢٢٤]

ومن وحي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦) يبيّن ما تستوجبه معرفته، وما تحدّده من سلوك، موضّحا أنّ "الحمد" صورة إجمالية للعبادة التي هي نتيجة للخلقة، والمعرفة التي هي حكمة وغاية للكائنات، فكأنّ ذكره تصوّر للعلّة الغائية[٢٢٥] من وجود الإنسان.

وتملي هذه المعرفة على الإنسان سلوكا يقتضي مرضاة الله تعالى، فإنّ أجلّ سعي الإنسان هو أن يكون موضع نظر محبة الله الذي خلق الجنة بلطائفها ومحاسنها ولذائذها ونعمها بتجلّ من تجليات رحمته.[٢٢٦]

وينبني على هذا التكريم بمعرفة الله تعالى تصوّر يحتّم على الإنسان قراءة كتاب الكائنات بلسان الحمد والتسبيح لله الخالق، إنّ الفلسفة السقيمة، والمدنية السفيهة تزيدان جمودتها وكدورتها بالتدقيقات الفلسفية والمباحث الطبيعية، وأما القرآن فينفش الدنيا كالعهن المنفوش بآياته ويشفّفها ببيّناته، ويذيبها بنيرانه، ويمزّق أبديتها الموهومة بنعيّاته، ويفرّق الغفلة المولّدة للطبيعة برعداته، فحقيقة

---

(٢٢٣) نفسه، ص ١٩٤.

(٢٢٤) نفسه، ص ٢٦١.

(٢٢٥) إشارات الإعجاز، ص ٢٧.

(٢٢٦) اللمعات، ص ٩٤.

الدنيا المتزلزلة تقرأ بلسان حالها المذكورة آية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(الأعراف:٢٠٤).[٢٢٧]

فالتكريم بهذه المعرفة يرقى إلى استقامة التفكير، وسلامة المنهج في قراءة هذا الوجود، فإنّ هذه القراءة تؤدي إلى معرفة صحيحة بالله تعالى وأسمائه.

ويبيّن النورسي "أنّ ممايميّز الإنسان عن الحيوان شمول علاقته بالماضي والمستقبل، وكلية إدراكه بالأنفس والآفاق.. وكشفه لترتب العلل الظاهرية في إنشاء الأشياء الظاهرية، فأعظم وظيفته وأقدمها، وأتمّ أجهزته والزمها؛ التسبيحُ والتحميد بالجهاز المخلوق لهما، فيسبح الإنسان صانعه بلسان الماضي والحال والمستقبل، وبألسنة الأنفس والآفاق، وبسرّ مشاهدته لتسبيحات المخلوقات وشهادته عليها يثني على صانع الأشياء بقراءة أسمائه المكتوبة بالترتيب والترتب في حكمة صنع الأشياء".[٢٢٨] وهذه من أمهات الحقائق التي يسعى الإنسان إلى معرفتها.

وحين ينظر الإنسان إلى أنّ غايته تكمن في البحث عن الحقّ والحقيقة فلا شكّ في أنّ المهمّة التي يحيا من أجلها هي مهمّة شريفة، تتناسب مع تكريم الله تعالى له، يذكر النورسي أنّ الإنسان بسبب جوهره العالي وماهيته المكرّمة إنّما يدور خلف الحقّ والحقيقة. وينشد السعادة على الدوام، وإنّما يقع الباطل والضلال بسبب التغافل عن النظام الذي هو خيط الحكم، إنّ قبول الإنسان الباطل إنّما هو وضع طارئ اضطراري؛ لأنّه خاب في الحصول على الحقّ، ويئس من وجدان الحقيقة، مع أنّه يعرف يقينا بفطرته الأصيلة ووجدانه وفكره أنّه محال.[٢٢٩]

يردّ النورسي بهذا كلّه على الملحدين الذين حوّلوا صورة الكون ذات الكمال والحكمة الظاهرة ألعوبة بيد المصادفة، وإلى لهو تعبث به الطبيعة، وإلى مجزرة ظالمة رهيبة لذوي الحياة، وإلى مأتم مظلم مخيف لذوي الشعور، حيث

---

(٢٢٧) المثنوي العربي النوري، ص ٣٣٨.

(٢٢٨) المثنوي العربي النوري، ص ٣٣٨.

(٢٢٩) انظر: إشارات الإعجاز، ص ١٥٣، وصيقل الإسلام، ص ١٢٥، والمكتوبات، ص ٦٠٣.

يهوي كلّ شيء إلى الفناء، وينحدر إلى الزوال، ويمضي حثيثا بلا غاية ولا هدف، وهو ما يردّي الإنسان إلى أسفل درك من دركات الحيوان بوصف أتعس مخلوق وأذلّه[٢٣٠] وهذه نتيجة حتمية للقراءة الفاسدة للكون التي لا تستند إلى أيّ معيار علمي صحيح، ولا منطق من العقل صريح.

٤. شرف المهمّة: الخلافة والعمارة

إنّ الإنسان بما تهيّأ له من استعدادات وكمالات قد أنيط به مهمّة شريفة أخرى، تنبثق من غاية وجوده، فهو خليفة في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة:٣٠-٣٣).

إنّ المعنى الذي يقف النورسي عنده في هذه الآيات الكريمة ليس متمثلا فقط في بيان تكريم الإنسان بكونه خليفة في الأرض، بل يستشف منها معنى آخر يتمثل في بعد الهدف وسموّه، وكونه مطلبا ضروريا لصلاح حياة الإنسان، فتعلّم آدم الأسماء معجزته التي تحدّى بها الملائكة، وعلى البشر أن يقلّدوا الأنبياء في معجزاتهم،[٢٣١] ليستعين بها على أداء مهمّة الخلافة، والقيام بأعباء العمارة، عمارة الأرض وإحيائها.

إنّ الوظائف والمهامّ المنوط بالإنسان إنجازها، والتي تعدّ مظهرا عظيما من مظاهر تكريم الإنسان، يجملها النورسي في تسع وظائف رئيسة، هي:[٢٣٢]

أولها: القيام بالشكر الكلّي، ووزن النِعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية بموازين الحواس المغروزة في جسمك.

---

(٢٣٠) انظر: الشعاعات، ص ١٩٤.

(٢٣١) انظر: إشارات الإعجاز، ص ٢٣٨.

(٢٣٢) انظر: الكلمات، ص ١٣٧-١٣٨.

ثانيا: فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى بمفاتيح الأجهزة المودعة في فطرتك، ومعرفة الله جل وعلا بتلك الأسماء الحسنى.

ثالثها: إعلان ما ركّبت فيك الأسماء الحسنى من لطائف تجلياتها وبدائع صنعتها، وإظهار تلك اللطائف البديعة أمام أنظار المخلوقات بعلمٍ وشعور، وبجوانب حياتك كافة في معرض الدنيا هذه.

رابعها: إظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك، بلسان الحال والمقال.

خامسها: التجمّل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبْتها لك تجليات الأسماء، وإبرازها أمام نظر الشاهد الأزلي جلّ وعلا.

سادسها: شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، شهود علمٍ وبصيرة.

سابعها: معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، وشؤونه الحكيمة، ووزنها بما وهب لحياتك من علم جزئي وقدرة جزئية وإرادة جزئية، أيّ بجعلها نماذج مصغرة ووحدة قياسية لمعرفة تلك الصفات المطلقة الجليلة.

ثامنها: فهم الأقوال الصادرة من كلّ موجود في العالم وإدراك كلماته المعنوية،كلّ حسب لسانه الخاصّ فيما يخصّ وحدانية خالقه وربوبية مبدعه.

تاسعها: إدراك درجات القدرة الإلهية والثروة الربانية المطلقتين، بموازين العجز والضعف والفقر والحاجة المنطوية في نفسك أهـ.

ويلاحظ النورسي نفسه وجود تداخل في هذه الوظائف، فيعود إلى صياغتها وإجمالها لتندرج في ثلاث وظائف جامعة، هي:

تنظيم جميع أنواع النعم المبثوثة في الكائنات بالإنسان، وربطها بأواصر المنافع التي تخصّه، كما تنظّم خرز المسبحة بالخيط، فتربط الإنسان بما يشبه فهرسا لأنواع ما في خزائن الرحمة الإلهية وأنموذجا لمحتوياتها.

كون الإنسان موضع خطابه سبحانه بما أودع فيه من خصائص جامعة أهلته ليكون موضع خطابه، ومقدّرا لبدائع صنائعه ومعجبا بها، ونهوضه بتقديم آلاء الشكر والثناء والحمد الشعوري التام، على ما بسط أمامه من أنواع النعم والآلاء العميمة.

كون الإنسان مرآة عاكسة لتجليات اسمي الله "الحيّ القيّوم" ولصفاته الجليلة، بمعنى أنّ الإنسان يؤدّي مهمّة إراءة كمالات صفات بارئه سبحانه بما لديه من صفات ناقصة مظلمة فهو يدرك قدرة خالقه بما هو عليه من عجز مطلق، ويدرك رحمة خالقه بما لديه من فقر. وإنّ الإنسان بما لديه من إرادة جزئية وعلم قليل، وقدرة ضئيلة، وقابلية على إعمار بيته بنفسه يدرك خالق الكون العظيم، ويفهم مدى مالكيته الواسعة، وعظيم إتقانه، وسعة إرادته وهيمنة قدرته وإحاطة علمه. وبما أنّ الإنسان فهرس مصغّر للكون بما يملك من صفات جامعة فتجليات الأسماء الإلهية في الكون نراها تتجلى في الإنسان بمقياس مصغر،[٢٣٣] فحاجة الإنسان ملحّة إلى الأسماء الحسنى؛ وذلك لماهية الإنسان العالية وفطرته الجامعة.[٢٣٤]

هذه المهامّ والوظائف المتنوعة المتوازنة الجامعة بين المعرفة والعبادة والعمارة، تنمّ عن تفكير عميق يستند إلى خلفية فلسفية صوفية تسعى للوصول بالإنسان إلى الكمال، ولا يتأتى ذلك للإنسان إلا إذا كان فاعلا بطريقة إيجابية -على وفق هداية الوحي- في هذا الوجود، ومتفاعلا مع كلّ مظاهره، ولا يكون كذلك إلا إذا قام في سلوكه بهذه الوظائف عن تصوّر ومعتقد صحيح.

هذا التفصيل في بيان مهامّ الإنسان ووظائفه ليس فقط ليواجه به الموجة الإلحادية التي عصفت بالعالم الإسلامي، بل ليبيّن موقع هذا الإنسان في الوجود، وأنّه أشرف مخلوق فليحدث عملية التغيير، وليعرج في سلّم الكمال إلى أرقى الدرجات. إنّه لا بدّ من أن يستيقظ الإنسان من غفلته ويصحو من نومته، ليعلم حقيقة وعظمة ما يعيش من أجله من سموّ في الهدف والغاية والمهمّة، وبإنجاز ذلك كلّه يتحقّق التكريم، ويرقى الإنسان إلى ذروة الكمال.

أقول: هذا المظهر من مظاهر التكريم لم يعهد في كلام كثير من العلماء والباحثين مثله بهذا العرض والتفصيل، ويعدّ مظهرا من مظاهر الإبداع في فكر النورسي رحمه الله.

---

(٢٣٣) انظر: اللمعات، ص ٥٩٤-٥٩٦. والكلمات، ٨٢٨-٨٢٩.

(٢٣٤) الكلمات، ص ٧٦٨.

المبحث الثالث

التكريم بالنبوّة

تعدّ بعثة الأنبياء والمرسلين -صلوات الله عليهم- عبر الأزمنة والعصور عنوان عناية وتكريم إلهي للإنسان؛ إذ لم يترك الله تعالى الإنسان تتخبط به الظنون والشكوك، وتهيمن عليه الخرافات والأوهام، ولم يتركه نهبا للأساطير والخزعبلات تعبث به كيف تشاء؛ لذلك كرّمه برسل ينيرون له الطريق لئلا يضلّ فيشقى، ويبصرونه بالهداية لئلا يعمى فيردى أو يتردّى.

ويحاول النورسي بيان كون النبوّة لبني الإنسان ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، لقصور العقل البشري عن بلوغ مرتبتها، وعجزه عن تحقيق هداياتها، واتّخذ حديثه عنها طابع "المطلق والنسبي" ويولي النسبي أهمية في البيان كبيرة، أعني أنّه تحدّث عن أهمية النبوّة بإطلاق، ثمّ تحدّث عن أهمية بعثة محمّد ﷺ على وجه الخصوص، في حين أنّ موضوع التكريم الإلهي للإنسان يتحدّث عن الإنسان كلّ الإنسان على وجه الأرض كلّها منذ بعثة آدم عليه السلام. وسبب ذلك أنّ نبوّة محمّد ﷺ هي النبوّة الخاتمة التي تأصّلت بها أسس تكريم الله الإنسان وتقعّدت، وهي النبوّة التي وضعت خريطة رقيّ الإنسان ليحلّق في سماء الكمال والرّفعة والتكريم فيصل إلى ذروته، بل لقد حقّقت هذه النبوّة ذروة الكمال والتكريم في شخصه ﷺ.

فالنبوّة عند النورسي تعدّ "معدن نظام البشرية المادي والمعنوي، ومركز انتظام أحوال كثير من الأنواع التي ضمتها تحت تصرفها قوة العقل.. هذه النبوة المطلقة برهانها: رقيّ الإنسان على الحيوانية في ثلاث نقاط:[٢٣٥]

النقطة الأولى: ضعف أو قصور قابلية الإنسان العلمية والتركيبية، ومعرفته الحاصلة من تحليله مركبات بذور كمالات الإنسانية إلى بسيطات، وإرجاعها إلى أصلها.. وقدرته على محاكاة الطبيعة، ومساوقة نواميس الله الجارية في الكون بصنعته ومهارته، كل هذا يبيّن قصور نظر الإنسان في صنعته، وزحمة

(٢٣٥) انظر: صيقل الإسلام، ص ١٣٦-١٣٨.

الأوهام عليه، وافتقاره في جبلّته الإنسانية.. ممّا يدله على حاجته الماسّة إلى نبيّ مرشد، يحافظ على موازنة النظام المتقن في العالم.

النقطة الثانية: هي استعداد الإنسان غير المتناهي، وآماله ورغباته غير المحصورة، وأفكاره وتصوراته غير المحدودة، وقوّته الشهوية والغضبية غير المحددّة... هذا الإنسان لا تشبعه إلا السعادة الأبدية المكنونة في صدف الحشر الجسماني، وهو مما جاءت تقرّره النبوّة.

النقطة الثالثة: اعتدال مزاج الإنسان، ولطافة طبعه، وميله إلى الزينة، أيّ ميله الفطري إلى العيش اللائق بالإنسانية. نعم! إنّ الإنسان لا يعيش عيش الحيوانات، ولا يسعه ذلك فهو محتاج لتحصيل حاجاته في مأكله وملبسه ومسكنه إلى تلطيفها وإتقانها بصنائع جمة، لا يقتدر هو عليها، بل لا بدّ من تعاونه مع بني الإنسان، وهذا يحتاج إلى قانون أكمل ونظام أشمل... فإذا علمت هذه الجهات الثلاث من تمايز الإنسان عن سائر الحيوانات أنتج لك بالضرورة: أنّ النبوّة المطلقة في نوع البشر قطب بل مركز ومحور تدور عليه أحوال البشر.

ويتحدّث النورسي عن شأن وقيمة النبوّة نبوّة محمّد ﷺ وما لها من دلالة على تكريم الإنسان في هذه المرحلة الأخيرة من عمر البشرية، فقد بيّن أنّ الإنسان قد ترقّى بها من حضيض الحيوانية الذي هوى إليه بعجزه وفقره وبعقله الناقل لأحزان الماضي ومخاوف المستقبل، ترقّى إلى أوج الخلافة بتنوّر ذلك العقل والعجز والفقر، فانظر كيف صارت أسباب سقوطه من عجز وفقر وعقل أسباب صعوده بسبب تنوّرها بنور هذا الشخص النوراني[٢٣٦]، ولو لم يوجد ذلك الشخص لسقطت الكائنات والإنسان وكلّ شيء إلى درجة العدم، لا قيمة لها ولا أهمية.[٢٣٧]

لقد أراد النورسي أن يوظّف كلّ معارفه الصوفية الإشراقية والكلامية الفلسفية في تصوير أهمية النبوّة وقيمتها في الحياة الإنسانية، ويخصّ نبوّة محمّد

(٢٣٦) يقصد النورسي بذلك أنّ أعظم مخلوق يجلّى فيه النور الإلهي هو محمّد ﷺ، وهو أصل شجرة الخلقة ونواتها.

(٢٣٧) انظر: المكتوبات، ص ٢٦٠.

ﷺ بالذكر لأهميتها في هذه المرحلة من حياة الإنسان، وهو آخر عهد للإنسان بالرسالات الإلهية، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ، ولذلك أنهت عامل الزمن الذي ارتبطت وتحددت به النبوات والرسالات السابقة، فكانت رسالة كل إنسان على وجه الأرض، وكانت ممتدة في الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

١. أثر النبوّة على الطبيعة الإنسانية

يظهر من كلام النورسي أنّ من مظاهر تكريم الله للإنسان ما جبلت عليه طبيعته من آمال وطموحات تفوق ما لدى سائر الكائنات، وما للنبوّة من أثر في ترشيدها، فيذكر أنّ الإنسان خُلق ممتازاً ومستثنى من جميع الحيوانات بمزاج لطيف عجيب، أنتج ذلك المزاج فيه ميلَ الانتخاب وميلَ الأحسن وميلَ الزينة، وميَلاناً فطرياً إلى أن يعيش ويحيى بمعيشة وكمال لائقين بالإنسانية.. ثم لأجل تلك الميول احتاج الإنسان في تحصيل حاجاته في مأكله وملبسه ومسكنه إلى تلطيفها وإتقانها بصنائع جمة لا يقتدر هو بانفراده على كلها. ولهذا احتاج إلى الامتزاج مع أبناء جنسه ليتشاركوا، فيتعاونوا، ثم يتبادلوا ثمرات سعيهم. لكن لمّا لم يحدد الصانعُ الحكيم قوى البشر الشهوية والغضبية والعقلية بحدٍّ فطريّ لتأمين ترقّيهم حصل انهماك وتجاوز.. ثم لانهماك القوى وتجاوزها تحتاج الجماعة إلى العدالة في تبادل ثمرات السعي.. ثمّ لأنّ عقل كلّ أحد لا يكفي في درك العدالة احتاج النوع إلى عقل كلي للعدالة يستفيد منه عقل العموم. وما ذلك العقل إلاّ قانون كليّ، وما هو إلاّ الشريعة... ثمّ إنّ العبادة لتوجيه الأفكار إلى الصانع الحكيم. والتوجّه لتأسيس الانقياد. والانقياد للإيصال إلى الانتظام الأكمل والارتباط به. واتّباع النظام لتحقيق سر الحكمة. والحكمة يشهد عليها إتقان الصنع في الكائنات.[٢٣٨] فالإنسان بعيش في عالم تسوده الحكمة والإتقان، فأداؤه الحسن، وتفاعله الإيجابي مع مقررات الوحي والنبوّة يحقّق للإنسان إنسانيته، ومن ثمّ تكريمه. ولا يغفل النورسي عن بيان أنّ الفوضى التي يعيشها العالم اليوم هي بسبب ابتعاده عن الحقّ أو التفاعل مع هداية الوحي المنزّل على محمّد ﷺ.

---

(٢٣٨) انظر: إشارات الإعجاز، ص ١٤٧-١٤٨.

ويصف النورسي حدث "المعراج" في حياته ﷺ بأنّه أعظم نعمة وهديّة وتكريم؛ إذ من خلاله يمكن الوصول إلى عرش الكمالات الإنساني، أيّ: بتعليمه وإرشاده ﷺ يمكن الوصول إلى أرفع منزلة ومقام لائقين بتكريم الإنسان، يقول النورسي: "إنّ الإنسان ثمرة قيّمة من ثمرات الكائنات جليل القدر، ومخلوق مكرّم محبوب لدى الصانع الجليل. هذه الثمرة الطيبة أتى بها الرسول الكريم ﷺ بالمعراج، هديّة إلى الجن والإنس، فرفعت تلك الثمرة الإنسانَ من كونه مخلوقاً صغيراً وحيواناً ضعيفاً وذا شعور عاجز إلى مقام رفيع ومرتبة عالية، بل إلى أرقى مقام عزيز مكرّم على جميع المخلوقات. فمنحت هذه الثمرة الإنسانَ من الفرح والسرور والسعادة الخالصة ما يُعْجَز عن وصفه".[٢٣٩]

٢. التكريم باتّباع السنّة

يؤكد النورسي هذه الحقيقة ببيان أهمية السنّة النبوية المطهرة، وضرورة الإقتداء بصاحبها ﷺ، ويذكر أنّ أسمى مقصد للإنسان، وأعلاه هو أن يكون أهلا لمحبّة الله، وذلك باتّباع حبيب الله والإقتداء بسنّته المطهّرة[٢٤٠] تصديقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(آل عمران:٣١).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾(هود:١١٢) يتحدّث عن النبيّ ﷺ الذي هو أكمل إنسان، وأكمل قدوة ومرشد، وما دام ملايين من أهل الكمال قد سموا في مراتب الكمالات، وترقّوا فيها بثمرات اتّباعه فوصلوا إلى سعادة الدّارين، فلا بدّ أنّ سنتّه ﷺ هي أفضل نموذج، وأكمل مرشد للاتّباع والسلوك، وأحكم دستور، وأعظم قانون يتخذه المسلم أساسا في تنظيم حياته، ومن لم يتبع السنّة فهو في خسران مبين[٢٤١] فجعل الكمال مرتبطا باتخاذه قدوة وعنوان تكريم عظيم للإنسان.

هكذا، يعدّ النورسي النبوّة مظهرا مهمّا من مظاهر تكريم الله للإنسان، إذ من خلالها يسير العقل على هدى وبصيرة، ومن خلالها أيضا تنكشف الحقائق

(٢٣٩) الكلمات، ص ٦٩٨. وانظر: اللمعات، ص ٩١.

(٢٤٠) انظر: اللمعات، ص ٩٠-٩١.

(٢٤١) انظر: المكتوبات، ص ٥٩٣.

الكبرى له، فيعلم ما لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات. وبذلك تكتمل مهامّ الإنسان في تحقيق الخلافة والعمارة في الأرض.

المبحث الرابع

التكريم بالعبادة

الكمال الإنساني لا يتمّ إلا بالاستجابة لما شرع الله تعالى للناس في كتابه من البيّنات والهدى والفرقان، وما جاء على لسان رسوله ﷺ عملا بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(الحشر:٧)، فهذا هو طريق الوصول إلى ذلك الكمال، يؤكد النورسي هذا المعنى ويبيّن أنّ طريق وصول الإنسان إلى مرتبة الكمال لا يتمّ إلا بالتوجّه القلبي الدائم إلى الله تعالى في سيره وسلوكه، وحين يهتمّ بسموّه الروحي التي تسمو بها حياته المعنوية، أيّ: الوصول إلى مرتبة الإيمان الحقّ، والتحقّق بحقيقته لا بالوقوف عند صورته. ثمّ أن يكون هذا الإنسان عبدا خالصا لربّ العالمين، وموضع خطابه الجليل، وممثلا عن الكائنات من جهة، ووليا لله وخليلا له، حتى كأنّه مرآة لتجلياته سبحانه من جهة أخرى. وهكذا يطير بجناحي الإيمان والعمل بالشريعة إلى المقامات العليا، والتطلّع من هذه الدنيا إلى السعادة الأبدية، بل الدّخول فيها.[٢٤٢]

وهذا يقتضي -في نظر النورسي- إعمال كلّ نص في القرآن الكريم يربط بين الإيمان والعمل الصالح، بسبب ارتباط التكريم به، وكلما كان التفاعل إيجابيا مع هذه النصوص سما الإنسان في علياء التكريم والكمال، أما التفاعل السلبي أو عدم التفاعل فسيهبط بالإنسان إلى دركات الحيوانية.

"هذا الجهاد النفسي هو الفرصة الثمينة التي يتمكن الإنسان فيها من التسامي والتصاعد المستمر نحو الاكتمال بما يقمع من نوازع الهبوط فيه، وبما يكتسب من معاني الإنسانية علما وعملا. والتسامي والتصاعد في سلّم الإنسانية نحو الاكتمال له من الثمرات ما يجعل نفس الإنسان تمتلئ بهجة واستشرافا إلى الخير المطلق كما تمتلئ عزما على الفعل، إذ تصبح الحياة للمجتمع المستشرف

(٢٤٢) انظر: المكتوبات، ص ٥٩٣.

ذات قيمة دافعة إلى الاستثمار، وذات أمل محفز إلى العمل الدّؤوب".[٢٤٣]

ويؤكد النورسي أنّ التكريم يقتضي تحقيق إنسانية الإنسان باستجابته للّهداية القرآنية، ويبيّن -على سبيل المثال- قيمة الصلاة وضرورتها بالنسبة إلى كمال الإنسان، فيقول: "إنّ الصلاة دعوة صانع الأزل إلى سرادق حضوره خمس دعوات في اليوم والليلة لمناجاته التي هي في حكم المعراج، فمن شأنها أن يشتاقها كلّ قلب.. وفيها إدامة تصوّر عظمة الصانع في القلوب وتوجيه العقول إليها لتأسيس طاعة قانون العدالة الإلهية، وامتثال النظام الرباني. والإنسان يحتاج إلى تلك الإدامة من حيث هو إنسان لأنّه مدنيّ بالطبع.[٢٤٤] وهذا يعني أنّ الدوام على الطاعة يحقّق الانتظام في حياة الإنسان على وفق قانون العدالة الإلهية، وهذا ما يبعث على استقرار حياته في سكينة وأمان، فلا يكون الإنسان بترك العبادة عرضة أن يحلّ عليه عذاب الله وسخطه، وهو ما يظهر بيانه في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد:٣١).

والعبادة -بوجه عام- عنوان الترقّي والكمال الإنساني، "إنّ الإنسان كالمَلَك في كلية العبادة، وشمول النظارة، وإحاطة المعرفة، ودلاّلية الربوبية، بل أجمع منه. إلاّ أنّ له نفساً شريرة مشتهية، فله ترقّيات وتدنيّات".[٢٤٥] وهذه إشارة من النورسي إلى ضرورة مجاهدة أهواء النفس ما دام الإنسان بطبيعته وفطرته يسعى نحو الترقّي والكمال.

ويتسع مفهوم العبادة عند النورسي ليشمل العمل على وفق سنّة التدافع والمجاهدة، وهو مما يتطلبه رقي الإنسان، وفي هذا السياق يذكر النورسي أنّ الإنسان يتّبع قانون التدافع والمبارزة اتّباعا شديد الغرابة، حيث يفتح أمامه باب المجاهدة التي يدور عليها رقيّ جميع الكمالات الإنسانية وتكاملها[٢٤٦] لأنّ في المجاهدة انتصارا على النفس الأمّارة التي تدسّ الإنسان في مستنقع الرذيلة،

(٢٤٣) النجار، عقيدة تكريم الإنسان وأثرها التربوي، مرجع سابق، ص ١٢٢.

(٢٤٤) إشارات الإعجاز، ص ٥٣.

(٢٤٥) المثنوي العربي النوري، ص ٤٧٩.

(٢٤٦) انظر: اللمعات، ص ١٤٥.

فبتلك المجاهدة يسمو الإنسان ويرقى في سلّم التكريم.

ويعدّ النورسي العبادة أفضل ما تثمره حياة الإنسان، وتشريعها يلبي مطالب الروح، بل إنّ النفس الإنسانية تعشق العبادة، لأنّها من ضروراتها الفطرية، "إنّ الخالق الحكيم العليم سبحانه، قد خلق هذا الكون بمنزلة شجرة، وجعل أرباب الشعور ثمارها الكاملة، وكرّم الإنسان بوصفه أجمع ثمرة لأرباب المشاعر، وجعل الشكر والعبادة أفضل ما تثمره حياة الإنسان، بل هما -الشكر والعبادة- نتيجة خلقه وغاية فطرته وثمرة حياته.[٢٤٧]

أثر العبادة في نفسية الإنسان

وللإيمان والعبادة في هذه الحياة أثر لا يخفى على نفسية الإنسان، فهما يورثان الطمأنينة والسكينة، ويبعثان على الاستقرار النفسي. يذكر النورسي ذلك ويبيّن أنّ أثر الإيمان بالله ينعكس على نفسية العبد، فالذي لا يعرف الله تعالى يحمل فوق رأسه هموما وبلايا بسعة الدنيا وما فيها، ولكنّ الذي عرف ربّه تمتلئ دنياه نورا وسرورا معنويا[٢٤٨] فالإيمان والعبادة من أعظم الأسباب التي تورث الإنسان السعادة الحقيقية والراحة الكبرى، وترقّي الإنسان إلى هذا النوع من الحياة مظهر له يليق بإنسانيته.

ومن الآثار الاجتماعية المترتبة على ممارسة العبادة أنّ المؤمنين يكونون كالبناء المرصوص؛ يستفيد بعضهم من بعض أكثر مما يستفيد المؤمن من عمل نفسه، وبالإيمان يصير كلّ لكلّ، فيتلذذ كلّ فرد بسعادات سائر إخوانه كتنعم الأم الجائعة بلذّة ولدها، والأخ الشفيق بسعادة شقيقة حتى يصير هذا الإنسان الفاني مستعدّا لعبودية خالق الكائنات، وقبول السعادة الأبدية.[٢٤٩] فالعبادة -إذن- من الحقوق العامّة للمجتمع، فقيام الفرد بها يؤدّي إلى استفادة المجتمع كلّه، وإن تركها يجعل الجماعة كلّها مسؤولة[٢٥٠] لما لتركها من آثار سيّئة على صفو المجتمع واستقراره.

---

(٢٤٧) المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٨.

(٢٤٨) نفسه، ص ٣٢٢.

(٢٤٩) انظر: المثنوي العربي النوري، ص ٤٠٦-٤٠٧.

(٢٥٠) انظر: اللمعات، ص ٨٦-٨٧.

ويذكر النورسي عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة:٢١) أنّ المقصد من خلقكم وكمالكم الذي هيّئ له استعدادكم هو التقوى، فهي الكمال الذي تتوجّهون إليه[٢٥١] إنّ التقوى التي "هي التخلّي عن السيّئات، قد ذكرها القرآن بمراتبها الثلاث، وهي: ترك الشرك، ثم ترك المعاصي، ثم ترك ما سوى الله. والتحلية فعل الحسنات: إما بالقلب أو القالب أو المال"[٢٥٢] فالتقوى قد جعلها القرآن من أعظم مظاهر الإيمان، فهي تشمل كلّ أنواع العبادة، وتضفي الشمول على مفهومها. هذا فضلا عن كونها أساس المفاضلة والتكريم بين الناس، ومعيار القرب من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣).

إنّ تحقيق العبودية لله عنوان عزّة وتكريم للإنسان، ولا ينبغي لمن أراد العبودية الخالصة لربّ العالمين أن يذلّ نفسه فيكون عبدا للعبيد.[٢٥٣]

إنّ شأن العبادة وقيمتها وموقعها في سلّم التكريم الإلهي للإنسان جليل وعظيم، هذا فضلا عن اتساع مفهومها من حيث شموله لدائرتي السنن الإلهية وعالم الأسباب.

المبحث الخامس

التكريم بالتسخير

ما أنعم الله به على الإنسان ممّا لا يعدّ ولا يحصى، وما سخّر له ممّا في السموات والأرض، يعدّ مظهرا من مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان، وتكميلا للحياة الإنسانية على صورة تجعل القيام بأعباء الرسالة، رسالة الوجود التي تحمل عنوان الخلافة والعبودية وعمارة الأرض سهلا ميسورا.

---

(٢٥١) انظر: إشارات الإعجاز، ص ١٥٧، والملاحق، ص ١٦٨- ١٦٩. والمثنوي العربي النوري، ص ١٨٣.

(٢٥٢) إشارات الإعجاز، ص ٥٠.

(٢٥٣) انظر: صيقل الإسلام، ص ٥٣١.

ومن الآيات القرآنية التي تشير إلى تسخير ما في السموات والأرض ينطلق النورسي لبيان كون التسخير مظهرا من مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان، فتجده يربط بين الخلافة والتسخير، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠) على أنّ أعظم النعم هي كون البشر نتيجة للخلقة، وكون جميع ما في الأرض مسخّراً له يتصرف فيها على ما يشاء، ولذلك فإنّ البشر خليفة الأرض وحاكمها.[٢٥٤] فكأنّ القيام بالخلافة يتطلب قانونا عاما في التسخير يمكّن الإنسان من أداء مهامّه، وتحقيق أهدافه وغاياته.

ويحاول أن يبيّن أنّ التسخير الذي هو عنوان رقيّ وتكريم، ينبغي أن يقود إلى العبادة التي هي رقيّ وتكريم للإنسان، لتتصل كلّ حلقات التكريم ببعضها، وذلك بالتوجّه إلى الله سبحانه بالعبادة والشكر والانقياد والطاعة، فيقول: "أيّها الإنسان! إنّ الذي سخر لك الأرض والسماء يستحق أن تعبده.. وهذا إيماء إلى فضيلة البشر وعلوّ قيمته وكرامته عند الله، كأنّه يقول: إنّ الذي أكرمكم بأن هيّأ الأجرام العلوية والسفلية بعظمتها لاستفادتكم، لا بدّ أن تظهروا لياقتكم للكرامة بعبادته[٢٥٥] ويقصد النورسي بهذا أن يردّ على المدنية الحديثة التي استفادت أعظم استفادة من قانون التسخير دون أن تربطه بمفهوم "الخالقية" أو مفهوم "العبودية" لذلك جرّ هذا الاستخدام العابث لقانون التسخير إلى تدمير الأرض، وتلويث البيئة، بل إهدار الكرامة الإنسانية ابتغاء مصالح عاجلة، ومنافع فانية لفئات قليلة من البشر المتسلطين.

ويبيّن أنّ هذه الآيات الكونية المسخّرة التي تسير في انتظام كامل تدلّ على عظمة ربوبيته، وأبّهة ألوهيته جلّ جلاله، ويقول مخاطبا الإنسان: قس بنفسك مدى السعادة السامية، ومدى الشرف العظيم في العبودية لهذا المليك الجليل، والانتساب إليه بالإيمان، والضيافة على مائدة إكرامه وإفضاله،[٢٥٦] فالله سبحانه يدعو الإنسان إلى هذه المائدة الكونية؛ ليعرف عظمته وخالقيته لهذا الوجود.

---

(٢٥٤) انظر: إشارات الإعجاز، ص ٢٣٣. والمثنوي العربي النوري، ص ٣٦٣-٣٦٤.

(٢٥٥) إشارات الإعجاز، ص ١٦١.

(٢٥٦) المكتوبات، ص ١٩.

ويعبّر عن الصلة بين تكريمه بما سخّر له، وبين ما يوجبه هذا التسخير من عبادة، وكيف يؤدّي ذلك إلى تميّزه، فيقول: "إنّ للإنسان قيمة عالية بدليل أنّ السموات والأرض مسخّرة لاستفادته. وكذا إنّ له أهمية عظيمة بدليل أنّ الله لم يخلق الإنسان للخلق بل خلق الخلق له. وإنّ له عند خالقه لموقعا بدليل أنّ الله تعالى لم يوجد العالم لذاته بل أوجده للبشر وأوجد البشر لعبادته، فأنتج أنّ الإنسان مستثنى وممتاز[٢٥٧] عن سائر المخلوقات تصديقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (البقرة:٢٩) يقول: "لقد أثبت سبحانه للبشر أعلى المراتب، وهي الرجوع إليه تعالى. أين لهذا الإنسان الذليل استعداد لهذه المرتبة العالية إلاّ أن يكون بفضله تعالى وجذبه؟ فكأنّ هذه الجملة تقول مجيبة عن ذلك السؤال إنّ للإنسان عند خالقه الذي سخّر له جميع الدنيا لموقعا عظيما.[٢٥٨]

إنّ دائرة التسخير أو قانون التسخير يجعل استفادة المؤمن منه كبيرة جدّا، في حين أنّ أهل الضلالة تتصاغر دائرة استفادتهم منه، وتكون مقصورة على دائرة اللذائذ المادية المنغصة بزوالها، وبنور الإيمان تتوسّع دائرة الاستفادة لتحيط بالسّموات والأرض بل بالدنيا والآخرة، لذلك كانت آيات التسخير إحسانات إلهية خارقة ناشئة من الإيمان،[٢٥٩] وهذا ما يتناسب مع تكريم الله للإنسان الخليفة في الأرض.

---

(٢٥٧) إشارات الإعجاز، ص ٢٢٢.

(٢٥٨) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٧.

(٢٥٩) انظر: اللمعات، ص ٤٦٩.

المبحث السادس

التكريم بالمصير الأخروي[٢٦٠]

لقد وقف القرآن الكريم بالمرصاد لكل فكر إلحادي دهري أو مادي يريد أن يجلّل الحياة الإنسانية بالسواد، ويخلع عليه ثوب البؤس والشقاء، ويسير بها إلى العدم والظلام، بل يقودها إلى فوضى وعبثية لا حدّ لها؛ مما يجعل حياة الإنسان فيها حياة طافحة بالذّل والإهانة، لأنّ التكريم مبدأ أساس في حياة الإنسان، وهذا الإنسان أراد الله له حياة سعيدة عزيزة كريمة ليس في الدنيا فحسب، ولكن في الدّار الآخرة كذلك.

لقد ابتدأت حياة الإنسان منذ خلق بالتكريم، واختتمت رحلته في هذه الحياة -كذلك- بالتكريم، إنّه تكريم بمصير يهنأ فيه بالخلود، ويحظى فيه بالنعيم الأبدي. هذا المصير -في نظر النورسي- تفرضه الطبيعة الإنسانية والرحمة الإلهية، وقانون العدالة الرباني.

لقد هيّأ الله تعالى الإنسان إلى عالم الخلود، وأعدّ له هناك نعيما مقيما ونزلا كريما، فهو لن يصير إلى عبث ولا إلى عدم، وفي هذا تكريم عظيم له. يتحدّث عن كونه مطلبا تفرضه الطبيعة الإنسانية، فيقول: "إنّ هذه الدنيا الضيّقة لا تسع ولا تلائم نموّ وتزاهر ما أودع في جوهر البشر من استعدادات غير محدودة، وميول ورغبات مخلوقة للأبد. لذا يبعث إلى عالم آخر كي تُربّى وتكمل تلك الميول والاستعدادات.

إنّ جوهر الإنسان جليل، وماهيته رفيعة، وجنايته كذلك عظيمة وطاعته وانقياده مهمة، فهو لا يشبه سائر الكائنات، لذا لا يمكن أن لا ينتظم مع الكائنات ولا ينقاد للأوامر. نعم! إنّ المرشح للأبد عظيم، لن يُترك سدى، ولا يكون عبثاً، ولا يحكم عليه بالفناء المطلق، ولا يهرب إلى العدم الصرف.. بل جهنم فاغرة فاها، والجنة قد فتحت ذراعيها اللطيفتين لاحتضانه".[٢٦١]

---

(٢٦٠) سيأتي الحديث مفصلا عن الآخرة وبيان النورسي لها، وما لها من أبعاد معرفية وتربوية في الفصل الرابع.

(٢٦١) صيقل الإسلام، ص ٥٥.

إنّ الإنسان ليس مجرد جرم صغير، ولكنه عالم وحده يمتدّ باستعداداته إلى عالم آخر، ويجلّي النورسي هذا العالم بعدم تناهي استعدادات البشر، فيقول: "نعم! إنّ تصورات البشر وأفكاره التي لا تتناهى، المتولّدة من آماله غير المتناهية، الحاصلة من ميوله غير المضبوطة، الناشئة من قابلياته غير المحدودة، المستترة في استعداداته غير المحصورة، المزروعة في جوهر روحه الذي كرّمه الله تعالى؛ كلّ منها يشير في ما وراء الحشر الجسماني بإصبع الشهادة إلى السعادة الأبدية وتمدّ نظرها إليه".[٢٦٢]

والخلود في الآخرة من أسمى ما يطمح إليه الإنسان، فهو "لا يرضى إلاّ بالأبد والأبدي، ولا يتوجّه إلاّ إلى ذلك الخالد، ولا يتنزّل لما سواه؟ حتى إذا ما أعطيت له الدنيا كُلّها، فلا تُطَمئن تلك الحاجة الفطرية.. تلك هي سلطان لطائفك ومشاعرك.. فأطع سلطان لطائفك المطيع لأمر فاطره الحكيم جلّ جلاله، وانجُ بنفسك"[٢٦٣] أيّها الإنسان!

إنّ "في فطرة الإنسان عشقا شديدا نحو البقاء، حتى أنّه يتوهّم نوعاً من البقاء في كلّ ما يحبه، بل لا يحبّ شيئا إلاّ بعد توهّمه البقاء فيه، ولكن حالما يتفكر في زواله أو يشاهد فناءه يطلق عليه الزفرات والحسرات من الأعماق. نعم! إنّ جميع الآهات والحسرات الناشئة من أنواع الفراق، إنّما هي تعبيرات حزينة تنطلق من عشق البقاء، ولولا توهّم البقاء لما أحبّ الإنسان شيئا".[٢٦٤] لذلك لبّى هذا النداء الشعوري في الإنسان، وأكرمه بالبقاء الأخروي.

ويستثمر النورسي هذا الإحساس الفطري الصادق لدى الإنسان ليوثق صلته بالله، فيقول: "وما دام الإنسان عاشقاً للبقاء، فلا بدّ أنّ جميع كمالاته وأذواقه تابعة للبقاء أيضا. ولمّا كان البقاء صفة خاصة للباقي ذي الجلال، وأنّ أسماءه الحسنى باقية، وأنّ المرايا العاكسة لتجليات تلك الأسماء تنصبغ بصبغتها وتأخذ حكمها، أيّ: تنال نوعا من البقاء، فلا بدّ أن ألزم شيء لهذا الإنسان، وأجلّ وظيفة له هو شدّ الأواصر، وربط العلاقات مع ذلك الباقي ذي الجلال،

---

(٢٦٢) إشارات الإعجاز، ص ٦٣-٦٤.

(٢٦٣) اللمعات، ص ١٧٤.

(٢٦٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣.

والاعتصام التامّ بأسمائه الحسنى، لأنّ ما يُصرف في سبيل الباقي ينال نوعا من البقاء. هذه الحقيقة.. تضمّد جراح الإنسان المعنوية الغائرة، كما تطمئن رغبته الملحة للبقاء المودعة في فطرته".[٢٦٥]

ويؤكد حقيقة التكريم، وما يستوجبه من وجود العدالة القاضية بوجود الجنّة وجهنّم، بقوله: "ما دام البشر أفضل نتيجة منتَخبة من الكائنات، وأنّه أكرم مخلوق لدى الخالق الكريم، وأنّ الحياة الباقية تقتضي وجود الجنة وجهنم بالبداهة، فتستلزم المظالم التي ارتكبتها البشرية حتى الآن وجود جهنم، كما تستلزم ما في استعداداته الكمالية المغروزة في فطرته وحقائقه الإيمانية التي تهمّ الكائنات بأسرها وجود الجنة بالبداهة".[٢٦٦]

ويبيّن شأن الإيمان بالآخرة من خلال معرفته بطبيعة النفس الإنسانية، وكيف يفتح عالما فسيحا أمام رغبات الإنسان وآماله، فيذكر أنّ مقام الإنسان الراقي وتفوّقه على سائر الأحياء، إنّما هو لسجاياه السامية، ولاستعداداته الفطرية الجامعة، ولعبوديته الكلية، وعليه فالإنسان المنحصر في الحاضر يكسب سجايا المروءة والمحبّة والأخوة الإنسانية على أساس حاضره الضيّق. ولكنّ الإيمان بالآخرة يجعل ذلك الزمن الضيّق زمانا فسيحا واسعا جدّا بحيث يستوعب الحاضر والمستقبل فيريه وجودا واسعا ممتدّا من الأزل إلى الأبد. إنّ الإيمان بالآخرة كنز عظيم واف كاف لهذا الإنسان الوثيق الصلة بهذه الرغبات والآمال التي لا تنتهي.[٢٦٧]

وهذا الكلام يعدّ تجديدا واضح الحجّة والمنطق في عقيدة تكريم الإنسان عند النورسي رحمه الله!

المبحث السابع

مفسدات التكريم

ما دام الإنسان مؤمنا بالله سبحانه، ومعتزا بطاعته وعبادته، ومهتديا بهدايته،

---

(٢٦٥) اللمعات، ص ٢٣-٢٤.

(٢٦٦) صيقل الإسلام، ص ٥٠٤.

(٢٦٧) انظر: الشعاعات، ص ٢٧٨-٢٧٩.

فهو مخلوق مكرّم يستحقّ أن يكون موضع خطابه سبحانه. بل إنّ الخطاب الإلهي موجّه لهذه الفئة من البشر، كما يذكر النورسي ذلك بقوله: "ما دام الخالق يعلم، فالعالِمُ يتكلم، وحيث إنّه سيتكلم، فسيكون كلامه حتماً مع مَن يفهمه من ذوي الشعور والفكر والإدراك، بل مع الإنسان الذي هو أفضل أنواع ذوي المشاعر والفهم وأجمعهم لتلك الصفات. ومادام كلامه سيكون مع نوع الإنسان، فسيتكلم -إذن- مع مَن هو أهل للخطاب من الكاملين من بني الإنسان الذين يملكون أعلى استعدادا وأرفع أخلاقا، والذين هم أهلٌ لأن يكونوا قدوة للجنس البشري وأئمة له.[٢٦٨]

أقول: هذا من حيث إنّه خطاب تكريمي تشريفي لعنوان ما حملوه من إيمان، أمّا الخطاب التكليفي فهو مخاطب به كلّ إنسان على وجه الأرض، ويمكن أن يستشهد لهذا من هدي القرآن الكريم، فعلى سبيل المثال نجد في القرآن تسعة وثمانين نداء مصدرا بجملة "يا أيها الذين آمنوا" في حين لا نجد إلا خطابا تحذيريا واحدا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(التحريم:٧)، وهذا يوم القيامة. يقول النورسي: "إنّ الإيمانَ يجعل الإنسانَ إنساناً حقاً، بل يجعله سلطاناً؛ لذا كانت وظيفتُه الأساس: الإيمانُ بالله تعالى والدعاء إليه، بينما الكفرُ يجعل الإنسانَ حيواناً مفترساً في غاية العجز".[٢٦٩]

أقول: إذا انتكس الإنسان بكفره، فإنّه يهبط ليتساوى مع البهائم والعجماوات، وبعبارة أخرى أقول: إنّ دوام الإنسان على الطاعة يعني استمرار توشحه بوسام الشرف والتكريم، وإن خلع ثوب الطاعة بالمعصية، والانسلاخ من العفّة والفضيلة يهبط به إلى أسفل سافلين!

في هذا السياق يتحدّث النورسي عن سرّ سموّ الإنسان بالإيمان وانحطاطه بالكفر، وذلك أنّ الإنسان بإيمانه إنّما يرتبط بالله سبحانه وتعالى فيكتسب قيمة سامية من حيث تجلي الصنعة الإلهية فيه. أمّا الكفر فيقطع تلك النسبة وذلك

(٢٦٨) انظر: المكتوبات، ص ١١٣-١١٤.

(٢٦٩) الكلمات، ص ٣٥٤.

الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية، وتطمس على معالمها، فتنتقض قيمة الإنسان حيث تنحصر في مادته فحسب.[٢٧٠]

ويبيّن النورسي أنّه بالإيمان تزداد قيمة الإنسان إلى أن تصير الجنة ثمنه، وتكون الخلافة رتبته، ويطيق حمل الأمانة، إنّ الإيمان إكسير يقلب فحم المادّة الفانية ألماسا مصنّعا مرصّعا باقيا بمعناه بنسبته إلى الصانع الباقي، والإنسان بالكفر يعكس فينتكس.[٢٧١]

ومن هذا الجانب يردّ على من يستكثر عدد الكفار مما يؤذن بعلوّ قيمتهم، بقوله: "إنّ القيمة ليست في الكمية، إذ الإنسان إذا لم يصر إنساناً انقلب حيواناً شيطاناً، لأنّ الإنسان إذا ترقّى في الاحتراصات الحيوانية كالمنكرين للأديان، فهو أشدّ حيوانية. وأنت ترى كثرة كميات الحيوانات بلا حدّ وقلّة الإنسان مع أنّه هو الخليفة. ثم إنّ الإنكار نفي، وألفُ نافٍ لا يرجّحون على اثنين من أهل الإثبات".[٢٧٢]

ويبيّن النورسي أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠) لا يتضاد مع قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(الأحزاب:٧٢)، فالله سبحانه لم يحدّد قوى الإنسان ورغباته بحدود وقيود فطرية، بل جعلها حرة طليقة... بمعنى إنّ كلّ قوّة من قوى الإنسان تتجول في ميدان فسيح واسع جداً، لا تتناهى، لأنّ الإنسان مرآة لتجليات لا نهاية لها لأسماء ربّ العالمين، لذا فقد منحت قواه استعداداً لا نهاية لها. وربما يجهل الإنسان فيستخدم هذه القوى في غير ما سخّرت له ليهبط بذلك إلى دركات النمارة والفراعنة، وربما تنفتح أمامه درجات الرقي التي لا منتهى لها في الخصال الحميدة حتى بلغ مرتبة الأنبياء والصدّيقين[٢٧٣]

أقول: إنّ مصطلح "تكريم" يقتضي أن ينأى الإنسان بنفسه عن مواطن الإهانة والتحقير مما ورد الشرع بتحريمه، يدلّ لهذا ما ذكره الزمخشري في "أساس البلاغة" وهو: أنّ أجلّ المكارم اجتناب المحارم.[٢٧٤]

---

(٢٧٠) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ٣٤٨.

(٢٧١) المثنوي العربي النوري، ص ٤٤١.

(٢٧٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٢.

(٢٧٣) المكتوبات، ص ٤٢٦-٤٢٧.

(٢٧٤) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر. أساس البلاغة، بيروت: دار صادر، ١٩٧٩، ص ٥٤١.

وعلى مستوى الأخلاق يظهر تكريم الإنسان أو إهانته، فإنّ الإنسان بما فطر عليه يحسّ بفضائل الأخلاق، وإن فطرته -كما يقول النورسي- مجبولة على أن يفضح الكذب ويرفضه،[٢٧٥] وعليه فالكذب مما يخلّ بمروءة الإنسان ويتنافى مع تكريمه.

والنفاق -كذلك- مفسد من مفسدات التكريم عند النورسي، فحين يتحدث عن المنافق يتعجب من كونه إنسانا؛ لأنّ الإنسان مكرّم ليس من شأنه أن يتنزل إلى هذه المستوى من الخسّة، ويذكر أنّ صفة الإنسانية منافية له، إذ الإنسان مكرّم ليس من شأنه الرذالة. إنّ النفاق يخلّ بحيثية كلّ من كان إنساناً فلابدّ أن يتحرك غضب الكلّ عليه، ويتوجه الكلّ إلى تحديده، لئلا ينتشر ذلك السمّ؛ كما يخلّ بناموس طائفة ويهيّج غضبهم شناعةُ فرد منهم.[٢٧٦]

وأخيرا، يبيّن النورسي أنّ فساد الشيء الثمين أشدّ من فساد الشيء الرخيص، والإنسان الذي هو أكرم المخلوقات، بل ذروتها وقمّتها إذا فسد، فإنّ فساده يكون أفسد وأحط من الحيوان الفاسد، فيكون كالحشرات التي تأنس بالعفونة، وتريحها الروائح الكريهة.[٢٧٧]

إنّ الكفر والفسق والنفاق تنقض عهود الفطرة الواردة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف:١٧٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾(الأحزاب:٧٢) يذكر النورسي أنّ القوى والميول المودعة في الإنسان -العقلية والغضبية والشهوية- لم تحدّد في الإنسان، لذلك فإنّ الميل للظلم وحبّ الذات يتماديان كثيرا وبشكل مخيف، فينتج عن الإفراط والتفريط في استخدام القوّة العقلية مرض الحياة النفسية، أمّا القوّة الغضبية فينتج عنها تمزيق الروابط الاجتماعية، وينتج عن القوّة الشهوية

(٢٧٥) انظر: المكتوبات، ص ١٥٩.

(٢٧٦) إشارات الإعجاز، ص ٩٠.

(٢٧٧) انظر: اللمعات، ١٢٦.

ضرر النوع الإنساني وفساد نظام الأرض.[٢٧٨]

لقد استشهد ابن تيمية لهذه القوى الثلاث بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾(الفرقان:٦٨) وبيّن أنّ الكفر يرجع إلى القوّة العقلية، والقتل يرجع إلى القوة الغضبية، والزنا يرجع إلى القوة الشهوية.[٢٧٩] وهو استدلال لطيف.

مما سبق أنّ التكريم له مفسدات تهبط بالإنسان إلى مستوى ينافي مقصد وجوده وغاية ذلك الوجود. بل إنّ هذه المفسدات تلغي وجود الإنسان وتهبط بكيانه إلى مقام مادي ضيّق، وتجعله في الدرك الأسفل من مقامات الإهانة والتحقير.

خاتمة الفصل

وبعد، فقد بيّن النورسي من خلال فهمه لآيات القرآن الكريم مظاهر عديدة لتكريم الله للإنسان، وخلصت هذه القراءة لفكره إلى العديد من النتائج المهمّة التي يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

- يعني التكريم الإلهي الوصول بالإنسان إلى مرتبة عزيزة شريفة يرقى بها من خلال تفاعله الإيجابي مع هداياته إلى منازل الأنبياء، أو الإنسان الرباني الكامل.

- ارتكز معظم بيان النورسي لتكريم الإنسان على خلفية الصراع مع الفكر الغربي الذي أهان الإنسان، وجرّده من أهم أسس تكريمه. وعلى قدر إيغال المدنية الحديثة في تجريد الإنسان من روحانيته والاهتمام بأسباب رقيّه المادي جاء حديث النورسي موغلا في بيان أسباب الرقي المعنوي والروحي، ومبيّنا أنّها من أعظم مظاهر تكريمه. لقد هدف النورسي إلى أن يرسّخ في خلد الإنسان المعاصر الذي أوغل في التفكير المادي، وانخدع ببهرج تقنيات العلم والآلة، ووصل بذلك إلى حدّ العبودية للمادة والإنتاج أنّه مخلوق مكرّم، عليه أن يبحث

(٢٧٨) انظر: صيقل الإسلام، ص ٣٥٤، و إشارات الإعجاز، ص ٢٠٨، ٢١٢.

(٢٧٩) ابن تيميّة، أحمد بن عبد السلام. مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن النجدي، السعودية: الرئاسة العامة لشؤون الحرمين، (بلا تاريخ)، ج ١٥، ص ٤٢٨-٤٢٩.

عن حقيقة نفسه في هذا الوجود، فالتكريم عقيدة تجعل للحياة الإنسانية قيمة واعتبارا، ولها أثر فاعل في نفس الإنسان ووجوده، وعليه أن ينقذها من ظلمات التيه في مستنقع المادية الآسن، وأن يضع حدّا لكل ما يعاني منه من أمراض نفسية واجتماعية وخلقية وسلوكية.

- تميّزت طبيعة الإنسان بجامعية خارقة بما ملكت من استعدادات وقوى وآمال وأفكار وميول، فأصبح الإنسان بها كأنّه فهرس جامع للأنواع والعوالم، بل كان المحور الذي تدور حوله الكائنات، وهو فضلا عن ذلك مرآة تجلّي أسماء الله الحسنى، فالإنسان على هذا مكرّم في مادته خلقه، وطبيعة ذلك الخلق، والموقع الذي تفيّأه بالنسبة إلى جميع الكائنات.

- إنّ المهمّة التي أنيطت به تتناسب مع ذلك الموقع المهمّ الفعال، وتكريمه بما حدّد له من غايات نبيلة وأهداف سامية، ومقاصد شريفة، وأنّه مخلوق مبصر يعلم بكلّ وضوح ماذا يراد له، وماذا يطلب منه. وقد تمثلت هذه الغايات في العلم الذي هو معرفة الله، وتحقيق العبودية له، وفي عمارة الأرض وإنجاز مهمّة الخلافة.

- إنّ في النبوّة تكريما آخر للإنسان فهي ضرورة عقلية، وقد حظيت نبوّة محمّد ﷺ بالمقام الأول في البيان عند النورسي؛ لأنّها رفعت الإنسان إلى أرقى مقام عزيز مكرّم، وعليه فاتّباعه ضرورة لازمة للكرامة الإنسانية.

- كرّم الإنسان بالعبادة الشاملة للاعتقاد والعمل، ولن يحلّق في سماء التكريم إلا بجناحي الإيمان والعمل. وإنّ تحقيق التقوى بمفهومها الجامع مقصد من مقاصد حياة الإنسان. إنّ ثوب العبودية ثوب عزّ وتكريم يبعث على استقرار حياة الإنسان، ويضمن له حياة كريمة. والتكريم كامن فيما شرع الله تعالى من أسس التوحيد، وسنن العبادة، وفضائل الأخلاق التي ترتبط وتتصل بالخضوع له سبحانه، فالعبادة تعبير عن انتساب الإنسان إلى الله تعالى.

- كرّم الإنسان بما سخّر له من مظاهر وقوانين كونية عديدة؛ ليستعين بها على أداء ما أنيط به من مهام عظام. إنّ استفادة المؤمن من قانون التكريم لا تتوقف عند حدود المنافع واللذائذ -كما هي عند الإنسان الغربي- بل تشملها لتحيط بمعارف ولذائذ الدنيا والآخرة معا.

- كرّم الإنسان بما أعدّ الله له من مصير حسن، ونزل كريم، ونعيم مقيم في دار الخلود، فالإيمان بالآخرة ضرورة تدفع إليها الطبيعة الإنسانية، والرحمة الإلهية، والعدالة الربانية.

وهكذا، فإنّ التكريم يحفّ بالإنسان منذ خلقه الله تعالى، وأسجد له ملائكته، وكلّفه بالخلافة، وكرّمه في الحياة. لقد كرّم الله هذا الإنسان يوم خلق ويوم يموت ويوم يبعث حيّا.

- إنّ الإنسان يظلّ مكرما ما دام مستجيبا لله، قائما بأمره، ملتزما بطاعته، وأنّه يخلع ثوب الكرامة والتكريم حين يشذّ عن قانون الكائنات بكفره، وكذبه ونفاقه، وتردّي أخلاقه، وانحدار قيمه وسلوكه.

الفصل الرابع

بيان الآخرة في واقع الإنسان

المبحث الأول

الأبعاد المعرفية للإيمان بالآخرة

المبحث الثاني

الأبعاد التربوية للإيمان بالآخرة

خاتمة الفصل

وتشتمل على أهم النتائج

الفصل الرابع

بيان أبعاد الآخرة في واقع الإنسان(٢٨٠)

مقدمة

إنّ الأبعاد المعرفية والتربوية للإيمان بالآخرة تشكل امتدادا مكافئا لأبعاد النفس الإنسانية، بل إنّها في عمقها تمتدّ لتصل إلى أبعد عمق ممكن في غور تلك النفس التي حظيت وشرفت بالقسم الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾(الشمس:٧)، لتقوم الحجّة، وينقطع الكفر، ويبطل العذر بالجهل. لقد أوقفت تلك الأبعاد الإنسان على حقيقة الآخرة، وضرورتها للحياة، وأهميتها في الواقع، وما تمليه على الإنسان من ضرورات الإعداد والاستعداد للحياة الباقية.

إنّ التآلف والتعاون بين أفراد المجتمع الإسلامي والإنساني لا يتم بدون الإيمان بالآخرة، فحقائقها هي التي يمكن أن تجمع الناس، وتوحدهم على أسس متينة من التعايش الآمن، والتعاون البنّاء، وإلاّ فإنّ الفوضى ستمتدّ إلى كلّ نواحي الحياة الإنسانية ومجالاتها، فتذيق الناس جحيم الدنيا قبل جحيم الآخرة، فيتجرع الناس الآم الحياة قبل سكرات الممات. والواقع المعاصر يشهد تحوّل الإنسان إلى وحش كاسر، يريد أن يلتهم كلّ ما حوله؛ بسبب ما اعتراه من أخلاق الأنانية والجشع والطمع والحسد وحبّ الذات والأنانية، حتى عاد عهد الرقّ من جديد، ولكن بأسلوب مختلف عما كان عليه في القديم، إنّه استرقاق الحكام لشعوبها، واسترقاق ربّ العمل للعمال، وصاحب الشركة للموظفين، واسترقاق البنوك لقطاعات هائلة من البشر، وكذلك ما أصبح يعرف بالرّقّ الأبيض، حتى بات الناس غير قادرين إلا على العبودية لهؤلاء. وإذا أضفت إلى ذلك سوء توزيع الثروة، الذي نتج عنه، أنّ غالبية شعوب أفريقيا سيقتلها

(٢٨٠) نشر هذا البحث في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية التي تصدرها جامعة آل البيت بالتعاون مع وزارة التعليم العالي تحت عنوان: الأبعاد المعرفية والتربوية للإيمان بالآخرة: قراءة في رسائل النور، المجلد الرابع، العدد الرابع لسنة ٢٠٠٨.

الفقر والجوع، وستتأزم مشكلة البطالة في العالمين: العربي والإسلامي، عند ذلك يظهر بجلاء أنّ الهمّ الأكبر الذي يسيطر على الناس هو الحياة من أجل الحياة، بل التشبث بالحياة مهما كانت! واختفى من واقع سلوك كثير من الناس الخوف من الله تعالى، والإعداد للآخرة، فحدث هذا الاضطراب الكبير في شؤون الحياة، وأصبحت حياة الإنسان مليئة بالأحزان والأتراح، كئيبة في الآمال والطموحات بالنسبة إلى الإنسان، بل إنّ مرض الكآبة أصبح يتسلل إلى نفوس كثير من أبناء العالم العربي والإسلامي، فضلا عن الشعوب الأخرى.

لقد برهنت رسائل النور مرّة أخرى على تجديد إثبات الحياة الآخرة، وإقامة الحجج والبراهين على إثباتها مهتدية بنور القرآن، فاهتمت بإبراز إعجاز القرآن ومقاصده الكلية، وخاصة مقصد الحشر، أو الآخرة، ثاني أعظم أركان الإيمان، الذي استقل برسالة منفردة من رسائل النور -كما مرّ بيانه-؛ لتتشكل في ضوئه تصورات الإنسان وقناعاته وأفكاره، وليضبط كلّ تصرفاته، ويهيمن على سلوكه، في عصر الهجمة على الإيمان، وانتشار الإلحاد، وانحراف قطار الحياة عن مساره، لتتجه الحياة إلى كوارث لا تحمد عقباها، ومصائب لا يعرف أولها من آخرها، وويلات لا ينجو منها إلا من آمن بالله واليوم الآخر. من هنا يأتي سرّ اهتمام بديع الزمان بالآخرة، التي غابت معالمها، وتلاشت آثارها في سلوك المجتمعات المسلمة، ليس فقط في حاضرة الدولة العثمانية، بل شملت أقطار العالم الإسلامي؛ بسبب انتشار، بل قيام دولة للإلحاد في العالم، وبفعل تأثير المدنية الغربية التي أقنعت عبيد الغرب من بُلهاء المسلمين أنّ سبب تخلفهم وعدم لحاقهم بركب المدنية الغربية وحضارتها هو دينهم، فما من سبيل للنهضة والرقيّ إلا بتركه وتجاوزه، ولذلك نشأت في بلاد المسلمين أحزاب لا دينية وصلت إلى الحكم، حفظت الدرس عن أستاذها، فطالبت بإقصاء الدين عن واقع الحياة، وحرصت على محو أيّ مظهر له في الحياة العامة من أخلاق وقيم، وعفّة وفضيلة، فضلا عن إهمال تعاليمه في مناهج التربية والتعليم بمختلف مراحله، وحاولت -كذلك- طمس معالم الإيمان بالآخرة في سلوك الناس، فحرّمت الحلال وضيقت أبوابه، وأباحت الحرام ووسّعت مداخله، وشجعت الفاحشة والرذيلة، وشرعت لها ما يحميها من الأنظمة والقوانين، وزحزحت الشباب عن

الأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة، وأشغلته بما يصدّه عن الإيمان بالآخرة، من وسائل اللّهو والترف، فنشأ جيل من الشباب يعرف نجوم كرة القدم أكثر مما يعرف بلال بن رباح، وعمّار بن ياسر، ويعرف ممّن يسمون نجوم الطرب والفنّ والغناء أكثر مما يعرف أمّ المؤمنين خديجة الكبرى، أو الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنهم! هذه التربية ستعود عقباها وبالا على هذا الجيل.

في مثل هذا الوسط، وفي مثل هذه البيئة أشاع النورسي حقائق القرآن فيما يتصل بالآخرة، وحثّ عليها، ووضح ذلك في رسائله بتعليله سبب ولع الناس بالدنيا وتفضيلها على الآخرة، فقد ذكر أنّ خاصية هذا العصر تجعل المرء يفضل -بعلم- الحياة الدنيا على الحياة الباقية، وطرح مثل هذه المسائل فيها تصوّر حقيقي لمشكلات الناس الاجتماعية، فيقول: "إنّ الحياة الإنسانية في هذا العصر، ولاسيما الحياة الاجتماعية اتّخذت وضعا مخيفا ولكن ذات جاذبية، وحالة أليمة تثير اللّهفة والفضول، بحيث تجعل عقل الإنسان وقلبه ولطائفه الرفيعة تابعة لنفسه الأمارة بالسوء حتى تحوم كالفراش حول نار تلك الفتنة وتردّيها فيها.. إنّ هذا العصر رفعت منه البركة من جراء الإسراف المتزايد، وعدم مراعاة الاقتصاد، ومن عدم القناعة مع الحرص الشديد، فضلا عن تزايد الفقر والحاجة والفاقة، وهموم العيش؛ مما سبب جروحا بليغة في تطلع الإنسان للعيش، وفي نزوعه لحفظ الحياة، علاوة على تشعب متطلبات الحياة المرهقة. زد على ذلك استمرار أهل الضلالة بتوجيه كلّ الأنظار إلى الحياة، وصرفهم إليها بطرق شتى. كلّ ذلك عمّق تلك الجروح حتى دفع الإنسان ليفضل أدنى حاجة من حاجات الحياة على مسألة إيمانية عظيمة".[٢٨١]

ويرى أنّه لا يصمد تجاه هذا المرض العجيب لهذا العصر العجيب، ولسقمه الرهيب إلا رسائل النور الناشرة لأدوية القرآن المبين التي لها فعل المضاد للسموم".[٢٨٢] بحسب ما يرى فيها من فائدة، وبحسب أوضاع تلك البيئة التي بلغ فيها الإلحاد مداه، ولغياب المادة العلمية التوجيهية التثقيفية للجيل المسلم في تركيا، فالخطاب الدعوي الإيماني كان مفقودا أو معدوما.

(٢٨١) الملاحق، ص ١٤٢.

(٢٨٢) المصدر السابق نفسه، انظر: ص ١٤٢-١٤٣.

ولا شكّ أنّ المجتمعات المسلمة مازالت إلى اليوم تعاني من تلك الجروح الغائرة التي تشكل هموم الحياة المعاصرة بالنسبة إلى معظم أفرادها، حتى أصبحت لقمة العيش هي شغل الإنسان الشاغل، يكدح لأجلها طول حياته، ويصل ليله بنهاره، حتى لم يبق لديه متسع لشيء آخر، فضلا عن زخرف الحياة الدنيا الذي عصف بكثير من الناس في مستنقع الربا والدّين اللذين أرهقا كاهل الأفراد والمجتمعات؛ مما يترتب عليه إعادة الاعتبار لحقائق الإيمان بصفة عامّة، ولحقائق الآخرة بصفة خاصّة، من حيث اتصالها بتصورات الناس وسلوكهم.

ويهدف هذا الفصل إلى بيان الأبعاد المعرفية والتربوية للإيمان بالآخرة في واقع حياة الإنسان، وأن يثير قضية إعادة الاعتبار لتلك الحقائق على ضخامتها وتواضعه، وأن يستكشف الخط الفكري، والمسلك الإقناعي الذي سارت عليه رسائل النور في توضيح هذه العقيدة الإيمانية، مع بعض المقارنات التي كتبها علماء آخرون، وسيكون تقسيمه على النحو الآتي:

المبحث الأول: الأبعاد المعرفية للإيمان بالآخرة، ويشتمل على النقاط الآتية:

١. كثافة الأدلة وتنوعها.

٢. الجمال الإلهي الباهر يقتضي الآخرة

٣. أركان الإيمان تثبت الحشر

٤. النظام الكوني يثبت الآخرة

٥. الفطرة واستعدادات البشر يثبتان الآخرة

المبحث الثاني: الأبعاد التربوية للإيمان بالآخرة، ويشتمل على النقاط الآتية:

١. تحقيق غاية الحياة الدنيا

٢. الموت رحلة إلى الدار الآخرة

٣. تحقيق الكمالات الإنسانية.

٤. ضبط الحياة الاجتماعية وتوجيهها

المبحث الأول

الأبعاد المعرفية للإيمان بالآخرة

امتدّت الأدلة التي سيقت لإثبات الآخرة إلى ساحات عالم الغيب والشهادة، وإلى ساحات النفس الإنسانية، فتناولت مفردات الوجود الكوني وحقائق الوجود الإنساني، ومن هذه الحقائق وتلك المفردات أقام الوحي الأدلة المثبتة للآخرة، ففتح آفاقا معرفية لم يكن الإنسان ليصل إليها بعقله، بل إنّ الوحي وظّف العقل، وسخّر طاقاته، ووجّه همّ الإنسان ليكتشف بنفسه أنّ الآخرة حقّ وصدق بعدما أرشده إلى الطريق السليم في التفكير، ومن شأن هذا أن يغرس الإيمان بالآخرة في النفوس، لتكون الضابط والموجّه لها في الحياة. ولتبدو الآخرة كأنّها رأي العين، فيكون الإنسان أشدّ خوفا من أهوالها، وأكثر طمعا في نعيمها، وأكثر استعدادا بالعمل لها، كما ورد في حديث رسول الله ﷺ قوله: "إنّ لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلمّوا إلى حاجتكم. قال: فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم -وهو أعلم منهم- ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادة، وأشدّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً، قال: يقول: فما يسألونني؟ قال: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لو أنّهم رأوها كانوا أشدّ عليها حرصاً، وأشدّ لها طلباً، وأعظمَ فيها رغبة، قال: فممّ يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدّ منها فراراً، وأشدّ لها مخافة، قال: فيقول: فأشهدكم أنّي قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنّما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم"،[٢٨٣] فإمكانية الرؤية حقيقة استقبلتها نفس الإنسان بكلّ شغف

(٢٨٣) البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح، تحقيق: مصطفى البغا، بيروت: دار ابن كثير، ١٩٨٧، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عزّ وجل، ج٥، ص ٢٣٥٣ ح ٦٤٠٨.

وشوق، وإلى هذا الأفق تتطلع النفس الإنسانية في بعدها الإيماني، وبعدها التربوي، فالنفس تستجيب لهداية الوحي؛ لأنّه المنفذ الوحيد إلى أعماقها، ولأنّه يثير فيها ما تصبو إليه وتسعى نحوه.

ثمّ ليكون لحقائقها الأثر الإيجابي في نفوس الناس وسلوكهم كأنّها حاضرة رأي العين، وهو ليس أمرا مستحيلا، فقد تحقّق في سلوك أصحاب رسول الله ﷺ، فقد كان بعضهم يسارع إلى الجهاد في سبيل الله وهو يقول: "إنّي لأجد ريح الجنة دون أحد"،[٢٨٤] وهذا يعبر عن اليقين الذي وصلوا إليه في إيمانهم بالآخرة، وهو بعد وصلت إليه النفس الإنسانية، ويمكن أن تصل إلى أبعد من ذلك، أقول: يمكن أن تصل إلى درجة الإحسان، وهو "أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك".[٢٨٥]

لقد انطلقت رسائل النور في تقرير هذه الأبعاد وتوضيحها من هدي القرآن الكريم، وتوجيه النبيّ محمّد ﷺ، فتذكر أنّ الذي يعلمنا مسألة الحشر والآخرة هذين الأستاذين: القرآن ومحمّد ﷺ،[٢٨٦] فمنطلقاتها في تقرير هذه الأبعاد هو الوحي المنزل، لكنها تترك مجالا كبيرا للتأمّل فيه، والنظر في محكم آياته، وتفسح المجال للعقل أن يستنبط منه الحقائق التي تشكل هذه الأبعاد إن في المجال المعرفي، أو في المجال التربوي. وسيتناول هذا المبحث الأبعاد المعرفية التي كان لها حضور واضح في رسائل النور.

١. كثافة الأدلة وتنوعها

يتعلق هذا البعد بالاستدلال على الآخرة، وإقامة البراهين عليها، وتنوّع وجوه دلالاتها، ومن المعلوم أنّ القرآن الكريم قد امتدّ حديثه عنها على امتداد البعثة النبوية، تأسيسا وبناءً وتوظيفا، واستغرق الحديث عددا كبيرا من الآيات،

---

(٢٨٤) وهي قصة أنس بن النضر رضي الله عنه، انظر: النيسابوري، مسلم بن الحجاج بن مسلم. الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي (بلا تاريخ)، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، ج٣، ص ١٥١٢ح ١٤٨.

(٢٨٥) البخاري. الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبيّ ﷺ عن الإسلام والإيمان، ج١، ص ٢٧، ح٥٠.

(٢٨٦) الشعاعات، ص ٢٧٥.

حتى كانت الآخرة أو المعاد أو الحشر أحد أهم المقاصد القرآنية، بل عدّه صاحب الرسائل أحد المقاصد الكلية الأربعة للقرآن الكريم، كما قرر في أكثر من موضع من رسائل النور -وتقدّم بيانه- فقد ذكر أنّ الخلق بدونه عبث، بل لا يكون، والحشر حق وصدق.[٢٨٧] وهذه المقاصد الأربعة تتجلى في القرآن كلّه، كما تتجلى في كلّ سورة منه،[٢٨٨] والنورسي حين يعدّ الآخرة مقصدا يكون قد وافق علماء قبله كأبي حامد الغزالي[٢٨٩] وفخر الدين الرازي،[٢٩٠] وغيرهم. ومن المعاصرين له محمد عبده.[٢٩١] وغيره من المفكرين المصلحين.

ولتحقيق غاية هذا المقصد العظيم من مقاصد القرآن، نبهت رسائل النور في مواطن عديدة إلى أهمية الحياة الآخرة، وقيمتها بالنسبة إلى الإنسان، ولم تدع فرصة في إثباتها إلا تناولتها بالشرح والتوضيح وضرب الأمثلة، حتى في المواقف التي كان يمثل فيها مؤلفها أمام المحاكم المتعدّدة،[٢٩٢] وجدته يذكّر بالآخرة، ويخوّف منها، وكان هو نفسه في غاية الترقب والانتظار لها. لقد ابتدأ حديثه عنها من كتاب الوحي الأعظم: القرآن الكريم، ثم كتاب الكون المنظور، ثم من الإنسان الذي ينطوي على أدلة تثبت الآخرة والحشر الأعظم، لقد أظهرت رسائل النور كثافة الأدلة التي وظفها في إثبات الآخرة في عصر الردّة عن الإيمان والإسلام، وهي ردّة تصوّر حجم الاختراق الثقافي والقيمي التي تعاني منه الأمّة الإسلامية عموما، دون أن يكون هناك حصانات أو تحصينات إيمانية أو عقدية تدفع هذا الغزو الذي أوقع ضحايا كثيرة في شباكه، بل قطاعات كبيرة من أبناء الأمّة.

لقد أوردت -هذه الرسائل- عشرة براهين متنوعة تعكس تنوع ميادين الأدلة التي تثبت الآخرة وتبين كثرتها، وقد تمثلت في: القرآن المعجز، والنظام المتقن،

---

(٢٨٧) انظر: صيقل الإسلام، ص ١٥٩، و: إشارات الإعجاز، ص ٢٣.

(٢٨٨) انظر: إشارات الإعجاز، ص ٢٤. و: صيقل الإسلام، ص ١٥٩-١٦١.

(٢٨٩) انظر: أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن، مصدر سابق، ص ٩.

(٢٩٠) الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٢٢٦.

(٢٩١) محمد عبده، دروس من القرآن، مصدر سابق. ص ٢٦.

(٢٩٢) انظر: سيرة ذاتية، ص ٣٩٠-٣٩٢، ٣٩٩.

والعناية والحكمة الإلهية، وشهادة العلوم، وأن لا إسراف في الفطرة، والقيامة المتكررة، واستعدادات البشر، ورحمة الله الواسعة، ولسان الرسول، والقياس التمثيلي كقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾(نوح:١٤) والدليل العدلي، كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(فصلت:٤٦).[٢٩٣] هذه الأدلة -على كثرتها- يمكن جعلها في دوائر معرفية متنوعة، هي:

دلالة العناية، والرحمة، والحكمة الإلهية. وسيأتي تفصيلها في النقطة الثانية.

دلالة الوحي المسطور، وهو القرآن الكريم وما فيه من أدلة القياس والتمثيل، ويندرج تحته أيضا كلّ الأدلة التفصيلية والعقلية التي ساقها إثباتا للبعث والآخرة. وكذلك يدخل فيه بيان الرسول ﷺ.

دلالة النظام الكوني، وشهادة العلوم الطبيعية.

الطبيعة الإنسانية، وفطرة الإنسان، واستعدادات البشر.

لقد ذكر علماء الأمة السابقون الحشر واليوم الآخر في كتبهم، لكن أكثرهم اكتفى ببيان الأدلة النقلية دون شرح أو تفصيل، كالإمام البيهقي في الاعتقاد،[٢٩٤] والإمام القرطبي في التذكرة،[٢٩٥] ومن المحدثين الشيخ الباجوري في شرحه لجوهرة التوحيد.[٢٩٦]

وأضاف ابن أبي العزّ الحنفي دليلي: الفطرة والعقل، فقال: "الإيمان بالمعاد مما دلّ عليه الكتاب والسنة، والعقل والفطرة السليمة، فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز، وأقام الدليل عليه، وردّ على منكريه"[٢٩٧] لكن لم يبين كيف يمكن

---

(٢٩٣) انظر: إشارات الإعجاز، ص ٦١- ٦٥. وانظر: الكلمات، ص ٦٠٨-٦٣٣.

(٢٩٤) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨١، ص ٢٠٥-٢١٩.

(٢٩٥) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢، ص ٢٤٢ –٢٤٥.

(٢٩٦) الباجوري، إبراهيم. شرح جوهرة التوحيد، تنسيق: محمد الكيلاني، بيروت: مجهول مكان النشر، (بلا تاريخ)، ص ٣٨٧-٣٨٩.

(٢٩٧) ابن أبي العزّ، علي بن أبي العزّ الحنفي. شرح العقيدة الطحاوية، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٩، ص ٤٥٦.

الاستدلال بالعقل والفطرة على المعاد، ولعلّه اكتفى بشرح ما استشهد به من الآيات القرآنية.

إنّ رسائل النور لم تتوقف عند حدود سرد الأدلة النقلية لإثبات الآخرة، بل توسعت ببيان الأدلة العقلية التي يعمد فيها إلى التشبيه والتمثيل، ليقرب المعاني إلى الأذهان، ويظهر مدى معقولية الحقائق الإسلامية،[٢٩٨] لقد أوردت اثنتي عشرة صورة تؤكد وجود محكمة كبرى، وتدل عليها ونحن نوردها باختصار:[٢٩٩]

عدم اكتمال الثواب والعقاب في الدنيا.

الله ذو رحمة واسعة، وذو شرف سام، ولا يتحقق من ذلك واحد من الألف مما يليق بتلك الرحمة، ولا بذلك الشرف الذي يقتضي تأديب المستخفين، فيرحل الظالم في عزّته وجبروته، ويرحل المظلوم في ذله وخنوعه.

كذلك ما تقتضيه الحكمة والعدالة غير الكاملة في هذه الحياة.

إن الناس يرحلون ويغيبون بلا ارتواء من نور الجمال والكمال، فالكمال المستتر يقتضي إعلانه على رؤوس الأشهاد من المعجبين المقدرين لقيمته. وكذلك الجمال الخفيّ الذي لا نظير له يستلزم الرؤية والإظهار، وذلك لا يكون إلا في الآخرة.

إنّ الدنيا تعرض نماذج مؤقتة من الموجودات، فلا بدّ أنّه سيعرض في مقر سلطنته من خزائنه الحقيقية، ومن كمالاته ما يبهر العقول. والذين في هذه الحياة ستنتظرهم قصور السعادة الخالدة، أو غياهب السجون الأبدية.

الدنيا معرض يتفرج أهلها على نماذج آلاء المليك الثمينة، وعجائب صنعته البديعة، وفيه الراحل لا يرجع، والآتي لا يبقى، فهو في تحوّل مستمر، وهذا يقطع بوجود قصور دائمة، ومساكن خالدة وراء هذا المضيف الفاني. والأعمال والأفعال ما هي إلا لأجل ما أعدّ هناك من جزاء.

إنّ صفة الحفظ في حق الخالق الجليل تقتضي تسجيل الأعمال والأقوال لكلّ مخلوقات هذه السلطنة، فهل يمكن لحفيظ أن يهمل أدنى معاملة لأبسط

---

(٢٩٨) انظر: الكلمات، ص ٤٧

(٢٩٩) انظر: الكلمات، ص ٤٩-٥٩.

رعاياه، أو أن لا يدوّن أعمال كبار رعاياه وأن لا يحاسبهم، مع أنّهم يقدمون على أعمال تمسّ الملك العزيز؟ وما دام عقابهم لم يتحقق في الدنيا فهو مؤجل إلى محكمة كبرى.

تكرار الوعد والوعيد يؤكد تحقق الآخرة، وما دام قد وعد فسيوفي بوعده حتما، وإخلاف الوعد مناف لعزّته وقدرته.

إنّ جميع الأنبياء قد أخبروا بما عند الله من نعيم أو عذاب، وهذا يقتضي الآخرة ويجعل خبرهم في ذلك متواترا.

إنّ التبدّلات الحاصلة على وجه الأرض، وخاصّة تقلّب الفصول يؤكد أنّ السلطان العظيم لديه الشيء الكثير من الخوارق، فيمكنه أن يدمّر هذه المملكة، وينشئ مملكة الآخرة في مكان آخر.

إنّ الدنيا قاصرة عن إظهار حقائق الحكمة والعناية والرحمة والعدالة، وهذا يقتضي وجود دار عدالة عليا، ومقر كرم عظيم، لتظهر فيها هذه الرحمة والحكمة والعناية والعدالة بوضوح وجلاء.

الدنيا مزرعة، وسوق تجاري، وميدان تعليم، ولا بدّ أن يتبعه محكمة كبرى وسعادة عظمى.

فأغلب هذه الصور الإثنتي عشرة تؤكد نمطا واحدا من الأدلة وهو الاستدلال بالشاهد على إمكانية الغائب؛ فالدنيا فيها نعيم وملذات، لكنها لا توصف بالكمال، ولا بدّ من نعيم كامل، ولذة كاملة، ودار البقاء مكانها لا دار الفناء. ومثل هذا النوع من الاستدلال تقرر في كثير من محكمات أمّ الكتاب، يظهر هذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(الأعراف:٢٩)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٤)، وقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾(يونس:٣٤).

وما ذكر من أدلة يؤكد اتساع الأبعاد المعرفية القاضية بإثبات الآخرة، نعم، إنّ الأدلة أكثر من أن يحصيها العدّ، أو أن يحيط بها العقل، وأكثر من أن تقف

عند مجال معين من مجالات المعرفة وميادينها، لتدخل على النفس من طرق شتى، وبأساليب متنوعة، حتى بات الدليل على الآخرة حاضرا في كّل ما يقع عليه بصر الإنسان أو بصيرته، فلا يدع له مجالا للعتوّ والاستكبار، ولا يترك له سبيلا للغفلة والنسيان، وهو ما سيتأكد في النقطة الثانية التي تزيد من اتساع الأبعاد المعرفية، وتنيرها توضيحا.

٢. الجمال الإلهي الباهر يقتضي الآخرة

اكتشفت رسائل النور بُعدا معرفيا آخر في إثبات الحياة الآخرة، لكن لا على طريقة الفلاسفة أو أغلب المتكلمين، بل على طريقة مستوحاة من نصوص الكتاب العزيز، ومقاصده الجليلة المتمثلة في التعريف بالخالق الجليل سبحانه، ذي الكمال، فذكرت أنّ من كمال تجلّي سلطان الربوبية إيجاد هذا الكون البديع لغايات سامية، ومقاصد جليلة؛ إظهارا لكماله، فكيف لا يكون لديه ثواب للمؤمنين الذين قابلوا تلك الغايات والمقاصد بالإيمان والعبودية، ولا يعاقب أهل الضلالة الذين قابلوا تلك الغايات والمقاصد بالرفض والاستخفاف؟[٣٠٠] وتقترب رسائل النور بهذا المسلك من الدليل العقلي الذي ذكره الرازي بقوله: "إنّا نرى في دار الدنيا مطيعا وعاصيا، ومحسنا ومسيئا، ونرى أنّ المطيع يموت من غير ثواب يصل إليه في الدنيا، والعاصي يموت من غير عقاب يصل إليه في الدنيا، فإن لم يكن حشر ولا نشر يصل فيه الثواب إلى المحسن، والعقاب إلى المسيء؛ لكانت هذه الحياة الدنيوية عبثا، بل سفها".[٣٠١] وهي من الأدلة العقلية التي ذكرها الأشاعرة من المتكلمين في استدلالهم على المعاد، لكن النورسي بين وجه الدلالة فيه من خلال كلّ اسم من أسماء الله الحسنى.

إنّ الجمال الإلهي يتجلّى في الوعد الحق بإثابة المؤمنين، ومعاقبة الجاحدين. وإذا كان الله سبحانه موصوفا بالجمال، كما ورد في الحديث النبوي قوله ﷺ: "إنّ الله جميل يحب الجمال"[٣٠٢] فإنّه سبحانه لا يصدر عنه إلا كلّ جميل من القول

(٣٠٠) انظر: الكلمات، ص ٦٥.

(٣٠١) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. الأربعين في أصول الدين، الهند: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٣هـ، ص ٢٩٣.

(٣٠٢) النيسابوري، الجامع الصحيح، مصدر سابق،كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ج١، ص

والفعل والحكمة. وآيات الكتاب العزيز حافلة ببيان مظاهر الجمال الإلهي، ومما قيل في معناه: "إنّ كلّ أمره سبحانه وتعالى حسن وجميل، وله الأسماء الحسنى، وصفات الجمال والكمال. وقيل: معناه جميل الأفعال بكم، والنظر إليكم؛ يكلفكم اليسير، ويعين عليه، ويثيب عليه الجزيل، ويشكر عليه".[٣٠٣]

وتبين بعض جوانب الكمال في أسماء الله الحسنى، وتذكر دلالتها على الآخرة، فالكمال عنوان كبير من عناوين الجمال، فيذكر أنّه كما يتجلّى اسمه "الربّ" في إثبات الآخرة، كذلك نجد تجليا لاسمه الكريم، واسمه الرحيم، يقول رحمه الله: أمن الممكن لربّ هذا العالم ومالكه الذي أظهر بآثاره كرما بلا نهاية، ورحمة بلا نهاية، وغيرة بلا نهاية، أن لا يقدّر مثوبة تليق بكرمه ورحمته للمحسنين، ولا يقدّر عقوبة تناسب عزّته وغيرته للمسيئين؟[٣٠٤] كلاّ! لأنّه ربّ العالمين الذي يقول في كتابه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(المؤمنون:١١٥) فالجمال كامن في هذه الحكمة البالغة، والحجّة القاطعة. والدلالات الكاملة للأسماء الحسنى تقتضي تحقيق الحياة الكاملة في الآخرة.

وتعتمد رسائل النور أسلوب الإثارة، فتقرع النفوس الخاملة بتلك الأسئلة الواقعية: هل من الممكن أن لا يمنح ذلك الربّ الرحيم دار ثواب وسعادة أبدية لأولئك المؤمنين، الذين قابلوا تعريف ذاته سبحانه لهم بمعرفتهم إياه بالإيمان، ومحبته له بالحب والتحبب له بالعبادة، ورحمته لهم بالإجلال والتوقير له بالشكر؟[٣٠٥] وكما كانت الآخرة مظهرا لتجلي اسم: الربّ الكريم الرحيم، هي كذلك مظهر لتجلّي اسم الله الحكيم والعدل، واسمه تعالى الجواد والجميل، واسمه تعالى المجيب والرحيم، واسمه الجليل والباقي، واسمه تعالى الحفيظ والرقيب، واسمه تعالى الحيّ القيّوم، والمحيي والمميت، واسمه الحكيم.[٣٠٦]

أقول: كلّ هذه الأسماء الحسنى تعرف بواحدة من أمهات الحقائق الدينية،

٩٣، ح١٤٧.

(٣٠٣) الشوكاني، محمد بن علي. نيل الأوطار، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢هـ، ج ٢، ص ١٠٨.

(٣٠٤) انظر: الكلمات.

(٣٠٥) المصدر السابق نفسه، ص ٦٧.

(٣٠٦) نفسه، ص ٦٨-٩٣.

وهي الآخرة التي هي دار تمام وكمال للحياة الإنسانية، إذ بدونها ينعدم أيّ مظهر للجمال في الحياة، لقد تركت هذه الأسماء بصمات الجمال الإلهي واضحة في كلّ ما شرع في الوحي المنزل؛ فالإحسان إلى الخلق جمال، والرأفة بالضعفاء جمال، والحياء جمال، والعمل الصالح جمال، والعبودية لله جمال.. ومن لم يعمل لدار الجمال، فلن ينال إلا السوء والقبح.

إنّ كل شيء في هذه الحياة مبنيّ على الحكمة، ابتداء بالذرّة وانتهاء بالمجرّة، أو بما هو أكبر منها، ولكل شيء في الإنسان ونظام حياته مقصد وغاية، ولكل كائن في هذا الوجود وظيفة حتى النبات والحيوان. وبعبارة صريحة تقرر أنّه: لا يمكن أن يتوارد على خاطر عاقل أن يضيع هذا "الحكيم الجليل" جميع هذه الحكم والمقاصد، وجميع هذه الوظائف بعدم إقامته القيامة والآخرة؛ إذ يعني هذا إسناد العجز التامّ إلى قدرة القدير المطلق، وتنسيب العبث والضياع إلى الحكمة البالغة للحكيم المطلق، وإرجاع القبح المطلق إلى جمال رحمة الرحيم المطلق، وإسناد الظلم المطلق إلى العدالة التامّة للعادل المطلق، أيّ: إنكار كلّ من الحكمة والرحمة والعدالة الظاهرة المشاهدة إنكارا كليا من الوجود، وهذا من أعجب المحالات، وأشدها سخفا، وأكثرها بطلانا.[٣٠٧]

وفي تجلّي اسمه الحقّ، وكونه مظهرا تتجلى فيه الحياة الآخرة، تسأل: "أمن الممكن للحقّ سبحانه، وهو المعبود الحقّ أن يخلق هذا الإنسان ليكون أكرم عبد لربوبيته المطلقة، وأكثر أهمية لربوبيته العامّة للعالمين، وأكثر المخاطبين إدراكا وفهما لأوامره السبحانية، وفي أحسن تقويم حتى أصبح كالمرآة جامعة لأسمائه الحسنى، ولتجلي الاسم الأعظم، ولتجلي المرتبة العظمى لكلّ اسم من هذه الأسماء الحسنى، وليكون أجمل معجزات القدرة الإلهية، وأغناها أجهزة وموازين لمعرفة وتقدير ما في خزائن الرحمة الإلهية من كنوز، وأكثر المخلوقات فاقة وحاجة إلى نعمه التي لا تحصى، وأكثرها تألما من الفناء، وأزيدها شوقا إلى البقاء، وأشدّها لطافة ورقّة وفقرا وحاجة، مع أنّه من جهة الحياة الدنيا أكثرها تعاسة، ومن جهة الاستعداد الفطري أسماها صورة، فهل

(٣٠٧) اللمعات، ص ٥٣٥.

من الممكن أن يخلق المعبود الحق الإنسان بهذه الماهية، ثم لا يبعثه إلى ما هو مؤهل له، ومشتاق إليه من دار الخلود، فيمحق الحقيقة الإنسانية، ويعمل ما هو مناف كليا لأحقيته سبحانه؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا".[٣٠٨]

وليست هذه الأسماء وحدها التي تجلي عالم الآخرة، بل إنّ جميع الأسماء الحسنى التي تتجلى في نظام هذا الكون وتدبيره تقتضي الآخرة وتستلزمها.[٣٠٩]

إن النظر في الأسماء الحسنى على هذا النحو وتوظيفه في إثبات الآخرة مسلك فريد للنورسي، تميّز به عن سائر العلماء الذين كانت نظرتهم إلى الأسماء الحسنى مقتصرة على بيان معانيها، وبيان حظّ العبد منها، فقد ذكر الصنعاني مجمل أقوال العلماء في معنى إحصاء أسماء الله الحسنى الواردة في قول رسول الله ﷺ: إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة،[٣١٠] وهذه الأقوال هي:

- أحصاها، أي: حفظها.

الإحصاء: أن لا يقتصر على بعضها، بل يدعو الله بها كلها، ويثني عليه بجميعها، فيستوجب الموعود عليها من الثواب.

معناه: الإطاقة، أيّ: من أطاق القيام بحق هذه الأسماء، والعمل بمقتضاها، وهو أن يعتبر معانيها، فيلزم نفسه بمواجبها؛ فإذا قال: "الرازق" وثق بالرزق، وكذا سائر الأسماء.

المراد: الإحاطة بمعانيها. وقيل: عمل بها، فإذا قال: الحكيم، سلم لجميع أوامره؛ لأنّ جميعها على مقتضى الحكمة.

طريق العمل بها، أنّ ما كان يسوغ الاقتداء به فيها كالرحيم والكريم، فيمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها، وما كان يختصّ به نفسه كالجبار والعظيم فعلى العبد الإقرار بها، والخضوع لها، وعدم التحلّي بصفة منها، وما

---

(٣٠٨) الكلمات، ص ٩٤. وقد بسط ذلك في: المثنوي العربي النوري، ص ٨٨-٩٣.

(٣٠٩) الكلمات، ص٩٧، ١٢٧. وانظر: المكتوبات، ص ٢٦٥.

(٣١٠) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التوحيد، باب "إن لله مائة اسم إلا واحدا". ج٦، ص ٢٦٩١ ح ٦٩٥٧.

كان فيه معنى الوعد يقف عند الطمع والرغبة، وما كان فيه معنى الوعيد يقف منه عند الخشية والرهبة، ويؤيد هذا أنّ حفظها لفظا من دون عمل واتصاف، كحفظ القرآن من دون عمل لا ينفع.[٣١١]

أقول: إنّ مسلك فهم الأسماء الحسنى بالطريقة التي تقررت في رسائل النور انبنت على دقّة في التأمل، وعمق في النظر في دلالات أسماء الله الحسنى، وقد جاءت نتائجها مكملة للدلالات التي ذكرها العلماء في معاني هذه الأسماء، على أنّ النورسي حرص على إيرادها في سياق التعريف بالله الخالق الجليل ذي الجلال والكمال الذي يقتضي عدله وإحسانه وكرمه وحكمته وجود الآخرة التي تعدّ منتهى آمال الإنسان وتطلعاته وطموحاته.

٣. أركان الإيمان تثبت الحشر

توضح رسائل النور أنّ أركان الإيمان مجتمعة تثبت الآخرة، فالكتب المقدسة أقرّت بها جميعا، والأنبياء جميعا أقروا بالبعث والنشور وصدقوا به، ودعوا إليه بكلّ وسيلة ممكنة، كذلك فإنّ أغلب الأدلة والحجج الشاهدة على وجوب واجب الوجود ووحدانيته سبحانه هي بدورها شاهدة على دار السعادة وعالم البقاء التي هي مدار الربوبية والألوهية، وأعظم مظهر لهما، وهي شاهدة على وجود تلك الدار وانفتاح أبوابها؛ لأنّ وجوده سبحانه، وصفاته الجليلة، وأغلب أسمائه الحسنى، وشؤونه الحكيمة، وأوصافه المقدسة، أمثال الربوبية والألوهية والرحمة والعناية والحكمة والعدالة، تقتضي جميعها الآخرة وتلازمها، بل تستلزم وجود عالم البقاء بدرجة الوجوب، وتطلب الحشر والنشور، للثواب والعقاب بدرجة الضرورة أيضا. إنّه لا بدّ من سعادة أبدية تنفي عن الربوبية المطلقة، أيّ: ظنّ بكونها تترك الخلق هملا دون ثواب، وتبرئ الحكمة من العبث، وتصون الرأفة من الغدر، والخلاصة: مادام الله جلّ جلاله موجودا، فإنّ الآخرة لا ريب فيها مطلقا.[٣١٢]

---

(٣١١) انظر: الصنعاني، محمد بن إسماعيل. سبل السلام ، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٠هـ. ج ٤، ص ١٤٤٤-١٤٤٥.

(٣١٢) انظر: الشعاعات، ص ٢٣٢-٢٣٨، ص ٢٩٥-٣٠١.

أما الإيمان بالملائكة فيثبت الآخرة بأنّ وجود الملائكة دليل على وجود عالم الأرواح وعالم الغيب، وعالم البقاء وعالم الآخرة، ودار السعادة والجنة والنار، فالملائكة يمكنهم بإذن إلهي أن يشاهدوا هذه العوالم ويدخلوها، لذلك فهم يخبرون بوجود هذه العوالم، لذلك يكون الإيمان بديهة بما أخبرت به الملائكة – وهو بقوة مائة تواتر عن وجود عالم البقاء ودار الآخرة والجنة والنار.[٣١٣] لقد أعطى صاحب الرسائل لهذا الاستدلال قوّة تعدل مائة تواتر، ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى إيمان الأمم بوجود الملائكة، ومعرفتها بوظائفهم، وأنّهم رسل الله إلى أنبيائه والمرسلين، وقد أخبروا بالعالم الآخر، وما سيجري فيه، وهذا كلّه ثبت بالنقل لا بالعقل، وثبت بإخبار جميع النبيين والمرسلين، وإذا كان كلّ واحد من هؤلاء الأنبياء والرسل قد اتصف بأرفع درجات الصدق، فكيف وقد اتفقت كلمتهم جميعا على إثبات الآخرة!

كذلك الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى، يثبت الآخرة من حيث إنّ تدوين مقدّرات كلّ شيء على ألواح النظام والميزان، وكتابة الأحداث الحياتية ووقائعها لكلّ ذي حياة في قواه الحافظة وفي حبوبه ونواه، وتثبيت دفاتر الأعمال لكلّ ذي روح ولاسيما الإنسان وإقرارها في ألواح محفوظة، كلّ هذا من القدر ذي الإحاطة التامة، ومن التقدير ذي الحكمة، ومن التدوين ذي الدقّة المتناهية، ومن الكتابة ذات الحفظ والأمانة، لا يمكن أن يكون إلا لأجل محكمة كبرى، ولنيل الثواب والعقاب الدائمين، وإلا فلا فائدة في ذلك كلّه.[٣١٤]

إنّ عقيدة القدر تتعلق بعلم الله المتصل بما كان، وبما يكون، وبما هو كائن إلى يوم الدين، مثل تقدير الآجال، وكتابة الأعمال، والإحياء والإماتة، والشقاء والتعاسة، والراحة والسعادة، لا يتخلّف شيء من ذلك سبق تقديره في علم الله، وإذا كانت كلّ نفس رهينة، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر:٣٨) وإذا كان كلّ كسب الإنسان محفوظ مكتوب في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، كما في قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق: ١٨) فإنّ العدالة تقتضي أن يكون لذلك الحفظ وتلك الكتابة مقصد وغاية، بها يصل كلّ

(٣١٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٨.

(٣١٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٨-٢٣٩.

حقّ إلى صاحبه، إن خيرا فخير، وإن شرّا فشرّ، وذلك في الآخرة دار الحق.

إنّ أركان الإيمان يصدّق بعضها بعضا، وليس فيها شيء يمكن أن يتنافر أو يتضادّ مع شيء آخر من أركان الإيمان. وهذا ينبّئ عن المصدر الوحيد لهذه الأركان، وهو الوحي المنزل، فتقررت في رسالات الأنبياء كلّهم. وإذا كان ذلك كذلك، فأهل الأديان أحرى لهم أن يلتقوا على صورة الحق التي تقررت في الوحي الأخير المنزل على نبيّ الله محمّد ﷺ، لأنّها الصورة الوحيدة التي تنتسب بحق إلى الله سبحانه وتعالى.

٤. النظام الكوني يثبت الآخرة

إنّ الحكمة في النظام الكامل في أرجاء الكون، والحكمة في خلق الكائنات التي ترمز إلى عنايته الأزلية، وأنّه لا إسراف ولا عبثية في خلق الموجودات، وأنّ التبدّلات والتحوّلات التي تحدث في كثير من الأنواع، حتى في جسد الإنسان.. كلّ ذلك يؤكد وجود العالم الآخر، فإذا لم يكن هناك حياة أخرى، فماذا يعني هذا النظام؟ وإذا لم يكن هناك حياة أخرى فسوف ننكر كلّ ما في الكائنات من الحكم والفوائد الثابتة البديهية، وإذا لم تكن هناك حياة أخرى، فإنّ كلّ المعنويات الرصينة، والآمال الراقية السامية التي تؤسس ماهية الإنسان الحقيقية تكون كلّها -حاش لله- إسرافا وعبثا. وتكرار أشكال القيامة في حياة الموجودات، يؤكد وجود الحياة الباقية.[٣١٥]

وتنظر رسائل النور في هذا الانتظام في نواميس الكون، الذي أدّى إلى ظهور علوم متقنة ومنضبطة ذللت للإنسان كثيرا من الصعاب، يدلّ على الآخرة ويثبتها؛ إذ لولا هذا الانضباط في حركة الأرض لما استطاع الإنسان أن يؤدّي الصلوات الخمس، وما استطاع أن يصوم رمضان أو يحج البيت، ومن ثم لا يستطيع أن يحقق العبودية لله تعالى، وإذا ساءت علاقته مع الخالق ساءت مع المخلوق، وأصبحت الحياة فوضى لا معنى لها، فانضباط النظام الكوني يفسح المجال لتحقيق العبودية لله تعالى، ومن ثم تحقيق مقصد الحياة وغايتها بتحقق الآخرة، يقول: "إنّ النظام المتقن الثابت بالاستقراء التام الذي أنشأ العلوم كافة،

(٣١٥) انظر: الكلمات، ص ٦١٣-٦١٦.

يدل على السعادة الأبدية؛ إذ الذي ينجي الانتظام من الفساد والإخلال، والذي يجعله متوجها إلى العمر الأبدي والتكامل هو السعادة الأبدية ضمن الحشر الجسماني".[٣١٦]

ويستثير مؤلف الرسائل علم الجغرافيا الذي يصفه بأنّه علم يعرّف ربّ العالمين بمائة ألف فم، فيوظفه في إثبات حقيقة الآخرة، فالأرض ملأى بكمال الحكمة والنظام البديع بمئات الألوف من أجناس النباتات، وأنواع الحيوانات، وبعث الحياة البهيجة، ثم إعفاؤها بالموت من وظائفها التي كانت تقوم بها.. هذه الظاهرة تتوالى بانتظام دقيق، حتى إذا أفرغت منها بوشر مجددا بملئها ألا يعني هذا أنّ البعث بعد الموت حق لا ريب فيه؟[٣١٧]

وتوظّف رسائل النور كذلك براعة مؤلفها وخبرته وسعة اطلاعه على علوم العصر، فتقيم من علم طبقات الأرض دليلا بيّنا على ثبوت الحشر والآخرة.[٣١٨]

وتتحدث رسائل النور عن قانون الهدم والبناء في الحياة، وفي نظام الكون، وأثره في إثبات الحشر والآخرة، وأنّه يقوم على أربع نقط: إمكان خراب العالم وموته، ووقوعه، والتعمير والإحياء، ووقوعه، فيبين أنّ موت الكائنات ممكن، فالإنسان عالم صغير يفنى ويموت، كذلك العالم إنسان كبير لا مناص له من الموت البتة، ويشير إلى الآيات التي تبين اضطراب النظام الكوني وخرابه، ووقوع ذلك ممكن باتفاق أهل الديانات، وبشهادة كلّ فطرة سليمة، وبسرّ قوله تعالى "كن" تتصادم النجوم وتتلاطم الأجرام. نعم! إنّ العناية الإلهية تقضي خراب العالم لتصير القيامة مؤبدة محكمة ثابتة، وليتميز عالم الفناء عن عالم البقاء، ليصفي الخالق جل جلاله الأضداد المختلطة للتأبيد، فتحصل جهنم، وتتجلى الجنة بجسم مؤبد، أما التعمير والإحياء فإنّ النظام والرحمة والنعمة إنّما تكون نظاما ورحمة ونعمة إن جاء الحشر، إضافة إلى تقرير جميع الأنبياء هذه الحقيقة ووقوعها، والحاصل أنّ المتأمّل في نظائر وأشباه وأمثال الحشر في

---

(٣١٦) صيقل الإسلام، ص ١٦٠.

(٣١٧) انظر: الكلمات، ص ٨١١-٨١٢.

(٣١٨) انظر: المكتوبات، ص ١٠-١١.

كثير من الأنواع، وما يظهر فيها من أمارات، ليس أمامه إلا أن يقرّ بوجود الحشر الجسماني والسعادة الأبدية.[٣١٩]

إنّ لهذا القانون مشاهدات كثيرة حتى في خلايا جسم الإنسان التي تتبدل باستمرار، وحياة الأرض الهامدة التي إذا نزل عليها الماء دبّت فيها الحياة، فاهتزت وربت وأنبتت من زوج بهيج، فكذلك تبدل هذه الحياة إلى حياة أخرى لا فناء فيها ولا زوال. ولا بدّ لهذه التغييرات أن تصير يوما إلى الثبات، وذلك لا يكون إلا في العالم الآخر. يقول: "والحاصل أنّ هذا العالم كما يستلزم صانعه بالقطع واليقين، كذلك يستلزم صانعه الآخرة بلا ريب ولاشك".[٣٢٠]

٥. الفطرة واستعدادات البشر يثبتان الآخرة

تناول النورسي هذه المسألة في الكلمة التاسعة والعشرين، وبين فيها استشعار الإنسان لكيانه الروحي الكامن فيه، وأنّ هذه الروح ثابتة لا تتغير، ولا تبلى، ولا تشيب، ولا تتعرى، "والحقيقة الروحية في كلّ فرد لا تموت أبدا -بإذن الله- وإن بدّلت مئات الآلاف من الصور، فتستمر روحه حية كما بدأت حية، لذا فإنّ الروح التي هي حقيقة شعور ذلك الشخص وعنصر حياته، باقية دائما بإبقاء الله لها، وبأمره وإذنه تبارك وتعالى".[٣٢١] هذا الإحساس قائم في نفس الإنسان، وقائم كذلك في آفاق الحياة عبر المشاهدات المتكررة، والوقائع المتعددة، فبقاء روح واحدة بعد الممات، يستلزم بقاء نوع تلك الروح عامة، ولذلك فإن فناء الروح إما أن يكون بالهدم والتحلل، أو بالإعدام. فأما الهدم والتحلل فلا تسمح لهما الوحدة والتفرد بالولوج، ولا تتركهما البساطة للإفساد. وأما الإعدام فلا تسمح به الرحمة الواسعة للجواد المطلق، ويأبى جوده غير المحدود، أن يسترد ما أعطى من نعمة الوجود إلى روح الإنسان اللائقة والمشتاقة إلى ذلك الوجود.[٣٢٢]

هذا الإحساس الفطري بوجود الروح التي هي هبة الله تعالى إلى الإنسان،

---

(٣١٩) انظر: إشارات الإعجاز، ص ١٩٢-١٩٤. الكلمات، ص ١١١، وانظر: عبد الحميد، محسن. النورسي متكلم العصر الحديث، القاهرة: سوزلر للنشر، ١٩٩٥، ص ١٤٩.

(٣٢٠) المثنوي العربي النوري، ص ٩٣.

(٣٢١) الكلمات، ص ٦١٢.

(٣٢٢) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ٦١٠-٦١١.

يؤذن وجودها باستمرار حياته، ويؤذن بامتداد هذه الحياة إلى حياة البرزخ، ثم يمتد ذلك البقاء للروح يوم القيامة، ويشير النورسي هنا إلى حكمة جليلة, ونكتة بديعة، وهي أنّ المنعم سبحانه، لا يسلب الإنسان نعمة وهبها إياه لتنقطع الحياة، وتنتهي رحلة الإنسان كأنّها طرفة عين، فلا بدّ لهذه الروح التي تعشق الخلود أن تناله بإذن الله تعالى، إما في سعادة دائمة، ونعيم مقيم، وإما في شقاوة دائمة، وجحيم خالد، وذلك على الحالين لا يكون إلا يوم الخلود.

فالروح واحدة من مؤهلات الإنسان واستعداداته لعالم البقاء، ولكنها ليست الاستعداد الوحيد، وهذا يعني أن لا عبث في تلك الإحساسات الفطرية ولا إسراف، "إنّ عدم الإسراف في الفطرة، الثابت بشهادة علم منافع الأعضاء، ولاسيما في العالم الأصغر -الإنسان- يدل على عدم الإسراف في الاستعدادات المعنوية للإنسان، وآماله، وأفكاره، وميوله، وهذا يعني أنّه مرشح للسعادة الأبدية".[٣٢٣] فاستعدادات الإنسان المادية والمعنوية أكثر من أن تحصى، فآماله وطموحاته تمتدّ بعيدا، بل إنّها في امتدادها تتجاوز الأجل المضروب للإنسان في هذه الحياة الدنيا، وفي الحديث النبوي تأكيد لهذه الحقيقة، فقد خطّ النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخطّ خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به -أو: قد أحاط به- وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا.[٣٢٤] والشاهد هنا امتداد الأمل خارج الأجل، وهي طبيعة في النفس الإنسانية، وهي طبيعة لا تتوهم ولا تتخيل، ولا تخدع صاحبها، فهي طبيعة ذات مشاعر صحيحة وصادقة، وهذا شعور عام في كلّ بني البشر، وإذا كانت الحياة الدنيا هي حياة يتقاصر فيها الأجل عن اللحاق بالأمل، أو مسايرته ومتابعته وإدراكه، فإنّ الحياة الآخرة هي تلك الدار التي يواكب فيها الأجل الأمل، فيسيران في انسجام كامل لا يتخلّف أحدهما عن الآخر، وعلى امتداد الأمل يمتدّ الأجل بنعمة من الله وفضل. وهو استعداد فطري لدى الإنسان وهبه الله له، وامتنّ عليه به، أشارت

(٣٢٣) صيقل الإسلام، ص ١٦٠.

(٣٢٤) البخاري. الجامع الصحيح، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، ج٥، ٢٣٥٩ ح ٦٠٥٤.

بعض نصوص القرآن إليه في مواطن كثيرة؛ وذلك حين يصف الحياة الآخرة بالخلود الأبدي، وحين يصفها بالحيوان، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(العنكبوت:٦٤)، وهو ما توضّح في كلام النورسي حين بيّن أنّ الآخرة هي الأجدر والأحق بوصف الحياة؛ لأنّها تمثل الحياة الحقيقية، فذلك العالم هو عين الحياة؛ إذ لا ذرّة من ذرّاتها إلا نابضة بالحياة، ولا تعرف الموت إطلاقا.[٣٢٥]

إنّ الذي أدرج في وجود الإنسان حواس وحسيات، وجوارح وأجهزة، وأعضاء وآلات؛ لإحساس جميع أنواع نعمه الجسمانية، ولإذاقة أقسام جلوات أسمائه المتجلية على الجسمانيات في هذه الدار الزائلة الذليلة التي هي ليست لذيذة ولا للذة، يشير بهذا الصنع الحكيم إلى أنّ خالق الإحساس والإذاقة أعدّ لعباده ضيافة جسمانية أيضا لائقة بهم، أبدية في قصور تجري من تحتها الأنهار.[٣٢٦]

وبهذا يثبت أنّ مسألة الحشر حقيقة راسخة لا يمكن أن تزحزحها أيّ قوة مهما كانت، حتى لو استطاعت أن تزيح الكرة الأرضية وتحطمها؛ ذلك لأنّ الله سبحانه وتعالى يقر تلك الحقيقة بمقتضى أسمائه الحسنى جميعها، وصفاته الجليلة كلّها، والقرآن يثبتها بجميع آياته وحقائقه، والكون يشهد لها بجميع آياته التكوينية، وشؤونه الحكيمة.[٣٢٧]

إنّ الأدلة التي ساقها القرآن إثباتا للآخرة تنوّعت وتعدّدت، وأحاطت بالإنسان من كلّ جانب؛ تنادي بضرورة الإيمان بها، فقد شملت الاستدلال بمقدمات عقلية، والاستدلال بمقدمات علمية، والاستدلال بالأسلوب التقريري، والاستدلال بالأسلوب التمثيلي، والاستدلال بالأسلوب القصصي، والاستدلال بالواقع التاريخي.[٣٢٨] والعقل هو الأداة المؤهلة لكي تعي هذه الأدلة وتفهمها، يشاركه في ذلك، القلب والروح والوجدان، والفطرة التي لها كمال الاستعداد

---

(٣٢٥) انظر: صيقل الإسلام، ص ٣٣٥.

(٣٢٦) المثنوي العربي النوري، ص ٣٥٢-٣٥٣.

(٣٢٧) الكلمات، ص ٩٦.

(٣٢٨) انظر: الدغامين، زياد خليل محمد. عقيدة البعث وكيف تناولها القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة مسجلة بقسم أصول الدين، الجامعة الأردنية ١٩٨٧، ص ٩١-١٤١.

للإيمان، والرقيّ في معارج عالم الآخرة، وقد شمل حديث النورسي كلّ هذه الجوانب، وهي أبعاد معرفية امتدت إليها تأملاته في آيات الكتاب العزيز.

والشيء الذي يميز الحديث في هذه الأبعاد أنّ النورسي ابتعد عن التعقيدات اللفظية، والمصطلحات الكلامية والفلسفية، تذليلا لطريق الإيمان بها، والتسليم بحقيقتها، وهذا يقود إلى معرفة الآثار التربوية المترتبة على ذلك، وهو موضوع المبحث الثاني.

المبحث الثاني

الأبعاد التربوية للإيمان بالآخرة

تبينت في المبحث السابق الأبعاد المعرفية التي تطلّ على الحياة الآخرة، والتي تجعل الموقف السلبي منها موقفا لا يستقيم مع النقل، ولا مع العقل والفطرة، فضلا عن المساوئ الكثيرة التي يجلبها للحياة الإنسانية. إنّ تلك الأبعاد لم تترك لأحد عذرا في التوقّف أو التردّد في الإيمان بها، بل إنّها رسّخت وعمّقت ذلك الإيمان، فلا تستطيع قوّة على وجه الأرض أن تؤثر فيه، أو أن تزحزحه من مكانه في القلوب المؤمنة، حتى بات وجود الآخرة في تصوّر المسلم دافعا إيجابيا، ومحرّكا فاعلا إلى إحسان العمل، وضابطا قويا لإحسان القول والفعل، وحافزا مهما للإصلاح في الأرض وعمارتها. أضف إلى ذلك، ما ينبعث من استقرار وطمأنينة في نفس الإنسان وقلبه، فلا يملأ الفراغ نفسه، ولا يسيطر عليه اليأس والضعف والوهم، ولا يغلب عليه الهزل واللّهو واللعب، يعيش لهدف عظيم، ويحيا لغاية جليلة.

هذا المبحث سيطلّ على الحياة الآخرة من جانب آخر، من جانب الأبعاد التربوية التي تمتد إلى آفاق أعمق في النفس الإنسانية، فتظهر آثارها على الإنسان روحا وعقلا، ونفسا ووجدانا، فتتشرب نفسه كمال التربية الإلهية التي يستخلصها من ذلك الإيمان باليوم الآخر، فيعرج في سلم الكمال، وترقى نفسه في سلم الفضيلة، وتسمو روحه حتى تشارك الملائكة في طهرها ونقائها وصفائها.

لقد تجلّت هذه الأبعاد في رسائل النور في النقاط الآتية:

تحقيق غاية الحياة الدنيا

من المعلوم أنّ تحديد غاية الشيء يسّهل من إدراكه، وييسر من سبل التعامل معه، بل يؤدّي إلى السعي لتحقيق تلك الغاية إن كانت في خير الإنسان ونفعه. ويعظم ذلك الإدراك بحسب أهمية القضايا المراد معرفة غايتها، فمعرفة الغاية من صنع السيارة مثلا، يؤدّي إلى توظيفها لتسهيل حركة الإنسان في تنقله وسفره، لكن لا يؤدّي ذلك إلى اتخاذها بيتا، أو سكنا بحال من الأحوال. وإذا كانت الدنيا ممرا للآخرة وجسرا يوصل إليها، فإنّها لن تكون بحال سكنا دائما، ومستقرّا خالدا، فالوقوف على حقيقة الدنيا ومعرفة غاياتها يكشف عن الطريق الأمثل في توظيف كلّ ما فيها لما يعود بالنفع على الإنسان في عاجله وآجله، ودنياه وآخرته.

لقد رسم النورسي للحياة الإنسانية -في ضوء هداية الوحي- غايات عديدة، يتمحور معظمها حول معرفة الله وأسمائه الحسنى، فهي أمّ المعارف الإنسانية والكونية، إذ اقتضتها الحكمة الإلهية. وهي غايات تؤدّي ضمنا إلى الحياة الآخرة وتقود إليها، وبمعرفة هذه الغايات تزداد المعرفة بالآخرة، ويزداد اليقين بها حتى تكون رأي العين، ليس دونها حجاب، وأهم هذه الغايات التي حدّدها النورسي:[٣٢٩]

فتح الكنوز المخفية للأسماء الحسنى بمفاتيح الأجهزة المودعة في الإنسان، ومعرفة الله بتلك الأسماء، فمن خلال أجهزة السمع والبصر والتفكير المودعة في الإنسان يدرك أنّ الخالق قدير، وحكيم، وخبير، وبصير، وسميع.. فنعرف الله بتجليات أسمائه، وما اشتملت عليه من لطائف في خلق الإنسان.

التجمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبتها الأسماء الحسنى؛ لإظهار تكرّم الله تعالى، وعنايته بالإنسان؛ يعني التجمّل بالصدق، والعلم، والحكمة، والرحمة...

معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل وشؤونه الحكيمة، ووزنها بما وهب للإنسان من علم جزئي، وقدرة، وإرادة...

إدراك درجات القدرة الإلهية، والثروة الربانية المطلقتين بموازين العجز

(٣٢٩) الكلمات، ص ١٣٨.

والضعف لدى الإنسان. اهـ.

ولهذا دلالته في رسم أهداف تربية الإنسان، من حيث تعريفه بأهم واجباته في الحياة، وقيمة هذه المعرفة بالأسماء الحسنى أعظم من الحياة الدنيا نفسها، وأكبر من كلّ ما فيها من نعيم ومتاع، ولأنّ لهذه الأسماء تجليات في واقع حياة الإنسان، فهذا يعني بالضرورة أنّ معرفة الأسماء الحسنى التي تقتضي الحياة الآخرة وتوجبها هي الغاية العظمى لهذه الحياة، وبذلك يقتصر همّ الإنسان عليها، فلا يعبث، ولا يغفل، ولا يشتغل بلهو ولا لعب، بل يوظّف كلّ وقته، ويسخّر امتداد عمره لتحقيق عبودية الله الواحد الأحد، تصديقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، وهذا ينسجم مع ما ذكره النورسي في معنى العبادة؛ إذ بين أنّ حكمة مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا، والغاية منه، هي: معرفة خالق الكون سبحانه، والإيمان به، والقيام بعبادته، كما أنّ وظيفة فطرته، وفريضة ذمته، هي: معرفة الله والإيمان به، والتصديق بوجوده وبوحدانيته إذعانا ويقينا.[٣٣٠] والأسماء الحسنى هي الميدان الأرحب لهذه المعرفة الجليلة، والعبادة النبيلة، وهذه الأسماء تؤكد وجود العالم الآخر، عالم الثواب والعقاب، والجنة والنار، وتفرض تبعات ومسؤوليات على الإنسان من العمل والإعداد ينبغي له أن يؤديه ويقوم به. وهذا لا يعني أن يتجرد الإنسان من الحياة الدنيا، ويهمل شأنها، كلا! إنّ عدم التفريق بينهما يجعل من العمل حافزا يسوق إلى الآخرة وإلى مرضاة الله تعالى، فالدنيا هي مزرعة الآخرة متوجهة إليها، بل هي معمل ينتج المحاصيل التي تناسب سوق الآخرة[٣٣١] وتلك المحاصيل هي الأعمال الصالحات التي ينتفع بها الخلق، ويتحصل لهم به النفع والخير.

ولذلك تولي رسائل النور هذه الغاية العظمى أهمية قصوى؛ من أجل أن يسخّر الإنسان عمره للوصول إلى حياة خالدة، إنّ الجديد في فكر النورسي في فهم الآخرة وبيان آثارها دعواه المتكررة على صفحات رسائل النور بتوظيف العمر الفاني توصّلا إلى عمر خالد باقي، ويضرب لذلك الأمثلة، ويحاول أن

(٣٣٠) انظر: الشعاعات، ص ١٣٥.

(٣٣١) انظر: المكتوبات، ص ٣٨٠.

يقرّب هذا من أذهان الناس وقلوبهم، فيذكر أنّ عمر الإنسان الفاني يتضمن عمرا باقيا من حيث حياته القلبية والروحية اللتان تحييان بالمعرفة الإلهية، والمحبة الربانية، والعبودية الحق لله تعالى، بل ينتج هذا، العمر الباقي الخالد في دار الخلود والبقاء، فيكون هذا العمر الفاني بمثابة عمر أبدي، أجل! إنّ ثانية واحدة يقضيها الإنسان في سبيل الله الباقي، وفي سبيل محبته، وفي سبيل معرفته تعدّ سنة كاملة، بل هي باقية دائمة لا يعتريها الفناء، بينما سنة من العمران لم تكن مصروفة في سبيله سبحانه، فهي زائلة حتما، وهي في حكم لحظة خاطفة، فمهما تطل حياة الغافلين، فهي بمنزلة لحظات عابرة لا تجاوز ثانية واحدة.[٣٣٢]

إنّه يختصر على العقل طول الفكر وعنائه، قائلا: "أتريدون -أيّها الناس- تحويل عمركم القصير الفاني إلى عمر باق طويل مديد، بل مثمر بالمغانم والمنافع؟ وما دام الجواب: أن نعم! وهو مقتضى الإنسانية، فاصرفوا -إذن- عمركم في سبيل الباقي؛ لأنّ أيّما شيء يتوجّه إلى الباقي ينل من تجليات بقائه".[٣٣٣]

نعم إنّ الدنيا فانية، وكلّ ما فيها فان، وكلّ ما توجّه إليها فان، وكلّ عمر يذهب إليها فهو فان أيضا. والله تعالى هو الباقي، فكلّ ما توجّه إليه من أعمال فهو باق، فإذا شاء الإنسان البقاء والخلود في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فلا بدّ أن يقصد بأعماله الباقي جلّ جلاله.

"إنّ البقاء، وحبّ البقاء، والشوق إلى البقاء، مغروس في فطرة الإنسان، بل إنّ الإنسان مخلوق للبقاء، وجميع كمالاته وأذواقه تابعة للبقاء، وهو مرآة عاكسة لتجلياته الباقية، وقد كلّفه بأعمال تثمر ثمارا باقية، وصوّره على أحسن صورة حتى أصبحت صورته مظهرا لتجليات أسمائه الحسنى الباقية، لذا فسعادة هذا الإنسان، ووظيفته الأساس إنّما هي التوجه إلى ذلك الباقي بكامل جهوده وجوارحه وبجميع استعداداته الفطرية".[٣٣٤] وبهذا تتضح غاية الحياة، ومهمّة الإنسان فيها، مما يدفعه إلى تحقيق هذه الغاية، وتوظيف عمره من أجلها، وهذا

---

(٣٣٢) انظر: اللمعات، ص ٢٤.

(٣٣٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥.

(٣٣٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٧، ٢٨.

يورث معرفة كاملة بالحياة الدنيا وحقيقتها، وإذا كانت الدنيا مزرعة الآخرة، فحرثها على الدوام يجعلها مثمرة معطاءة.

الموت رحلة إلى الدّار الآخرة

يكاد الموت أن يكون شبحا مرعبا يخيم على نفوس كثير من الناس فيدفعهم إلى محاولة التخلّص منه، أو البحث في إمكانية إطالة أجل الإنسان، تشبثا منهم بالحياة، ورغبة فيها مهما كانت هينة أو رخيصة، فقد أخبر الله تعالى عن صنف من البشر بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (البقرة:٩٦). وقد صوّر هذه الرغبة الجامحة بالحياة عندهم بقوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(البقرة:٩٦) غير أنّ تلك الرغبة الجامحة، والنفسية الجانحة إلى الخلود في الحياة قد قطعها الحق جلّ جلاله بالموت، وعلى افتراض أنّ الإنسان سيبلغ ألف سنة من العمر، فإنّ ذلك لن يصرف عنه العذاب، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾(البقرة:٩٦). تلك الصورة المخيفة للموت رسمتها اليهودية التي أنكرت بعث الجسد[٣٣٥] ونشرت معتقدها بين الأمم التي اخترقتها -اليهودية- وهذا من شأنه أن يبعث اليأس في نفس الإنسان من جراء ما يصيبه في الحياة من مصائب -كالمرض والفقر- تحول بينه وبين التلذّذ بالحياة، والتمتع بها، فاليأس آت إليه من جهة فوات اللذّة والمنفعة مع أنّها سريعة الانقضاء عاجلة الزوال.

ومن هنا يبين النورسي أنّ انعدام الإيمان بالله واليوم الآخر يورثان مآسي لا حصر لها، وآلام لا عدّ لها، وأنّ الإيمان بهما يطرد الخوف عن الإنسان بحيث يحتمل أشدّ المصائب، ويثبت أمامها، يقول رحمه الله: "كان الكاملون من الناس يحبون الموت ويطلبونه، حيث رأوا حقيقته. إنّ سير الزمان ومروره على كلّ شيء، ونفوذ الزوال والفراق والموت والوفاة فيه، يتخذ بهذا المعتقد الإيماني صورة وضّاءة، حيث تحفز الإنسان إلى رؤية الجدة بتجدّد كلّ شيء، بل يكون مبعث التأمل في ألوان مختلفة، وأنواع متباينة لمعجزات إبداع الخالق

(٣٣٥) انظر: الفاروقي، إسماعيل. الملل المعاصرة في الدين اليهودي، بيروت: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٨، ص ٥٨-٥٩.

ذي الجلال، وخوارق قدرته، وتجليات رحمته سبحانه، ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين".[٣٣٦] ومن شأن هذا أن ينعكس إيجابا على تعاطي الإنسان مع تلك الحوافز الإيمانية التي تؤكد له تجدّد الحياة في كلّ ما يحيط به، فالموت ليس إعداما أبديا، ولكنه إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر جهنم، فهو حياة برزخية، لا يعلم كيفيتها إلا الله تعالى، يقف النورسي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾(البروج:١١)، فيقول: "هي بشرى السعادة الخالدة تزفّها هذه الآية الكريمة إلى الإنسان المسكين الذي يلاقي حقيقة الموت كلّ حين، فتنقذه هذه البشرى من تصوّر الموت إعداما أبديا، وتنجيه من قبضة الفناء، بل تمنحه سلطنة أبدية، وتكسبه سعادة دائمة".[٣٣٧]

إنّ الهروب من الموت، والفرار منه، واستقباح ذكره عند الناس مردّه إلى جهل في الاعتقاد بالنسبة إلى الحياة الآخرة، كما يذكر النورسي، فيقول: "إنّ الموت والزوال والفناء والفراق من الدنيا ليست أبوابا للعدم والسقوط في ظلمات الفناء والانعدام، بل هي أبواب للقدوم والذهاب إلى حضور سلطان الأزل والأبد، فهذه الإشارة تنجي القلب من دهشة ألم تصوّر تمزقه مع جميع محبوباته بين أيدي عدمات هائلة غير متناهية، والتفرّق بين أنياب فراقات مدهشة".[٣٣٨] هو كذلك عند أهل الضلالة: فراق أبدي أليم من جميع الأحبة، وخروج من جنة دنيوية كاذبة إلى وحشة سجن انفرادي للقبر، وضياع في تيه سحيق.[٣٣٩] ومن ثمّ فإنّ أسعد إنسان هو من يشكر ربه صابرا محتسبا في سجنه، مستفيدا من وقته، ساعيا لخدمة القرآن والإيمان.[٣٤٠] "وإنّ النجاة من الإعدام الأبدي، والخلاص من السجن الانفرادي، وتحويل الموت إلى سعادة أبدية، إنّما تكون بالإيمان بالله وطاعته ليس إلا".[٣٤١]

(٣٣٦) الكلمات، ص ٢٨.

(٣٣٧) الكلمات، ص ٥٣٤، وانظر: ص ٣٥٢،٢٢٤. وانظر: المكتوبات، ص ٣٦٦.

(٣٣٨) المثنوي العربي النوري، ص ٣٧٤.

(٣٣٩) الكلمات، ص ٣٧، وانظر: ص ٨١٤-٨١٥.

(٣٤٠) انظر: الكلمات، ص ١٦٦.

(٣٤١) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٧.

وتستثير رسائل النور السفهاء الضالين فتقول: هل يجدي أعظم علومكم وصروح حضارتكم ومراتب نبوغكم شيئا أمام هذا السقوط المريع للإنسان؟ وهل يستطيع الصمود حيال هذا اليأس المدمّر للروح البشرية التوّاقة إلى السلوان؟ وهل يستطيع ذلك كلّه إنقاذكم من ظلمات الموت الذي هو إعدام أبدي لديكم؟[٣٤٢]

أقول: هذا البعد التربوي الذي كشفه النورسي يعدّ -في الحقيقة- علاجا مهما لما يعانيه الإنسان من أمراض نفسية ومعنوية، نتيجة مكابدته هموم الحياة وشقائها، وضنك العيش وبؤسه؛ لأنّه يفتح باب الأمل للإنسان واسعا فسيحا، وتلتئم جراحه الغائرة، ويقبل على الحياة بهمة ونشاط، لذلك نرى أنّ المسلمين مع ما هم عليه من ضعف في الإيمان أحسن حالا من غيرهم ممن لا يعتقد بالآخرة، وقلّ ما نسمع عن حالات انتحار بين المسلمين، على الرغم من كلّ ما يعانونه من شقاء في العيش، وعناء في الحياة على أنّ ذلك الشقاء والعناء نجما عن ضعف في إيمانهم بالحياة الآخرة، وتقصير في الإعداد لها، إعدادا يناسب طول بقائها. ما دامت الغايات قد اتضحت والأهداف قد ارتسمت للإنسان في هذه الحياة الدنيا، فإنّ لغزها يكون قد انحلّ هو الآخر، فلم يعد ثمة شيء غير مفهوم في هذه الحياة. وأصبح "الموت" بهذا التفسير الإيجابي عنصرا دافعا للإنسان وحافزا له على التهيؤ له بالإكثار من الأعمال الصالحات، والاستعداد لملاقاة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، وهذا يطرد اليأس من نفس الإنسان، ويبعد شبح الفراق عنه، ليمارس نشاطه المعتاد بسكينة وثبات، وبجدّ ومثابرة.

٣. تحقيق الكمالات الإنسانية

يترتب على ما سبق ذكره، أنّ المؤمن بالآخرة يتطلع دائما إلى تحقيق الأهداف العظمى في الحياة، وهذا من شأنه أن يصقل شخصيته، ويسمو بنفسه إلى أن يتصف بسعة الأفق، وبعد النظر، ودقة الفهم، ووضوح الرؤية والمقصد، وسموّ الغاية والهدف، وقوة المنطق والحجة، فيعيش لغايات عظيمة، وينظر إلى أهداف

(٣٤٢) انظر: المصدر السابق، ص ٧٥٧-٧٥٨.

كبيرة، ولأجل ذلك لا يأبه بما يصيبه في الحياة الدنيا؛ لأنّه على يقين بالآخرة التي هي منتهى ما كان يسعى إلى تحقيقه. أمّا الذين يغفلون عن الآخرة فيقتصر همهم على أهداف قريبة، وآمال ومقاصد محدودة لا تتجاوز هذه الحياة، بل إنّ علومهم تتوقف بهم عند حدود ظاهر الحياة الدنيا، كما أخبر سبحانه: ﴿وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الروم:٦-٧) ويعكس هذا العلم الظاهري رؤية مادية إلى الحياة، تكون المادة فيه الموضوع الرئيس والأهم، وما سوى ذلك لا مجال للتفكير فيه؛ لأنّه في تصوّرهم لا وجود له!

ومن شأن الصفات التي يتمتع بها المؤمن بالآخرة، أن تنعكس إيجابا على تعامله مع كلّ من حوله، ومع الكون الذي يعيش فيه، ومع خالق هذا الكون ومدبر أمره، تعاملا إيجابيا فاعلا، يحقق غايات المسلم في الحياة، فيقيم العبودية الحقّ لله ربّ العالمين، ويعمّر الأرض على منهاج الوحي وهدايته، ويؤدّي الأمانة التي كلّف بحملها، ويقيم الخلافة التي خلق من أجلها، ويشهد على الناس، كما أخبر سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣)، وهذا يقود إلى حقيقة مفادها: أنّ المسلم هو أكبر إنسان في هذا الوجود، فهو العابد الحقّ لله ربّ العالمين، وهو الناصح الأمين، لذلك فهو الأحق بقيادة البشرية، وهذا من مقتضيات الشهادة على الناس، "لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ"، وهذا بعد تربوي يفتقر إليه كلّ من كفر بالآخرة وأعرض عنها؛ لأنّه لا يسعى إلا إلى اقتناص كلّ شهوة من مال، أو جنس، أو طعام، أو شراب، أو لباس.. إلى غير ذلك من مظاهر المتاع المادي، أو يسعى للإفساد في الأرض بالهيمنة، وسفك الدماء، والظلم، والاعتداء، وهو سلوك القوى الظالمة الغاشمة اليوم التي لا تؤمن بالآخرة، ولا بيوم الدين والحساب، فإنسان المدنية المعاصرة هذا غير مؤهل لقيادة البشرية.

وتنظر رسائل النور إلى واجبات الإنسان في الحياة نظرة متميزة؛ فمهمة الحياة ليست محصورة في تلبية حاجات النفس الأمارة بالسوء، إنّ خلق اللطائف والحواس والمشاعر في الإنسان يستند إلى أساسين، الأول: استشعار

شكر المنعم سبحانه. والثاني: معرفة أقسام تجليات أسماء الله الحسنى التي تعمّ الوجود كلّه، وعلى هذين الأساسين تنمو الكمالات الإنسانية، وبهما يغدو الإنسان إنسانا حقا،[٣٤٣] فالإيمان بالآخرة يورث كمالا يرغب فيه الإنسان، ويسعى إلى تحقيقه، فكما ينصرف قطاع عريض من الناس إلى الأكل والشرب والشهوة، ينصرف المؤمنون إلى تنمية كمالاتهم الإنسانية المتمثلة في القيام بواجب الشكر للمنعم سبحانه، والتوجّه إلى معرفة تجليات الأسماء في عالم الإنسان وحياته، فيرث طمأنينة وصبرا ووقارا.

إنّ قيمة الإيمان بالآخرة تضبط الحياة الإنسانية في مجالاتها كافة، يقول صاحب الرسائل: "إنّ عقيدة الآخرة هي أسّ الأساس لحياة الإنسان الاجتماعية والفردية، وأساس جميع كمالاته ومثله وسعادته".[٣٤٤]

وتحقيق الكمال من أهم الأبعاد التربوية التي يزداد بها الإنسان رفعة وسموّا واتزانا في الحياة الدنيا. فخطواته وكلماته وأفعاله موزونة عليه يوم القيامة، وهو محاسب عليها كذلك، ولذلك تراه يعدّ كلماته عدّا، ويحسب حركاته مخافة الوقوع في معصية أو إثم يقربه من مصير سيئ في النار يوم القيامة، فالإنسان يحفظ هيبته وإنسانيته بابتعاده عن المعاصي والآثام، وباجتنابه للرذائل والمنكرات؛ لأنّه بممارسته الشهوة والرذيلة يضمحل عقله، وتضعف إرادته، وتقوى داعية البهيمية فيه، مما يجعله أقرب إلى السلوك الحيواني منه إلى السلوك الإنساني، وبناء على ذلك نجد أنّ الإيمان بالآخرة يزيد من هيبة الإنسان ووقاره واتزانه، ويجعله بالفعل إنسانا كاملا.

ومظهر آخر من مظاهر الكمالات الإنسانية المتمثلة في الإيمان بالآخرة، ذكره الأستاذ بديع الزمان رحمه الله هو أنّ الإيمان بها يورث مقاومة شديدة لكلّ ما يصيب الإنسان في الحياة من منغصات، فيعيش سعيدا، ولولا ذلك لهدم الموت تلك القوة المعنوية للأطفال والشباب والشيوخ على حدّ سواء، ولماتت أحاسيسهم، وغلظت مشاعرهم، ولأصبحوا كالحيوانات الضالّة. أما الشيوخ فهذا باب الأمل لهم إلى الحياة؛ إذ لولاه لشعروا باضطراب نفسي، وفراغ روحي،

(٣٤٣) انظر: الكلمات، ص ١٣٦-١٣٧.

(٣٤٤) الكلمات، ص ١٠٤.

وقلق قلبي، ولضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، ولتحوّلت سجنا مظلما رهيبا. أما الشباب فليس من شيء يهدّئ فورة مشاعرهم، ويضبط سلوكهم، إلا الإيمان بالآخرة والخوف من جهنم؛ إذ لولاه لتحوّلت الحياة على أيديهم جحيما تتأجّج على الضعفاء، وهي الضابط كذلك للحياة الاجتماعية، التي تسودها في ظلّ الإيمان بالآخرة أبوّة محترمة مرموقة، وأخوّة خالصة نقية، وصداقة وفيّة نزيهة بين الزوجين. وأما الأطفال فلا يستطيعون أن يتحملوا تلك الحالات التي تبدو مؤلمة موجعة أمامهم من حالات الموت والوفاة إلا بما يجدونه في أنفسهم من القوّة المعنوية الناشئة من الإيمان بالجنة، ولولا هذا الإيمان لهدم الموت تلك القوّة المعنوية، ولحطّم نفسياتهم، ولدمّر حياتهم ونغّصها، فتبكي حينئذ جميع جوارحهم ولطائفهم من روح وقلب وعقل مع بكاء عيونهم.[٣٤٥]

بمعنى أنّ الكمالات الإنسانية لا تتوقف عند حدود الفرد نفسه، ولكنها تمتدّ بفضل الإيمان بالآخرة إلى أوسع حدّ ممكن، اتساعا يمتدّ من الأزل إلى الأبد، فعلاقات الأبوّة والأخوّة والصداقة علاقات ينظر إليها بهذا المعيار، فهي علاقات خالدة ممتدّة، فيظفر الإنسان بالصداقة التامّة، والوفاء الخالص، والإخلاص الأتمّ، في علاقاته وخدماته، فتبدأ كمالاته وخصاله بالسموّ والرقي بالنسبة نفسها، وتتعالى إنسانيته، ولكلّ حسب درجته.[٣٤٦]

ويزيد هذا الكلام توضيحا فيقول: "الإيمان بالآخرة يبعث الأمل في نفوس الأطفال ويدعهم يعيشون عيشة إنسان سوي ينطوي على نوازع إنسانية، ولولاه لاضطروا أن يقضوا حياة ملؤها الوقاحة والاضطراب والهموم الأليمة. كذلك الحال بالنسبة إلى الشيوخ، فلولاه لبات هؤلاء في حالة نفسية تعسة جدا، وفي قلق قلبي عنيف. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الشباب الذين إذا فقدوا الإيمان بالآخرة فسوف تكون أموال الناس وأعراضهم، وراحة الضعفاء وكرامة الشيوخ مهدّدة بالخطر؛ إذ قد يدمّر أحدهم سعادة بيت آمن لأجل لذة طارئة، إنّ الشباب قد يتحوّل إلى وحوش كاسرة، لكن الإيمان بالآخرة يهذّب سلوكه ونفسه،

(٣٤٥) انظر: الكلمات، ص ١٠٥-١٠٦. والشعاعات، ص ٢٣٨، ٢٨٠.

(٣٤٦) انظر: الشعاعات، ص ٢٧٩.

فتترشح قطرات الرحمة والرأفة والشفقة من أعماق قلبه، ويشعر بالاحترام لكلّ هؤلاء، وكلّ من حوله".[٣٤٧]

فتهذيب النفس للوصول بها إلى الكمال والطمأنينة والاستقرار بعد تربوي يطلع النورسي الناس على حقيقته، إنّها الحقيقة التي تبعث الاستقرار والطمأنينة في النفس المؤمنة، وهي حقيقة لا يدركها، ولا يلمس آثارها من لا يؤمن بالآخرة. وتبعث كذلك على بعد النظر، وامتداده إلى أبعد من حدود الحياة الدنيا، وذلك أنّ الإنسان مضطر إلى أن يملأ عقله وقلبه وروحه وإنسانيته بالأغذية المناسبة، والإيمان بالآخرة يلبي كلّ مطالب الإنسان ويفي بها، فضلا عن اللذّة الروحية العميقة التي يجدها نتيجة هذا الإيمان، لأنّه يدرك ويعلم حال أهل الجنة في الجنة، فلو بذل الإنسان حياته كلّها من أجل الفوز بالسعادة الباقية في الآخرة لما كان ذلك كثيرا.[٣٤٨]

وهنا في هذا المقام تجد رسائل النور الفرصة مناسبة كي تدعو علماء الاجتماعيات والإنسانيات، فضلا عن دهاقنة السياسة، لتوجّه لهم كلمة صريحة، فتقول: "فليلق علماء الاجتماع والسياسة والأخلاق من المعنيين بشؤون الإنسان وأخلاقه واجتماعه، وليأتوا ويبينوا بماذا سيملئون هذا الفراغ؟ وبماذا سيداوون ويضمدون هذه الجروح الغائرة العميقة؟"[٣٤٩] ليس إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر، والاستقامة في الحياة الدنيا على العمل الصالح، والتوجّه الدائم إلى الله الباقي.

ضبط العلاقات الاجتماعية وتوجيهها

من المعلوم أنّ واقع الحياة الإنسانية اليوم يضجّ بكثرة الآلام والمصاعب، ويعجّ بكثرة الأمراض النفسية والمتاعب؛ بسبب الاضطراب الكبير في نظام الحياة، والفساد الخطير في سلوك الناس، هذا الاضطراب له أسبابه الناشئة عن جهل في المعتقدات، وخلط في التصورات، بل انعدام أثر التصور الحق، والعقيدة الحق في نفوس الناس، فأصبحت الحياة كأنّها لغز يصعب فهمه، وفوضى لا يمكن التنبؤ بعواقبها، تقود الإنسان إلى هاوية سحيقة، وتجرعه من الآلام ما لا يتسع

(٣٤٧) انظر: الشعاعات، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٣٤٨) انظر: الشعاعات، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٣٤٩) الكلمات، ص ١٠٦.

إليه صدره، ولا تتحمله نفسه، فكثرت عمليات الهروب من هذه الحياة بالانتحار، والاعتداء على النفس الإنسانية بالقتل، واستباح الإنسان دم أخيه الإنسان، وسعى في الأرض فسادا يهلك الحرث والنسل، ويتلف الزرع والضرع!

إنّ السبب فيما يعيشه الإنسان من مآس: ضعف يقينه بوجود حياة أخرى، لذلك فهو يحاول أن يقتنص كلّ لذّة ممكنة مهما كان ثمنها، حتى لو أضرّ بالآخرين، وانتهك محارمهم، وسلب أموالهم ظلما وزورا، وغرق بالإثم والعدوان. ومن هنا فإنّ الثقة بأنّ الموت هو انتقال إلى حياة أخرى يجعل الإنسان مخلوقا متفائلا، لا تكبله الأحزان، ولا يضيره نقصان اللذة، وفوات حظه منها؛ لأنّه يوقن أنّ هذه الدنيا ليست نهاية الرحلة الإنسانية في الحياة. وترى رسائل النور تحذر من اتّخاذ الحياة الدنيا غاية، فتذكر: "أنّ كلّ من يجعل الحياة الدنيا مبتغاه، فسيكون في جهنّم حقيقة ومعنى، حتى لو كان يتقلب ظاهرا في بحبوحة النعيم، وإن كان متوجّها إلى الحياة الباقية، ويسعى لها بجدّ وإخلاص فهو فائز بسعادة الدارين، وأهل لهما معا حتى لو كانت دنياه سيّئة ضيقة، إلا أنّه سيراها حلوة طيبة، وسيراها قاعة انتظار لجنته، فيتحملها ويشكر ربه فيها، وهو يخوض غمار الصبر".[٣٥٠] ويؤيّد هذا المعنى جملة من آيات الكتاب العزيز، منها في حقّ الذين لا يؤمنون بالآخرة:

قول الله تعالى: ﴿والذين كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾(محمد:١٢)

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(طه:٢٤)

وتتأكّد هذه الحقيقة، حتى لو ملك ذلك المعرض عن الآخرة أموال الدنيا كلّها. ويقول سبحانه في حقّهم وحقّ المؤمنين أيضا: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾(النازعات:٣٧-٤١).

إنّ أسّ أساس جميع اختلالات وفساد الحياة الاجتماعية، ومنبع كلّ الأخلاق

(٣٥٠) الكلمات، ص ٣٧.

الرذيلة، راجع في نظر رسائل النور إلى الأنانية في احتكار المال والثروة، وإيثار الراحة على العمل، أو استقواء الأغنياء على الضعفاء، فحين يستأثر الأغنياء بالمال ولا يؤدّون زكاته، وحين يكون الربا هو المسيّر لشؤون الناس المالية فستنقلب الحياة جحيما. إنّ البشرية حين لم تصغ إلى هذا الكلام تلقت صفعة قوية، وعليها أن تصغي قبل أن تتلقى صفعة أقوى وأمر[٣٥١] في الدنيا قبل الآخرة. إنّ الدستور العملي الذي يتقرر بمحض السنّة الإلهية في الحياة، هو "أنّ عاقبة المعصية في الدنيا، دليل على العقاب الأخروي".[٣٥٢] يوم القيامة.

إنّ من الأبعاد التربوية التي يحقّقها الإيمان بالآخرة على مستوى الحياة الاجتماعية، توجيه المراحل العمرية للإنسان نحو الالتزام، فهناك الأطفال، وهناك الشباب، وهناك الشيوخ، إناثا كانوا أو ذكورا، وما من بيت، أو مدينة، أو بلد يخلو من هؤلاء، فيتجلى أثره في إقامة العلاقات بين هؤلاء على أسس المودّة والمحبّة والرحمة والتعاون، لا يطغى أحد على أحد، ولا يظلم أحد أحدا، وهنا يبين صاحب الرسائل أنّ حال بيت، أو حال مدينة، أو حال بلد، هو حال واحد من حيث تجلي الآثار الإيجابية للإيمان بالآخرة، وإلاّ فإنّ الحقد، والاضطراب، والآلام، والمنافع الشخصية، والاحتيال، والأنانية، والتكلّف، والرياء، والرشوة، والخداع، ستستولي على أهل كلّ بيت، أو مدينة، أو بلد. إنّ الإيمان بالآخرة يهتف قائلا للأطفال:

"دعوا الوقاحة والإهمال! فأمامكم جنّة النّعيم، فلا تشغلوا أنفسكم عنها بالألاعيب".

ويخاطب الشباب: "إنّ أمامكم نار جهنم، فانتهوا من السّكر والعربدة"

ويخاطب الشيوخ: "أبشروا فإنّ أمامكم شبابا خالدا ذا نضارة، وفي انتظاركم سعادة أخروية دائمة باقية، هي أسمى مما فقدتموه من أنواع السعادة، وأعلى منها، فهلمّوا واسعوا للفوز بها".[٣٥٣]

---

(٣٥١) انظر: المكتوبات، ص ٦٠٤-٦٠٥.

(٣٥٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٠٩.

(٣٥٣) الشعاعات، ص ٢٨٣-٢٨٤.

ويعود مخاطبا علماء الاجتماع والأخلاق قائلا: "فلترنّ آذان الاجتماعيين والأخلاقيين من المعنيين بشؤون الإنسان".[٣٥٤] وليصغوا إلى عظمة توجيه الوحي للحياة الاجتماعية، كيف يبنيها على أسس محكمة، تحفظ الحقوق لأصحابها، وتجعل من الرحمة والتعاون أسسا للتعامل بين أفراد المجتمع على الصعيد الاجتماعي، بل على مختلف الصعد.

خاتمة الفصل

وفي خاتمة هذا الفصل إن كان لا بدّ من تسجيل نتائج، فيمكن إدراجها في النقاط الآتية:

- إنّ أهم نتيجة يمكن الوصول إليها في هذه الأبعاد هي نظم الحياتين الدنيوية والأخروية في سلك واحد من حيث إنّ الأولى مقدمة والثانية نتيجة، ولا يمكن الفصل بين المقدمة والنتيجة في أيّ معادلة على الإطلاق.

- لقد عكست الأبعاد المعرفية حقيقة ما كشفت عنه رسائل النور ممّا في نصوص الوحي من معان عظيمة، دخلت على الإنسان من كل باب فأكثرت من تنويع الأدلة آخذة بعين الرعاية والاهتمام فهوم المخاطبين، وفتحت المجال واسعا؛ لإعادة قراءة أسماء الله الحسنى في ضوء دلالاتها اليقينية على الآخرة، دون التوقف عند حظ العبد من هذه الأسماء. واستخرجت من أركان الإيمان دلالات واضحة على الآخرة كذلك. وبينت أنّ في النظام الكوني، وفي إشارات العلوم، وفي فطرة الإنسان، وطبيعة استعداداته دلالات بينة على الآخرة.

- إنّ رسائل النور قد أعادت وضع قضية الآخرة على بساط البحث من جديد، لشيوع ظاهرة الإلحاد، وانتشار الثقافة المادية الغربية في البلاد الإسلامية. وكان الأسلوب الذي اعتمدته مبنيّا على التمثيل، والاستدلال بالشاهد على الغائب، مع الميل إلى يسر الأسلوب، ووضوح التعبير؛ لأنّ المقصود الأول بهذا البيان جمهور عوامّ المسلمين.

- وعلى الرغم من أنّ صاحب الرسائل قد استقلّ ببيان كثير من أوجه

(٣٥٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٤.

الاستدلال، إلا أنّه يبدو في بعض استدلالاته -أحيانا- أنّه قريب من المنهج الكلامي، وخصوصا الأشعري.

- وتأتي الأبعاد التربوية لتعكس طبيعة المهمّات والاستعدادات التي تهيّئ الإنسان لاستقبال عالم الآخرة، ويبدأ ذلك من المسلّمة الأولى، وهي حكمة وجود الإنسان في الحياة الدنيا، بل غاية هذه الحياة نفسها التي نفى الله تعالى عنها العبث.

ثم تكشف عن حقيقة الموت الذي اكتسى في رسائل النور بطابع إيجابي في نظر المؤمن؛ فهو ليس عدما، بل هو لقاء للأحبة الذين فارقهم الإنسان. نعم! هو في نظر أهل الضلالة عدم محض. ومن شأن هذه النظرة الإيجابية للموت أن تدفع الإنسان إلى الإعداد له، فهو حافز قوي للعمل، وهو أول مراحل الآخرة.

- والكمالات الإنسانية التي يحقّقها الإيمان بالآخرة بعد تربوي آخر، يرقى به الإنسان في الحياة الدنيا، ويزيده هيبة ووقارا، ويرفعه يوم القيامة مكانا عليّا. ويأتي البعد الأخير مقوّما للحياة الإنسانية في شتى مجالاتها، فيقوّم تصرّف الأطفال والشباب والشيوخ، ويضع حدّا للإنسان الذي يرغب في قهر أخيه الإنسان، وإذلاله واستعباده.

- لقد كشفت رسائل النور عن شيء جدير بالاهتمام، وهو دعوتها المتكررة للإنسان، وإرشادها له بضرورة توظيف هذا العمر الفاني في الدنيا بفعل الصالحات، واجتناب المحرّمات والمحظورات؛ لاكتساب عمر مديد خالد في كنف الرحمن سبحانه وتعالى، وهذا المقصد من أهم المقاصد التي تحقّق للآخرة أبعادها العملية الواقعية في حياة الإنسان، وبه يتحقّق التعاون والتراحم وتسود المحبةّ والمودّة بين الناس.

الفصل الخامس

بيان العولمة في عالم الإنسان

المبحث الأول

بيان أخلاقيات العولمة

المبحث الثاني

بيان العدالة في ضوء العولمة وتطبيقاتها في المجالين السياسي والاجتماعي

خاتمة الفصل

وتشتمل على أهم النتائج

الفصل الخامس

بيان العولمة في عالم الإنسان(٣٥٥)

مقدمة

لقد كانت آفاق النظرة النورية ممتدّة إلى فضاء واسع كبير، ومدركة ما سينجم عن التحدّيات الثقافية والاجتماعية من آثار سيّئة على الأمة المسلمة؛ نتيجة اتصالها بالغرب الذي تحكّم فترة طويلة في مجريات الحياة السياسية والاقتصادية في العالم الإسلامي لا يسانده في ذلك إلاّ قوّة غاشمة جبّارة، ورأس مال ضخم فتّاك. ولعلم النورسي ووقوفه على الثغرات الكبيرة في ثقافة الغرب ونظام حياته أدرك أنّ القوّة -مهما كانت- لا يمكنها أن تؤثر في مجريات حياة الإنسان، ولا يمكن أن تغّير مفاهيمه ومعتقداته. ورأى أنّ القوّة الحقيقية هي الحقّ، ومن هنا انطلق في مواجهة تلك التحديات، ووقف لكل أباطيل المدنية الحديثة وتزييفاتها بالمرصاد، وأكّد أحقيّة الإسلام في تولّي زمام قيادة البشرية.

ومن المؤكد أنّ مصطلح: العولمة (Globlization) من المصطلحات حديثة الظهور، وإن كان مضمونها -من حيث ما يعطيه من دلالة الهيمنة والسيطرة على الآخرين ثقافة وأخلاقا، أو سياسة واقتصادا- قد ترك بصماته على صفحات التاريخ البشري منذ عهد آدم أبي البشر عليه السلام! ففي مقولات إبليس -لعنه الله- كما وصف القرآن تظهر محاولات الغلبة على الآخرين والسيطرة عليهم، كما في قوله تعالى على لسانه:

---

(٣٥٥) يتشكل هذا الفصل من بحثين تم إلقاؤهما في مؤتمرين عالميين: أوّلهما كان بعنوان: أخلاقيات العولمة في فكر النورسي، وقد نشر ضمن بحوث المؤتمر العالمي السادس لفكر النورسي وعنوانه: العولمة والأخلاق، ٢٢-٢٠٠٢/٩/٢٤. وصدر عن شركة نسل، إسطنبول، سنة ٢٠٠٢، ص ص ٤٣-٥٦. والثاني كان بعنوان: قيمة العدالة وتطبيقاتها بين الإسلام والعولمة في المجالين السياسي والاجتماعي: قراءة في فكر النورسي. نشر ضمن بحوث المؤتمر الدولي الثامن لفكر النورسي وعنوانه: العدالة لأجل عالم أفضل للإنسانية، ١٨-٢٠٠٧/١١/٢٠وصدرت أعماله عن مؤسسة الثقافة والعلوم، إسطنبول، سنة ٢٠٠٧م. ص ٥٣٩-٥٥٨.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(ص:٨٢-٨٣).

وقوله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(الأعراف:١٦)

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر:٣٩)

وما ورد على لسانه من محاولة تشكيل نمط فكري أو سلوكي معين ثمّ فرضه على الآخرين، أو سلخهم عن ثقافاتهم وخصوصياتهم الدينية والثقافية كما وصف القرآن على لسانه: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾(النساء:١١٩).

أقول: في هذه المقولات كّلها تأكيد على أهداف حرب حزب الشيطان من بني آدم التي تهدف إلى توحيد المنظومة الفكرية والثقافية للآخرين على أساس من الهوى والشهوة ومشاقّة الله ورسله، فالنمط الذي يدعون إليه هو نمط الغواية والضلال والانحراف الخلقي والسلوكي والعقائدي، هذا النمط هو الذي يجب أن يفرض -في نظر هذا الحزب- على الناس كلّهم. وهذا منطق القوّة العمياء المتمثل في "المدنية الحديثة" كما يرى الأستاذ بديع الزمان، فهي صاحبة مشروع العولمة وراعيها، والمسؤول المباشر عنها، والحارس الأمين لها.

والقارئ في رسائل النور يجدها كأنّها كتبت لتنطق بالثبات في وجه العولمة، بل لتجابه هذه العولمة مبيّنة أخطارها وعوارها. لقد اطلع النورسي عن كثب على سياسة العولمة في بلاده التي وقعت ضحية في شباكها، فأفسدت السياسة والاقتصاد والتربية والاجتماع. فالمدنية الحديثة هدفها ومقصدها منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة التزاحم والتخاصم، ومن هنا تنشأ الجناية... وخدمتها الجذّابة تشجيع الأهواء والنوازع وتذليل العقبات أمامها، وإشباع الشهوات والرغبات، وشأن الأهواء والنوازع دائما مسخ الإنسان وتغيير سيرته، فتتغيّر بدورها الإنسانية وتمسخ مسخا معنويا.[٣٥٦]

أنّه يمكن وصف العولمة بأنّها عملية تحويل وتوحيد لجميع الأنماط الحياتية في المجالات المختلفة إلى نمط ثقافي واجتماعي وسلوكي وقيمي واقتصادي

(٣٥٦) الكلمات، ص ٨٥٥.

وسياسي... واحد، وهي عملية نشطة وسريعة لها قدرة فائقة على توظيف النتاج العلمي والتكنولوجي والإعلامي لخدمتها. وميدان عملها هو العالم كلّه. ووسائلها في ذلك الدول الموالية لنهجها والمؤسسات الدولية الكبرى: كالبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية، والشركات العملاقة العابرة للقارّات، وتكاد أهم المؤسسات الدولية المحايدة -كالأمم المتحدة- أن تركع لهيمنتها، وتعمل لمصلحتها، بل الغالب على سياستها ذلك الخضوع.

فالعولمة -إذن- إملاء لثقافة القوي السريع الغالب على الضعيف البطيء المغلوب، والنورسي لمّا رأى هذه الهجمة التي ترتكز على منطق القوّة الأعمى على الإسلام وأهله قام ليحفظ إيمان العوام ويدافع عنه من الذهاب أو الانحراف في مستنقع الرذيلة هذا، وتناول الموضوع من أكثر من زاوية، وتحدث عن الأخلاق من أكثر من ناحية، بل بين أخطر الميادين الأخلاقية التي تسعى المدنية الحديثة لتدميرها لدى المسلم، وإحلال ثقافة التبعية مكانها، وذلك إمعانا في طمس الهوية الحضارية الإسلامية لهذه الأمة.

وليس هذا فحسب، بل إنّ العولمة التي تتشدّق بالعدالة، وتنشئ لها محاكم دولية خاصّة، وتنادي بضرورة إقامتها قد أساءت إلى مفهوم العدالة كثيرا فكرا وسلوكا، قناعات وممارسات، فالعدالة تعدّ واحدة من أهمّ القيم الإسلامية وأبرزها، والحديث عنها هو حديث عن أقدس صفات الذّات الإلهية، وهو حديث عن الدنيا والآخرة معا، وهو حديث عن الوجود الإنساني والنظام الكوني، وهو حديث عن العلاقات التي تنظم نشاط الإنسان في اتصاله بالإنسان والكون والحياة. وهو حديث عن إثابة المطيعين ومعاقبة العاصين، وهو حديث عن عالم الغيب والشهادة... وهو حديث عن الجنة والنار. وهو حديث عن السياسة وعن نظام الحكم... إنّه حديث عن أحد الحقائق الأربعة في الوجود الإنساني، إضافة إلى: الحكمة والعناية والرحمة[٣٥٧] بكل هذه الأبعاد وهذا الشمول تناول النورسي قيمة العدالة في التصوّر الإسلامي. وهو حديث يستحق أن يحظى باهتمام الباحثين خاصّة إذا تمت مقارنة هذه القيمة بنظيرتها في سياسة العولمة ونهجها في الحياة!

(٣٥٧) انظر: الكلمات، ص ٩١.

والتساؤل الذي يطرح نفسه بكلّ وضوح: هل من الممكن أن تختلف قيمة العدالة في تصوّر المسلم عن نظيرتها في العولمة؟ وبعبارة أخرى، هل العدالة من القيم المطلقة أم من القيم النسبية؟ وهل هي قيمة ثابتة أم متغيرة وخاضعة لاعتبارات الزمان والمكان؟ وما الفرق بين العدالة بوصفها قيمة إسلامية، والعدالة بوصفها قيمة عولمية؟ وما الفارق -من حيث التطبيق في المجالين السياسي والاجتماعي- بين الإسلام والعولمة؟ هذا ما يحاول أن يجيب عنه هذا المبحث في ضوء حديث النورسي عن العدالة.

الأخلاق والعدالة وسيرة العولمة فيهما هو موضوع هذا الفصل، ولنبيّن موقف النورسي منها، والحلول التي يقترحها لمواجهتها بوصفه واحدا من أبرز المصلحين المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري.

المبحث الأول

أخلاقيات العولمة

١. أخلاقيات المدنية الحديثة

يوجّه النورسي دعوة إلى علماء الاجتماع وعلماء الأخلاق ليروا الفرق الهائل بين أخلاقيات الشريعة المعتمدة على الإيمان وأخلاقيات المدنية الحديثة، مدنية أوروبا أو مدنية العولمة، فيبيّن أنّ مبدأ الإيمان أساس ترتكز عليه كليات الأخلاق، وحين تفتقر المدنية الحديثة إلى هذا الأساس فسيستولي الحقد، والمنافع الشخصية، والاحتيال، والأنانية، والتكلف، والرياء، والرشوة، والخداع بدلا من أسس الأخلاق الحميدة التي هي الإخلاص، والمروءة، والفضيلة، والمحبّة، والتضحية، ورضى الله، والثواب الأخروي. وكانت معاني الإرهاب والفوضى والوحشية حاكمة ومسيطرة تحت اسم النظام والأمن والإنسانية التي يظهرونها، وحينئذ تتسم الحياة بوقاحة وإهمال أطفالها، وسكر وعربدة شبابها، وظلم وتجاوز أقويائها، وبكاء وأنين شيوخها... فلترنّ آذان الاجتماعيين والأخلاقيين من المعنيين بشؤون الإنسان لتعرف الحقّ والحقيقة.[٣٥٨] بل لتعلم

(٣٥٨) الشعاعات، ص ٢٨٣-٢٨٤.

قيمة الأخلاق الفاضلة في مجال التنمية والنهضة، وما ينتج عن هذه الأخلاق من راحة وطمأنينة للبشرية!

وهذا ما أكّده الأستاذ محمد فتح الله كولن من أنّ النورسي رأى أنّ أهم مشكلة يجب تناولها هي مشكلة الفوضى النابعة من الفكر والإلحاد، لذا قضى حياته كلّها وهو يؤكد لإنسان عصرنا ضرورة معالجة هذا الداء... لقد عاش في الوقت الذي أصبح فيه العلم والفلسفة أداة لدفع الناس نحو الإلحاد، وفي الوقت الذي تم فيه غسل الأدمغة بالشيوعية، والذي كان ينفى فيه ويهجّر من يرفع صوته ضدّ هذه السلبيات من مدينة لمدينة، ومن بلدة إلى أخرى، والأغرب من هذا أنّ كلّ هذه العمليات كانت تحدث باسم المدنية والمعاصرة التي انقلبت فيها المفاهيم حتى أصبحت الحركة الفوضوية حركة واسعة منتشرة تحمل سحرا وجاذبية.[٣٥٩]

لقد تناول رحمه الله أزمة المفاهيم التي تطلقها المدنية الحديثة وتعبث بها حتى بات على يقين أنّها مفاهيم معكوسة برّاقة، فيقول: "إنّ ما تراه المدنية ترقّيا ما هو إلا سقوط، وما تراه اقتدارا ما هو إلا ابتذال، وما تراه انتباها ما هو إلا انغماس في نوم الغفلة، وما تراه نزاكة[٣٦٠] ما هو إلا رياء نفاقي، وما تراه ذكاوة ما هو إلا دسائس شيطانية، وما تراه إنسانية ما هو إلا قلب الإنسانية حيوانية".[٣٦١]

وليست هذه المفاهيم فحسب، بل كلّ مفاهيم المدنية الحديثة المتصلة بالسياسة والاقتصاد وقضايا المرأة والأسرة كلّها مفاهيم مغلوطة في نظر النورسي؛ لأنّها لا ترتكز على قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر.

من هنا -كذلك- توجّه نقد النورسي وذمّه للمدنية المعاصرة مروّجة شعار العولمة من حيث كونها تنشر الكفر، وتعمل على خواء الروح وفقرها، فكيف لمن أصيب في قلبه وعقله ووجدانه وروحه بمصائب هائلة أن يسعد لأنّه في ذروة الرفاه والزينة بجسمه؟ هذه الحالة الجهنمية هي التي أهدتها المدنية

(٣٥٩) كولن، محمد فتح الله، تقديم كتاب المثنوي العربي النوري، مطبوع مع المثنوي، صفحة (ت).

(٣٦٠) النزاكة هي أن تقول في الإنسان غير الحقّ، انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، جمال الدين الإفريقي. لسان العرب، بيروت: دار صادر، (بلا تاريخ) ج ١٠، ص ٤٩٧.

(٣٦١) انظر: المثنوي العربي النوري، ص ١٩١.

أو العولمة للبشر، ثم تفطنت لهذا الداء العضال فوجدت دواء يبطل الحسّ بالجملة، وهو الملاهي الجذّابة، والهوسات الجلابة، فتعسا لها ولدوائها.[٣٦٢]

لقد خاطب النورسي العولمة بقسوة شديدة تناسب شدّة استخفاف صاحبتها -أوروبا- بالإنسان وأخلاقه، مبيّنا أنّ أوروبا قد أفسدت البشرية بتعاليمها وهوت بالإنسان من ذروة أعلى عليين إلى درك أسفل سافلين، ولا علاج ولا دواء لها إزاء هذا الوضع إلا ملاهيها الجذابة التي تدفع إلى إبطال الحسّ وتخدير الشعور.[٣٦٣]

إنّ المدنية الزائفة مسؤولة عن تشتّت الأفكار، وتدنّي الأخلاق[٣٦٤] ومن هنا رفض النورسي دعوة تلاميذ المدنية السفيهة الضالة وطلبة الفلسفة السقيمة المضّلة الذين سكروا باحتراصات عجيبة، وتفرّعنات غريبة، رفض دعواتهم إلى اتّباع عادات الأجانب، وترك شعائر فيها شعور وإشعار بأنوار الإسلام[٣٦٥] مشيرا إلى شعائر الإسلام وقيمه العليا ذات الأثر النيّر على قلوب بني البشر.

لقد أصبحت المدنية بما توصّلت إليه من معجزات في عالم الاتصال، ووسائل الإعلام أشدّ خطر وفتكا بالإنسانية، يتنبه النورسي إلى هذا الملحظ، فيقول: اعلم! أنّ المدنية السفيهة المصيّرة للأرض كبلدة واحدة يتعارف أهلها ويتناجون بالإثم، وبما لا يعني بالجرائد صباحا ومساء قد غلظ بسببها وتكاثف بملاهيها حجاب الغفلة، بحيث لا يخرق إلا بصرف همّة عظيمة، وكذا فتحت لروح البشر منافذ غير محدودة نظّارة إلى الدنيا يتعذّر سدّها إلا لمن خصّه الله بلطفه.[٣٦٦] وفي هذا تدمير لكلّ القيم المعنوية التي أقرّتها عدالة الشريعة الإلهية.

لا شكّ أنّ الإعلام مظهر خطير من مظاهر العولمة تذللّه المدنية الحديثة من أجل زعزعة الأخلاق الإسلامية والقيم الإنسانية العليا، ونشر ما يوهن العزّة والإقدام حتى أهلكوا الأفكار العامة السائدة بما يبثّ في الصحف والمجلات، ولذلك قام يتصدّى لهذه الحملة، ويهاجم أرباب الصحف ومحرّريها، ودعا في

(٣٦٢) المصدر السابق نفسه، انظر: ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٣٦٣) اللمعات، ص ١٧٨.

(٣٦٤) صيقل الإسلام، ص ٣٥٢.

(٣٦٥) انظر: المثنوي العربي النوري، ص ٣٦٠، والملاحق، ص ٣٥٢.

(٣٦٦) المثنوي العربي النوري، ص ٢٢٦.

مواجهة ذلك إلى:[٣٦٧]

- التأدّب بالآداب الإسلامية الفاضلة.

- تنظيم برنامج المطبوعات بما في الوجدان من شعور ديني ونيّة خالصة.

- ضرورة التميّز عن أوروبا وفلسفتها وأخلاقها، فالثورة الفرنسية ليست دستورا لنا، واستانبول ليست أوروبا، والأولى التفكّر بمتطلبات الوقت الحاضر بدل إشغال الناس بتطبيق نظريات أوروبا وفلسفتها.

ولا ينبغي أن ينصرف الذهن إلى أنّ النورسي يعارض المدنية والتحضّر والرقيّ فكثيرا ما بيّن في رسائله قيمة هذا التحضّر والرقيّ، وما له من أثر في سعادة الإنسانية، إنّه مع انتقاده سيئات المدنية الحاضرة وبيانه نواقصها وما جنته على البشرية من دمار لم يعارض إنتاجها المادي كالراديو وركوب القطار والطائرة...[٣٦٨]

وبيّن أنّ "الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهّد السبل للرقيّ الصناعي، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن، ولا تعارضها ولا يسعها ذلك".[٣٦٩]

ولذلك يتعامل مع المدنية الغربية على أساس دستور "خذ ما صفا، دع ما كدر"، وفي ضوء هذا الدستور سيأخذ من منتجات العولمة كلّ ما يعين على الرّقي من علوم وصناعات، أما العادات والأخلاق السيئة فهي ذنوب المدنية ومساوئها التي لا يتبيّن قبحها كثيرا لكونها محاطة بمحاسن كثيرة.[٣٧٠]

وحين سئل النورسي صراحة عن سبب ترك ما كان يدعو إليه من ضرورة التحضّر والتمدّن والرقيّ، ثم عاد ليصف المدنية بأنّها دنيّة، أجاب: إنّ المدنية الحاضرة الغربية لسلوكها طريقا مناقضا لأسس دساتير السماء وقيامها بمناهضتها، فقد طفح كيل سيئاتها على حسناتها، وثقلت كفّة أضرارها على فوائدها، فلقد

---

(٣٦٧) انظر: صيقل الإسلام، ص ٤٤٤.

(٣٦٨) انظر: الشعاعات، ص ٤٣١.

(٣٦٩) انظر: الملاحق، ص ٢٨٦.

(٣٧٠) انظر: صيقل الإسلام، ص ٤٦٨، ٥٣٠.

اضطرب أمن الناس واطمئنانهم، وأقلقوا وأسِنت سعادتهم الحقيقية؛ فاختلّ ما هو مطلوب من المدنية ومقصود منها، حيث قد حّلت بسببها نوازع الإسراف والسفاهة محلّ بوادر الاقتصاد والقناعة، واستمرأت ميول الكسل والدّعة، وهجرت مرعى السعي والعمل، ولقد ألبست هذه المدنية البشرية المضطربة لباس الفقر المدقع، وكستها أثواب الكسل والتقاعس الرهيب.[٣٧١]

وهذا كلام مستمدّ من حكمة القرآن الكريم وآدابه، ومن هنا يبيّن النورسي أنّ المدنية الإسلامية ستسبق مدنية أوروبا، وذلك بتكامل الوسائل التي يتوقف عليها العلم، وسنركب مباشرة المنطاد والقطار فنسبقهم بفراسخ وفراسخ، وذلك بما تُسَهل لنا هضم تلك الوسائل حقيقةُ الإسلام الجامعة للأخلاق الإسلامية والاستعداد الفطري الكامن فينا، وفيض الإيمان الذي نحمله.[٣٧٢] لقد حاول النورسي أن يقول للمدنية الحديثة: إنّ الإسلام هو الحلّ الناجع لكل مشكلاتكم في الحياة، وإلاّ فإنّ المستقبل سيكون لهذا الدين شاءت العولمة أم رفضت. وهذه نظرة تفاؤلية قد انبنت على أساس نهوض جيل مسلم يأخذ زمام المبادرة ويتقدّم لقيادة البشرية.

٢. أخلاقيات العولمة في ميدان السياسة

إنّ مجموعة رسائل الشعاعات والملاحق الثلاثة التي تصوّر دفاعات النورسي أمام ما عقد له من محاكمات في مدن شتى لهو أقوى مظهر على تغلغل العولمة بكلّ صورها ومظاهرها وميادينها في المجتمع التركي ونظام حكمه بعد سقوط الخلافة العثمانية، وقد أبرزت بكلّ وضوح موقفه من العولمة -المدنية الحديثة- بقوانينها ودساتيرها وأخلاقياتها التي انطبعت فيمن جرّوه إلى مثل هذه المحاكمات. إنّ فهم هذه المحاكمات على أنّها محاولات شجاعة من النورسي للتصدّي للعولمة ومفاهيمها من أجل الحفاظ على شخصية الأمّة من الذوبان في بوتقتها، وأنّها محاولة للثبات في وجه العولمة بكلّ قيمها وأخلاقها- هو فهم سديد، واستدلال رشيد، فرسائل النور كأنّها أُلّفت لتواجه هذا التحدّي الجديد

(٣٧١) الملاحق، ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٣٧٢) صيقل الإسلام، ص ٤٦٧.

الذي يواجه الأمّة، وهذا الخطر العظيم الذي يحدق بها على كلّ صعيد.

ويبرز النورسي ما عمّ صعيد السياسة من أخلاق: كالتعصب، والعنصرية، والدكتاتورية والاستبداد، فيذكر أنّه قد ظهر بظهور المدنية الحديثة مفاسد أخلاقية كثيرة، فالتعصب العنصري، والأنانية، والدكتاتورية العسكرية التي أعقبت الحرب العالمية، وما أفرزته الضلالة من القسوة وعدم الرحمة، فعمّ أشدّ أنواع الظلم، وأشدّ أنواع الاستبداد، بحيث لو قام أهل الحقّ بالدفاع عن حقوقهم بالقوّة لأصاب الكثير من الأبرياء والضعفاء أشدّ الظلم نتيجة الحيدة عن العدل، هذا هو السبب والحكمة من تهرّبنا الشديد ونفورنا من التعرّض للسياسة، وللحكم بأمر القرآن الكريم.[٣٧٣]

ولما كانت أخلاقيات سياسة العولمة كما تقدّمها المدنية الحديثة تسمح بأن يعاقب مائة بجريرة واحد، بل قد يباد شعب ويهجّر لأجل ظنّ وتهمة، وصف النورسي العولمة بأنّها وحشة مستحالة، ظاهرها مزيّن، باطنها مشوّه، صورتها مأنوسة، سيرتها موحشة.[٣٧٤] فأين هي قيمة الإنسان وكرامته في ظلّ هذه الأخلاق وهذه السياسة؟

لقد شبّه الأستاذ بديع الزمان السياسة حين تتجرّد من الأخلاق والقيم والفضائل بالوحش الرهيب.[٣٧٥] وكأنّ النورسي بهذا التشبيه، يصف واقع السياسة العالمية اليوم التي لا تختلف كثيرا عن السياسة في عصره، وتجّلي هذا الوحش المعروف بالنظام العالمي الجديد -أحادي القطب- الذي تقوده الولايات المتحدة بسياساتها المزدوجة غير الأخلاقية في نهب خيرات الشعوب والاستبداد بها، وفرض أخلاقها وقيمها عليها!

لقد وصف السياسة أنّها ألاعيب وكذب وأوحال ملوثة منتنة، ووصل إلى قناعة أنّ السياسة مستنقع عفن، هكذا هي في الواقع، وهكذا تقدّمها المدنية الحديثة؛ لأنّ طرف حبالها بأيديها.[٣٧٦] وهذا يوحي بهيمنة الغرب على سياسات

(٣٧٣) انظر: الشعاعات، ص ٣٤٦-٣٤٧.

(٣٧٤) المثنوي العربي النوري، ص ١٨١.

(٣٧٥) انظر: الكلمات، ص ٨٥.

(٣٧٦) انظر: المكتوبات، ص ٥٨-٥٩، ٧٠.

الدول الضعيفة عامة، وبلدان العالم الإسلامي على وجه الخصوص. يقول: إنّ السياسة الحاضرة بكثرة الكذب والحيلة والشيطنة فيها صارت كأنّها وسوسة الشياطين، فلا حق لهذه الوسوسة السياسية أن ترتقي إلى مقام تبليغ الوحي.[٣٧٧] وذلك حين سئل عن عدم تعرضه للسياسة في دروسه، فهلّ ينخرط في مقولات السياسة وأكاذيبها، أم ينشغل بنشر حقائق القرآن وهداياته؟

إنّ السياسة التي لا ترتكز على الخلق الفاضل والأمانة والصدق شرّ حقيق بأن يستعاذ بالله منه، ولذلك كان النورسي محقّا حينما استعاذ بالله من شرّ الشيطان، وشرّ السياسة؛ لأنّه حين رأى أحدهم يطعن في رجل فاضل ذي أمانة وخلق لأنّه ليس من حزبه، في الوقت الذي يثني فيه على رجل فاسق لأنّه من حزبه عندها يظهر أنّ السياسة بهذا المنطق تستبطن شرورا وآفات لا حصر لها.[٣٧٨] بل إنّه فضّل حياة البداوة على المدنية الحديثة الممزوجة بالاستبداد والسفاهة والذلّ التي تجعل من الأشخاص فقراء وسفهاء وسيئي الأخلاق.[٣٧٩]

ويتعرّض النورسي لمفهوم "الحرية" حيث حاولت المدنية الحديثة العبث به فأخرجته عن حدّ الاعتدال، يبيّن النورسي المعنى الحقّ للحرية، فيقول: "إنّ الحرية الحسناء ما هي إلا تلك المتأدّبة بآداب الشريعة والمتزيّنة بفضائلها، وليست تلك التي في السفاهة والرذائل، بل تلك حيوانية وبهيمية وتسلّط شيطاني، ووقوع في أسر النفس الأمارة بالسوء... إنّ الحرية ليست مسلك البلشفية ومذهب الإباحية. كلاّ، بل الحرية بالنسبة للإنسان تولّد العبودية لله سبحانه".[٣٨٠]

ويدعو إلى تحقيق العدالة والحرية على المستوى الشخصي فيعبّر كلّ إنسان عن رأيه دون كبت أو اضطهاد، لكن المدنية الحديثة لم تسمح حتى بأبسط هذه الحقوق، يبيّن هذه الحقيقة بأجلى بيان حين يذكر ردّا على ما اتخذته محكمة التحقيقات وقرار مجلس الوزراء من منع نشر رسالة المعجزات القرآنية لورود شرح ثلاث آيات قرآنية، هذا الشرح يعارض القانون المدني الحالي

(٣٧٧) المثنوي العربي النوري، ص ١٨٣.

(٣٧٨) الملاحق، ص ٣١٧.

(٣٧٩) صيقل الإسلام، ص ٤٦٢.

(٣٨٠) انظر: صيقل الإسلام، ص ٣٩٢-٣٩٤.

ويصادم المدنية، وهي آية الحجاب، وآية "فلأمّه السدس"، وآية "فللذكر مثل حظ الأنثيين"[٣٨١] فالتساؤل هنا قائم على مدى قبول أخلاقيات سياسة العولمة للرأي الآخر! ومدى تسامحها مع رأي آخر يقف إلى جانبها!

لقد أعلن النورسي رحمه الله أمام محكمة (آفيون). وحذّر كلّ التحذير من الانقياد لقوانين ودساتير غير أخلاقية للمدنية السفيهة، إنّها قوانين جائرة وحشية كما هي في البلشفية. وحذّر من الانحياز إليها تحت ضغوط أعدائنا ودسائسهم، فليس هناك قانون في العالم كّله ولا إنسان يملك ذرّة من الإنصاف يُكرِه الآخرين على قبول ما عندهم بترك ما عندنا.[٣٨٢]

إنّ من شأن اتّباع دساتير الغرب وقوانينه أن يؤدّي إلى إنكار جوهر الحياة الاجتماعية الإنسانية لاسيما للأمّة الإسلامية الذي يقوم على المحبة الخالصة بين الأقرباء، والرابطة القوية بين القبائل والطوائف، والأخوّة المعنوية التعاونية تجاه أخوته المؤمنين، ووجود علاقة فداء نحو قومه وجنسه، ووجود رابطة قوية لا تهتزّ مع الحقائق القرآنية، إنّ إنكار كلّ هذا يؤدّي إلى قبول الخطر الأحمر الذي يتربّص بنا في الشمال الذي يبذر بذور الفوضى، ويحاول القضاء على الأجيال وعلى القومية، ويحاول إزالة شعور القرابة وشعور القومية، وإفساد المدنية البشرية والحياة الاجتماعية إفسادا تاما.[٣٨٣]

إنّ الأمن السياسي لن يتحقق باتّباع مفاهيم العولمة، وأنّ المسلمين ليسوا بحاجة إلى من يحثهم على حبّ الدنيا والحرص عليها كما تسعى إلى ذلك العولمة، ولا يحصل الرقيّ والتقدم ولا ينشر الأمن والنظام في ربوع البلاد بهذا الأسلوب، بل هم بحاجة إلى تنظيم مساعيهم، وبثّ الثقة فيما بينهم، وتسهيل وسائط التعاون فيما بينهم، ولا تتمّ هذه الأمور إلا باتّباع الأوامر المقدّسة في الدّين والثبات عليها من التزام تقوى الله سبحانه وابتغاء مرضاته.[٣٨٤]

---

(٣٨١) انظر: الشعاعات، ص ٤٣٣-٤٣٦. سيأتي بيان تسلّط العولمة في جانب كبت الحريات مفصّلا في المبحث الثاني من منظور العدالة فضلا عن سقوط سياستها من منظور الأخلاق.

(٣٨٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٦١-٤٦٥.

(٣٨٣) نفسه، ص ٤٦٧.

(٣٨٤) اللمعات، ص ١٨٨.

ويرى النورسي أنّ المسلمين لو أظهروا بأفعالهم وسلوكهم مكارم أخلاق الإسلام، وكمال حقائق الإيمان، لدخل أتباع الأديان في الإسلام جماعات وأفواجا، بل لربّما رضخت دول العالم وقارّاته للإسلام، إنّ البشرية التي أخذت تصحو وتتيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة، أدركت كنه الإنسانية وماهيتها، وتيقنت أنّه لا يمكنها أن تعيش هملا بغير دين، بل حتى أشدّ الناس إلحادا وتنكرا للدين مضطّر إلى أن يلجأ إلى الدين في آخر المطاف... وما لم يوجد في صدفة القلب جوهر الدين الحق، فسوف تقوم قيامات مادية ومعنوية على رأس البشر، وسيكون أشقى الحيوانات وأذّلها.[٣٨٥]

بل يذهب النورسي -وفق معطيات الوحي- إلى أبعد من ذلك، ويتنبأ بظهور المدنية الإسلامية بقوله: لمّا كانت مدنية أوروبا لم تتأسس على الفضيلة والهدى، بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكم، تغلبت سيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن، وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل ومؤشر قويّ على قرب انهيارها، وسبب مهمّ لحاجة العالم إلى مدنية آسيا الإسلامية التي ستكون لها الغلبة عن قريب.[٣٨٦]

إنّ العولمة في صورتها المعاصرة عند النورسي تسير باتجاه بعيد جدا عن حكمة الخلق وغايته، وتشغل وقت الإنسان وحياته لهذه الدنيا فقط، فيقول: يا من يدعو المسلمين إلى الدنيا أخطأت، أتحسب أيّها الغافل أنّ المطلوب بالذات من الإنسان عمارة الدنيا، واختراع الصنايع وتحصيل الرزق، وغير ذلك مما يعود على الدنيا؟ والحال أنّ صاحب الملك الذي أمره بين الكاف والنون يقول ويصدّقه الوجود والكون والواقع وتجهيزات الفطرة الإنسانية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)[٣٨٧]

إنّ التصور الصحيح للسياسة في فكر النورسي هو أن تكون السياسة عاشقة لنور حقائق القرآن الكريم.[٣٨٨] ومن شأنها أن تكون عندئذ سياسة عادلة مستقيمة

---

(٣٨٥) صيقل الإسلام، ص ٤٩٤.

(٣٨٦) نفسه، ص ٥٠١.

(٣٨٧) المثنوي العربي النوري، ص ٢٧٦.

(٣٨٨) المكتوبات، ص ٦١.

ذات أخلاق، وليست ذات نفاق!

٣. أخلاقيات العولمة في ميدان الاقتصاد

إنّ الميدان الاقتصادي يعدّ من أخطر ميادين العولمة إن لم يكن أخطرها على الإطلاق، لما له من أثر على مختلف ميادين الحياة الإنسانية، لأنّه يعني بكلّ وضوح هيمنة النمط الاقتصادي الغربي بكلّ نظرياته ومفاهيمه وسلوكياته على شعوب الأرض وأممها وهو ما عبّر عنه بعض منظري فكر العولمة بقوله:'' نحن أمام معارك سياسية وحضارية فظيعة، العولمة هي الأمركة، والولايات المتحدة قوّة مجنونة، نحن قوة ثورية خطيرة، وأولئك الذين يخشوننا على حق، إنّ صندوق النقد قطة أليفة بالمقارنة مع العولمة، في الماضي كان الكبير يأكل الصغير، أما الآن فالسريع يأكل البطيء.[٣٨٩]

على الرغم مما قد يبدو من رفاهية ورغد عيش تنعم به المدنية الحديثة صاحبة مشروع العولمة إلا أنّ العالم الإسلامي معرض عنها كلّ الإعراض -كما يقول النورسي- لأنّها كبّلت المسلمين بالأغلال، بل صارت سمّا زعافا للإنسانية بدلا من أن تكون لها ترياقا شافيا، إذ ألقت ثمانين بالمائة من البشر في شقاء، لتعيش عشرة بالمائة في سعادة مزيّفة، وتعيش العشرة الباقية في حيرة بين هؤلاء وهؤلاء، وتتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة[٣٩٠]؛ لأنّ مبدأ الأخلاق منتف تماما من نظمها الاقتصادية ومن أخلاقياتها تجاه بني الإنسان. وتجمع الأرباح في أيدي ثلّة من الناس بسبب الربا الذي يمثل "إيدز" الاقتصاد لهو دليل قاطع على تجرّد العولمة من أيّ أساس أخلاقي.

وكما أنّ دعاة العولمة هم في ميدان السياسة وحوش ضارية، وذئاب جائعة، وكلاب مسعورة، كذلك هم في ميدان الاقتصاد على حدّ تعبير النورسي الذي يقول: إنّ معظم هؤلاء المدنيين لو قَلَبتَ باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والدبّ والخنزير[٣٩١] بسبب فقدان

(٣٨٩) نقلا عن: درويش، أحمد. تحديات الهوية العربية بين ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، مصر: مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩٨ لسنة ٢٠٠٠م، ص ٧.

(٣٩٠) الكلمات، ص ٨٥٦.

(٣٩١) المصدر السابق نفسه، ص ٨٥٥.

العولمة بوصلة الاتجاه الذي يدلّها على الإيمان، ويكسبها ثوب العفّة والفضيلة والرحمة والشفقة، ويعلمها قيمة الأخلاق، فالأخلاق التي لا تدرّ نفعا ماديا عاجلا ليست أخلاقا في نظر العولمة! والقيم الفاضلة التي لا تأتي بذلك النفع المادي العاجل لا قيمة لها، وليست في قاموس مصطلحاتها، فهل تجد معنى للإيثار في قاموس العولمة؟ كلاّ!

لقد أطلقت المدنية الحديثة العنان لشهوات النفس وحظوظها غير آبهة بما يعرف بالاقتصاد الذي هو العزّة والكرم بعينه، بينما الخسّة والذّلة هما حقيقة ما يقوم به المسرفون المبذّرون من سخاء ظاهري، يبين النورسي هذا ويذكر أنّه بعد الحرب العالمية الثانية اضطرت البشرية إلى التشبث بالاقتصاد والالتفاف حوله عنوة.[٣٩٢]

إنّ الإسراف وعدم القناعة وأكل الحرام تتنافى مع الحكمة الإلهية، وإنّ الاقتصاد والقناعة تنسجم مع الحكمة الإلهية، وعليه ترتكز أخلاقيات النظام الاقتصادي كما يصوّرها النورسي في "رسالة الاقتصاد" ويبيّن أنّ اليهود يحصلون على أرزاقهم كفافا بطرق غير مشروعة ممزوجا بالذلّ والمسكنة بسبب حصرهم وتعاملهم بالربا، واتّباعهم أساليب المكر والخداع.[٣٩٣]

لقد انطلق النورسي إلى الاقتصاد في معناه الضيق الذي يعني حدّ الاعتدال في الإنفاق بلا إسراف ولا تقتير؛ لأنّ حدّ الاعتدال هذا يؤدي إلى الاعتدال في استثمار المال وتحصيله وإنفاقه، إنّه اعتدال يتّكئ على جملة من الحقائق القرآنية المتعلقة باستثمار المال والمستندة إلى الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر.

أما الاقتصاد في معناه الواسع فقد وضع الأستاذ بديع الزمان قانونا مفاده أنّ انتعاش الاضطرابات يكون بموت الزكاة وحياة الربا، وذلك أنّ محرك جميع أنواع السيئات والأخلاق الدنيئة ومنبعها كلمتان:

الأولى: إن شبعت أنا فما لي إن مات غيري من الجوع!

---

(٣٩٢) انظر: اللمعات، ٢٢٤، ٢١٧. والمقصود بالاقتصاد هنا الاعتدال وترشيد الاستهلاك، وعدم المبالغة في الإنفاق.

(٣٩٣) اللمعات، ص ٢٢١.

الثانية: تحمّل أنت المشاقّ لأجل راحتي، اعمل أنت لآكل أنا، لك المشقّة وعليّ الأكل.

إنّ الكلمة الأولى الغدّارة النهمة الشنعاء هي التي زلزلت العالم الإنساني، فأشرف على الخراب. والكلمة الثانية الظالمة الحريصة الشوهاء هي التي انهارت بترقيات البشر فأوشك أن تنهار بها في نار الهرج والمرج.[٣٩٤]

ولذلك يبيّن أنّ على البشرية قتل جميع أنواع الربا، إن كانت تريد الحياة، ويعالج من خلال الزكاة الإشكالية القائمة بين الخواصّ والعوام، أو طبقة الأغنياء والفقراء، حينما تنقطع صلة الرحم بين طبقة الخواص والعوام ينطلق من العوام أصداء الاضطرابات، وصرخات الانتقام، ونفثات الحسد والحقد، وتنزل من الخواص على العوام نار الحقد والتحكم، ورعد التحقير، هذا كلّه بسبب إهمال وجوب الزكاة وحرمة الربا المؤدّيين إلى انفراج المسافة بين الطبقات.[٣٩٥]

ويبيّن النورسي بما هو ثابت بالتجربة وبالرجوع إلى وقائع الأحداث أنّ دفع الزكاة والأخذ بالاقتصاد سببان للبركة والاستزادة، بينما الإسراف ومنع الزكاة يرفعان البركة.[٣٩٦] تصديقا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(إبراهيم:٧) وقول رسول الله ﷺ: "ما نقصت صدقة من مال..." الحديث.[٣٩٧] فالبركة مفهوم أصيل من مفاهيم الاقتصاد الإسلامي، في حين لا تجد لهذا المصطلح أيّ معنى في قاموس العولمة واقتصادها.

---

(٣٩٤) إشارات الإعجاز، ص ٥٤. تناول النورسي هاتين الكلمتين من منظور اقتصادي، وبيّن انعدام الأساس الأخلاقي الذي تستند إليه هاتان الكلمتان، فهما كلمتان لا تقومان على أيّ فضائل أخلاقية. وسيأتي نقدهما من منظور العدالة.

(٣٩٥) المصدر السابق نفسه، ص ٥٤-٥٥. وانظر: الكلمات، ص ٨٥١.

(٣٩٦) اللمعات، ص ٢٢٣. وتصديقا لتوقعات النورسي فإنّ نظام الاقتصاد العالمي يعاني من أزمات هائلة تنذر بانهياره بالكلية، وتشهد أسواق المال العالمية اضطرابات حادّة وصعوبات خانقة (في شهر رمضان ١٤٢٩هـ الموافق أيلول ٢٠٠٨م) تكاد أن تعصف بها، والسبب هو ما بين النورسي: من جشع وطمع وربا وفوائد بغير وجه حقّ، وتكديس الثروة بيد شرذمة قليلة تتحكم في مصير أمم وشعوب.

(٣٩٧) النيسابوري. الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، ج ٤، ص ٢٠٠١، ح٢٥٨٨.

٤. أخلاقيات العولمة في ميدان المرأة

تعنى المدنية الحديثة اليوم بالمرأة وقضاياها، وتوليها اهتماما وعناية فائقة، وتطرح مفاهيم حول حقوقها، ويجب أن ينظر البشر إلى حقوق المرأة من خلال ما تراه المدنية الحديثة. والنورسي ذلك الجبل الشامخ في وجه العولمة وأعاصيرها يقف على هذا الصعيد مبيّنا عجز هذه المدنية إزاء إعجاز القرآن الذي يتحدّى به كلّ مفاهيم العولمة في شؤون المرأة وحقوقها. ومن الأمثلة على ذلك أنّ المدنية الغربية اليوم تدعو إلى المساواة في الميراث بين الرجل والمرأة، وتستنكر أن يكون للذكر مثل حظّ الأنثيين هذا أولا، وأما ثانيا فهي تحرّم الأم من الميراث، ومن خلال هذين المثالين يبين النورسي مدى الظلم والإجحاف في الحقوق المدنية للحضارة الحديثة التي تخالف أحكام القرآن الكريم.

ففي قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء:١١) تتجلّى الحكمة والعدالة وعين الرحمة، وذلك أنّ نفقة المرأة على زوجها واجبة، لهذا نقص نصيبها في الإرث هذا جانب العدل، أما جانب الرحمة فيه، فهو أنّ الأب لا ينظر إلى ابنته بتلك التي ستذهب بنصف ثروته إلى الأجانب، ولا الأخ يرى فيها منافسة له يمكن أن تبدّد نصف ثروة أبيهما بوضعها في يد الأجانب، وعليه فلا يعكّر صفو تلك الرحمة والحماية حقد ولا كدر، ومع أنّها تفقد في ظاهر الأمر شيئا قليلا -من المال- إلا أنّها تكسب بدلا منه ثروة لا تفنى من شفقة الأقارب وعطفهم عليها ورحمتهم بها.[٣٩٨]

ويؤكد أنّ المدنية قد ظلمت المرأة بإعطائها إن كانت بنتا أكثر من حّقها، واقترفت ظلما أدهى وأنكى بحقّ الوالدات، وذلك بحرمانهن من حقوقهن، وهذا ظلم مريع، وعمل إجرامي، وإهانة بحقّهن، فإن لم يدرك هذا وحوش البشرية الذين يدّعون خدمتها فإنّ حكم القرآن الكريم: ﴿فلأمّه السُّدُس﴾(النساء:١١) هو عين الحقّ، ومحض العدل.[٣٩٩] هذه الكلمات هي التي زجّت برسائل النور مع صاحبها في غياهب السجون!

---

(٣٩٨) المكتوبات، ص ٤٨-٤٩.

(٣٩٩) المصدر السابق نفسه، ص ٤٩.

ومن الأمثلة الأخرى التي حاولت المدنية الحديثة تعميمها على البشرية قضية التبرّج وترك الحجاب بزعم أنّه من حقوق المرأة ومن دواعي حريتها التي يجب أن تتمتع بها، وإزاء هذا الوضع يطرح النورسي شعارا يقول: إذا تأنث الرجال بالتهوّس، ترجّل النساء بالتوقّح! ليبيّن به آفات العولمة على صعيد هذا الحق من حقوق المرأة! لأنّ في تكشف النساء تكشف عن الأخلاق السيئة في الإنسان المتحضّر.(٤٠٠)

إنّ العولمة -المدنية الزائفة- في فكر النورسي لا ترى في الحجاب أمرا فطريا للنساء، بل تعدّه أسرا وقيدا لهن، لذلك قام يبرهن على أنّ الحجاب مما تقتضيه فطرة النساء، وذلك أنّ رّقة الطبع وسرعة التأثر في المرأة ترغبهن فطرة في الحجاب حذرا من التعرّض والتجاوز عليهن لئلا يكنّ موضع تهمة من قبل أزواجهن فإفساح المدنية السفيهة المجال للتبرّج يناقض الفطرة الإنسانية، وذلك للأسباب الآتية:

- إنّ رفقة الزوج للزوجة لا يكون في الحياة الدنيوية فقط، بل هو رفيق لها في حياة أبدية خالدة، فإزاء هذا لا بدّ للمرأة أن تخصّ زوجها وحده بجمالها ومفاتنها، وتقصر محبتها به. والمطلوب شرعا أن يكون الزوجان متكافئين في الدّين الذي هو أهم مظاهر الكفاءة، وما دام المصير الذي يربطهما مصير أبدي فتقليد أحدهما للآخر في التديّن أمر ضروري؛ لئلا يفقد أحدهما الآخر، فالويل والثبور لزوجين يقّلد أحدهما الآخر في الفسق والفجور فيتسابقان في دفع بعضهما في النار.

- إنّ التبرّج مخلّ بالثقة بين الزوجين، ويؤدّي إلى انبعاث إحساس دنئ وشعور سافل قبيح في النفس، فضلا عما تسبّبه من زوال ذلك الحبّ الخالص. ثم إنّ النظر المحرّم الذي تتيحه المدنية إلى مواضع الفتنة في المرأة سقوط مريع للإنسانية تقشعرّ من بشاعته الجلود.

- إنّ التبرّج يحدّ من الزواج، ويقّلل من التكاثر، ويطلق الشهوات من عقالها، وهذا يؤدّي حتما إلى الإفراط وتجاوز الحدود، وإلى ضعف النسل،

(٤٠٠) نفسه، ص ٦١٢.

وانهيار القوى وانتشار الفاحشة، ولذلك كان من العدل أن تصبح تلك السيقان المدجّجة بسلاح الفتنة الجارح حطب جهنم يوم القيامة.[٤٠١]

لقد تفطّن النورسي إلى تلك المنظمات السرّية التي تسعى لإضلال الشباب وتعكير صفو الحياة الأسرية، بتذليل سبل الشهوات أمامهم وسوقهم إلى السفاهة والغواية لإفساد المجتمع الإسلامي كذلك، والإضرار بالدين الإسلامي، كما أحسّ بوجود منظمات تعمل في الخفاء، وتسعى سعيا حثيثا لدفع الغافلات من النساء إلى طرق آثمة، وأدرك أنّ ضربة قاصمة على هذه الأمة الإسلامية تأتي من تلك الجهة.

في مقابل هذا كلّه يطرح النورسي التربية الدينية بوصفها علاجا فعّالا لمقاومة أخلاقيات العولمة، ويواجه ما تطرحه العولمة فيما يخصّ المرأة وحقوقها، فيدعو إلى التأدّب بالآداب الإسلامية هذا أولا، وأما ثانيا، فأن تسعى الزوجة لإكمال نقص زوجها إن رأت منه انحرافا، لا أن تقابل انحرافه بانحراف آخر من جهتها.[٤٠٢] فتباريه في الضلالة والغواية!

لقد حاربت المدنية الحديثة تعدّد الزوجات بوصفه مظهرا يدلّ على التخّلف وأنّه ينافي حقوق المرأة، فيذكر النورسي أنّ هذا الموضوع لم ترَ فيه المدنية مسايرة لما تدعو إليه، ويبيّن أنّ هذا الأمر يتعذّر رفعه؛ لأنّه مستأصل في الطبيعة البشرية، ولو رفع لاقتضى قلب الطبيعة البشرية رأسا على عقب؛ لأنّ تعدّد الزوجات إلى أربع موافق لطبيعة الإنسان والعقل والحكمة، لقد عدّلت الشريعة ما كان سائدا أيام الجاهلية، فلم تشرع التعدّد من الواحدة إلى الأربعة ابتداء، بل نزّلتها ونّقصتها من الزوجات الثمانية والتسعة إلى الأربعة، ووضعت شرائطها في التعدّد بحيث لا تؤدّي مراعاتها إلى ضرر ما، ولو حصل في بعض النقاط شرّ، فهو شرّ أهون من شرّ، وأهون الشرّ عدالة نسبية؛ إذ الخير المحض لا يمكن أن يحصل في جميع أحوال العالم.[٤٠٣]

إنّ هؤلاء الأجانب قد سلبوا منّا أموالنا الثمينة وأوطاننا بثمن بخس دراهم

---

(٤٠١) انظر: اللمعات، ص ٢٩٩-٣٠٤.

(٤٠٢) نفسه، ص ٣١٠-٣١١.

(٤٠٣) انظر: صيقل الإسلام، ص ٤٢٥-٤٢٦.

معدودة مزوّرة، كذلك فقد سلبوا منا قسما من أخلاقنا الرفيعة وسجايانا الحميدة التي بها يترابط مجتمعنا، وجعلوا تلك الخصال الحميدة محورا لرقيّهم وتقدّمهم ودفعوا إلينا نظير ذلك رذائل طباعهم، وسفاهة أخلاقهم.[٤٠٤] بل باتت المجتمعات الإسلامية تتبارى في استيراد أخلاقيات المدنية الحديثة وسلوكياتها، وتتباهى بها، لا على صعيد المجتمعات فحسب، بل على المستوى الفردي كذلك!

المبحث الثاني

بيان العدالة في ضوء العولمة وتطبيقاتها في المجالين السياسي والاجتماعي

١. مفهوم العدالة بين الإسلام والعولمة

يعرف العلماء العدالة بأنّها الاستقامة في اللغة، وفي الشريعة الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب عمّا هو محظور دينا[٤٠٥] وتقتضي دفع الحقّ إلى أصحابه، وإنصاف المظلوم من ظالمه. لكنّ النورسي حين يتناول العدالة لا يجعلها مقتصرة على الفصل بين متنازعين بالعدل، ولا استقامة لشخص على طريق الحق، فهذا من العدالة، بل يصفها بأوسع من ذلك، فيقول: "إنّ العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلّي الأعظم لاسم "العدل" إنّما تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل"،[٤٠٦] فهي تجلّ لاسم الله العدل. ويظهر أثر هذا التجلّي الأعظم في الموازنة بين عموم الأشياء في أنفسنا وفي كلّ شيء من حولنا، وفي مقادير الأشياء في الخلق والرزق. فالعدالة نظام كوني.

هذه السّعة وهذا الشمول لمفهوم العدالة مستمدّ من سعة الإيمان الذي جاءت به الشريعة، لقد وصلت القناعة لدى النورسي بقيم الشريعة وحقائقها التي هي سبب السعادة، والتي هي العدالة المحضة إلى أن يقول: لو كانت لي

---

(٤٠٤) نفسه، ص ٥١٣.

(٤٠٥) الجرجاني، محمد بن علي. التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ ص ١٩١.

(٤٠٦) اللمعات، ص ٥٢٦.

ألف روح لكنت مستعدا لأن أضحي بها في سبيل حقيقة واحدة من حقائق هذه الشريعة[٤٠٧] الغرّاء.

وعلى صعيد آخر، يؤكد التجلّي الظاهر للعدالة، وهو: المساواة، ويبيّن أنّ العدالة التي لا مساواة فيها ليست عدالة أصلاً[٤٠٨].

في حين تنظر العولمة -وهذا من المعلوم واقعا- بأفق ضيق مستند إلى نظرة مادية ضيقة، حين ترى أنّ العدالة ما هي إلا وصول صاحب الحقّ إلى حقّه الذي كفله له القانون؛ وذلك بحسب الأدلة الظاهرة. وهذا القانون ما هو إلا إنتاج وضعي صنعته عقول البشر المحدودة، ولا تنظر العولمة في الاستقامة بوصفها أساس العدل، فلو زنى شخص أو أكل الربا، أو ارتكب الموبقات كلّها شريطة أن لا يؤذي أحدا فهو عدل وذو عدالة؛ لأنّ القانون الوضعي جعل ممارسة كلّ هذه الموبقات واقع تحت اسم الحرية الشخصية التي يمارسها كلّ شخص باسم القانون؛ فالعولمة وقوانينها قلبت الأمور، وبدّلت القيم، فأصبح الحقّ باطلا والباطل حقا. ولقد أطلق النورسي على قسم من القوانين الحديثة للدولة التي سنّت هذه القوانين الانقلابية ووضعتها موضع التنفيذ اسم: "الاستبداد الكفري الاعتباطي"[٤٠٩]؛ لأنّها مجافية للحق، مجانبة للصدق، بعيدة عن هداية الشرع، مصادمة لفطرة الإنسان وروحه وقلبه، فأين العدالة التي تحققّها للإنسان! وكأنّ أهمّ مراتب العدالة ومظاهرها أن لا يظلم الإنسان نفسه بزجّها في مستنقع الشهوة والرذيلة.

٢. أقسام العدالة

يقسّم النورسي رحمه الله العدالة فيجعلها في قسمين[٤١٠]: الأول إيجابي، والآخر سلبي، فالإيجابي هو: إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، فهذا القسم من العدالة محيط وشامل لكلّ ما في هذه الدنيا لدرجة البداهة، أيّ: إنّ هذا القسم من العدالة ظاهر ظهور الوجود والحياة.

---

(٤٠٧) انظر: صيقل الإسلام، ص ٤٤٠. وانظر: سيرة ذاتية، مصدر سابق، ص ١٠٨.

(٤٠٨) الكلمات، ص ٨٧٣.

(٤٠٩) الشعاعات، ص ٤٨٨.

(٤١٠) الكلمات، ص ٩١.

أما القسم السلبي فهو تأديب غير المحقّين، أيّ: إحقاق الحق بإنزال الجزاء والعذاب عليهم، فهذا القسم وإن كان لا يظهر بجلاء في هذه الدنيا إلا أنّ هنالك إشارات وأمارات تدلّ على هذه الحقيقة، خذ مثلاً سوطَ العذاب وصفعات التأديب التي نزلت بقوم عاد وثمود، بل بالأقوام المتمرّدة في عصرنا هذا، مما يظهر للحدس القطعي هيمنة العدالة السامية وسيادتها.

ويربط النورسي قيمة العدالة بالوجود الإنساني في عالمي: الدنيا الآخرة من حيث الجزاء والعقاب -كما سبق بيانه- فيقول: أمن الممكن لخالق ذي جلال أظهر سلطان ربوبيته بتدبير قانون الوجود ابتداء من الذرّات وانتهاء بالمجرّات، بغاية الحكمة والنظام وبمنتهى العدالة والميزان أن لا يعامل بالإحسان من احتموا بتلك الربوبية وانقادوا لتلك الحكمة والعدالة، وأن لا يجازي أولئك الذين عصوا بكفرهم وطغيانهم تلك الحكمة والعدالة؟"[٤١١] فهي عدالة شاملة للوجود الإنساني والوجود الكوني بأسره، في حين تقصر العولمة عدالتها الجائرة على فضّ الخصومات بين المتنازعين في الحياة الدنيا بما تظهره القوانين الوضعية الخاضعة للأهواء السياسية، هذا إن لم تكن الخصومات بين أقوياء وضعفاء، أما إن كانت بين قويّ وضعيف فالعدالة مع القويّ بلا تردّد في رأي العولمة وعدالتها، وها هي سياستها في العالم تظهر صدق ما نقول.

إنّ العولمة الضيّقة لا تنظر إلا لجزء من القسم الأول من العدالة، وهو إعطاء كلّ ذي حقّ حقه متى ما توافرت مصلحة لها في ذلك. وأبرز الأدلة المؤيّدة لذلك، أنّها سارعت إلى إعطاء المسيحيين دولة في إندونيسيا اسمها: تيمور الشرقية، قضمتها من أرض إسلامية. وشعب فلسطين يعاني منذ عدّة عقود من أجل إقامة دولته على أرضه وتحريرها من الغاصب المعتدي، لكن كلّ محاولاته أجهضت بفعل قوى العولمة والدّاعمين لها، فالعدالة -في نظر العولمة- هنا قيمة نسبية مزاجية خاضعة لمقتضيات المصلحة والمنفعة، وليست قيمة مطلقة. أما متطلبات الضرورة التي يحتاجها كلّ ما في الوجود الكوني، فالعولمة غافلة عن هذا المظهر العظيم في تجلي العدالة الإلهية فيه.

---

(٤١١) المصدر السابق نفسه، ص ٦٨. وانظر: الملاحق، ص ١١٤.

ومن منظور آخر يحاول النورسي أن يؤصّل لمفهوم العدالة فيجعلها في نوعين: عدالة محضة، وعدالة نسبية أو إضافية، ويعرفهما بقوله: "العدالة المحضة، ذلك الدستور العظيم الذي ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة، فهم سواء في نظر العدالة الإلهية مثلما أنّهم سواء في نظر القدرة الإلهية، وهذه سنة دائمة، إلاّ أنّ الشخص يستطيع برغبة من نفسه أن يضحي بنفسه، من دون أن يُضَحّى به قطعاً، حتى في سبيل الناس جميعاً؛ لأنّ إزهاق حياته وإزالة عصمته وهدر دمه بإبطال حق الناس جميعاً شبيه بإزالة عصمتهم جميعاً، وهدر دمائهم جميعاً.[٤١٢]

ويبيّن النورسي أنّ العدالة المحضة تتطلب رعاية حقوق الرعية.[٤١٣]

أما العدالة الإضافية فهي أنّ الجزء يضحي لأجل سلامة الجميع، فهذه العدالة لا تأخذ حقّ الفرد بنظر الاعتبار لأجل الجماعة، وإنّما تحاول القيام بنوع من عدالة إضافية من حيث الشرّ الأهون. ولكن إذا كانت العدالة المحضة قابلة للتطبيق فلا يُصار إلى العدالة الإضافية، وإن صار إليها فقد وقع الظلم[٤١٤] لأنّ فيه عدم مساواة بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة مع القدرة على تحقيقهما معا.

وبالنظر فيما عليه واقع الحال نجد في سياسة العولمة أنّ المصلحة الخاصّة الشخصية هي الغالبة في دستورها ونظامها، وإلا فكيف نفسّر امتلاك قلّة قليلة من البشر ثروة تعادل ما يملكه نصف سكان الأرض، وكيف يملك ١٪ من سكان الولايات المتحدة ما نسبته ٩٩٪ من ثروة تلك البلاد؟ والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا: ألم تضع العولمة القوانين والأنظمة من أجل رعاية حقوق الأفراد! ليصل ما يملكه شخص واحد ما تملكه مجموعة دول وحكومات من دول العالم النامي، أليست المصلحة الذاتية الفردية الأنانية هي الغالبة والحاكمة لقوانين الاقتصاد والمال في العالم؟ فأيّ تطبيق منحرف للعدالة هذا؟

٣. موقع العدالة بين الإسلام والعولمة

العدالة ضرورة من ضرورات الفطرة الإنسانية، فالإنسان -سليم الفطرة-

(٤١٢) الكلمات، ص ٨٦٢.

(٤١٣) الكلمات، ص ٥٠.

(٤١٤) المكتوبات، ص ٦٧. وانظر: صيقل الإسلام، ص ٣٣٧.

يعشق العدل ويتعطش إلى إقامته؛ لوضع حدّ لسلطان الهوى السائد بين البشر. لقد بيّن النورسي مدى حاجة الإنسان إلى قانون العدالة، ونبّه إلى مصدره وهو الشريعة، فالعدالة -أيضا- ضرورة من ضرورات الاجتماع البشري.[٤١٥] أما العولمة فهي تنظر إلى العدالة على أنّها قيود وأغلال تحدّ من سطوتها في ابتزاز الشعوب والهيمنة عليها، ومسخ هويتها وثقافتها...

بيّن النورسي -رحمه الله- موقع العدالة في التصوّر الإسلامي، وأسّس لقيمتها بشمول يملأ أرجاء الكون، ويشمل عالمي: الغيب والشهادة، ويرتكز إلى حقيقة الشريعة والوحي المنزّل من عند الله تعالى على نبيه محمّد ﷺ؛ فالعدالة هي: إحدى المقاصد الأربعة من تنزيل القرآن الكريم إضافة إلى التوحيد والنبوّة والحشر،[٤١٦] وبما أنّ حقيقة الإسلام -الحاكمة على طبائع البشر إلى يوم القيامة والتي تمثل الإنسانية الكبرى- ما هي إلا تجلّ للعدالة الأزلية في عالم الكون[٤١٧]؛ فهي -لذلك- أساس الرقيّ الحقيقي والعدالة الحقّة.[٤١٨] ووظيفة رسائل النور هي تفصيل حقيقة هذه العدالة[٤١٩] وإذا كان ذلك كذلك، فإنّ العدالة قيمة مطلقة، لا تختلف باختلاف الزمان والمكان، ولا تتلون بالأهواء والأمزجة، أو المصالح والمنافع، فهي غاية من غايات الشريعة، ومقصد من مقاصد القرآن الكريم، ومن هنا تستمد ثباتها وخلودها، إنّها خالدة بخلود قيم القرآن وشريعته. إنّ العدالة ناشئة عن الحق في التصوّر الإسلامي، ومن شأن الحقّ دائما العدالة والتوازن، ومن هنا ينشأ السلام، ويزول الشقاء.[٤٢٠]

أمّا العولمة فنظرتها إلى العدالة تتلخص من خلال سلوكياتها في بلدانها وفي البلدان التي تعمل فيها قيم العولمة في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والإعلام، وخلاصتها أنّها نظرة نفعية ذرائعية، ومن ثمّ فهي قيمة نسبية، فإذا اتفقت العدالة مع مصالح العولمة وتطلعاتها فهي عدالة، وإن لم تتفق فهي

(٤١٥) إشارات الإعجاز، ص ١٤٧-١٤٨.

(٤١٦) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣.

(٤١٧) صيقل الإسلام، ص ٥١.

(٤١٨) الملاحق، ص ٣٧٣.

(٤١٩) المصدر السابق نفسه، ص ٣٧٧.

(٤٢٠) الكلمات، ص ٨٥٥.

ظلم وعدوان، لأنّ العولمة لا تفكر إلا بلغة القوّة، وتريد أن تفرض قيمها بلغة القوّة أيضا، فعلى سبيل المثال قامت دول العولمة بتدمير بلدين مسلمين كبيرين لفرض قيم العدالة والديمقراطية فيهما، وهما: أفغانستان والعراق، فهل هذه عدالة أم منافع ومصالح؟ وأين قيم العدالة والأخلاق في ثقافة العولمة إزاء إزهاق أرواح مئات الألوف من الناس بذرائع منافية للعدالة؟

٤. تطبيقات العدالة في المجال السياسي

ينطلق النورسي في فهمه للسياسة أو تعامله معها من رصيد فقهي إسلامي كبير وقف عليه ووعاه، واستفاده مما بيّنه علماؤنا السابقون، فالسياسة في اللغة من الفعل ساس، يقال: "سَاسَ الْأَمْرَ سِيَاسَةً بِمَعْنَى قَامَ بِهِ وَهُوَ سَائِسٌ مِنْ قَوْلِهِمْ سَاسَهُ وَسَوَّسَهُ الْقَوْمُ جَعَلُوهُ يَسُوسُهُمْ ، وَالسَّوْسُ الطَّبْعُ ، وَالْخُلُقُ يُقَالُ الْفَصَاحَةُ مِنْ سَوْسِهِ، وَالْكَرَمُ مِنْ سَوْسِهِ أَيْ مِنْ طَبْعِهِ فَهَذَا أَصْلُ وَضْعِ السِّيَاسَةِ فِي اللُّغَةِ. [٤٢١] ثُمَّ رُسِمَتْ بِأَنَّهَا الْقَانُونُ الْمَوْضُوعُ لِرِعَايَةِ الْآدَابِ، وَالْمَصَالِحِ وَانْتِظَامِ الْأَمْوَالِ. وَالسِّيَاسَةُ نَوْعَانِ سِيَاسَةٌ عَادِلَةٌ تُخْرِجُ الْحَقَّ مِنْ الظَّالِمِ الْفَاجِرِ فَهِيَ مِنْ الشَّرِيعَةِ عِلْمُهَا مِنْ عِلْمِهَا وَجَهْلُهَا مِنْ جَهْلِهَا. وَالنَّوْعُ الْآخَرُ سِيَاسَةٌ ظَالِمَةٌ فَالشَّرِيعَةُ تُحَرِّمُهَا". [٤٢٢]

وهذا الإمام ابن حزم الظاهري يبيّن غاية السياسة، فيقول: "إنّ الغرض من الإمامة حسن السياسة والقوّة على القيام بالأمور". [٤٢٣]

إنّ السياسة العادلة هي جزء لا يتجزأ من الشريعة في فكر النورسي، وهو يوافق بذلك من تقّدمه من العلماء، قال ابن القيم: ومن له ذوق في الشريعة، واطّلاع على كمالاتها، وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل، الذي يسع الخلائق، وأنّه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة

(٤٢١) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧، ج ٢، ص ٤٢٠، وانظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٠٧.

(٤٢٢) ابن نجيم المصري، زين الدين بن إبراهيم. البحر الرائق شرح كنز الدقائق ج ١٣، ص ٤١، المكتبة الشاملة. نقلا عن المقريزي في مواعظ الاعتبار، ج٢، ص ٤٢٠.

(٤٢٣) ابن حزم الظاهري، علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة: مكتبة الخانجي، (بلا تاريخ)، ج ٤، ص ١٣١.

فوق ما تضمنته من المصالح: تبين له أنّ السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأنّ من له معرفة بمقاصدها ووضعها وحسن فهمه فيها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتةَ.[٤٢٤]

وعن مفهوم "العدالة" التي تعظم الحاجة إليها في ميدان السياسة، يبيّن النورسي كم عبثت المدنية الحديثة المدنية الحديثة بهذا المصطلح، فوصف المدنية بأنّها مضلّلة للعدالة في سبيل إرضاء الزندقة والإلحاد فتراها تلاحق من ينطق بالحقّ، ويدعو الناس إلى نور القرآن،[٤٢٥] وها هي اليوم تلاحق الحريات الدينية، وتمنع بعض سلوكيات التديّن عند أبناء المسلمين المقيمين على أراضيها.

يبيّن النورسي هذه الحقيقة في ممارسة الجمهورية -التي هي شكل من أشكال الدولة- لها، فيقول: "الجمهورية عبارة عن العدالة والشورى وحصر القوّة في القانون، أليس من الجناية على الإسلام أن تستجدى الأحكام من أوروبا ولنا شريعة غرّاء تأسست قبل ثلاثة عشر قرناً؟ إنّ هذا الاستجداء شبيه بالتوجه إلى غير القبلة في الصلاة.[٤٢٦] وكفى بذلك إثما وبطلانا.

لقد أكّد هذه الحقيقة حين وصف ما كان عليه الصحابة الكرام من حسن سياسة وتصرّف، وأنّه بفضل سياستهم الحكيمة الموافقة للشرع تحقّقت السعادة لهم، وحوّلوا ذلك القرن إلى خير القرون: "إنّ الصحابة الكرام هم أفضل الناس وأسماهم منزلة بعد الأنبياء -عليهم السلام- قد أداروا العالم من الشرق إلى الغرب بالعدل والقسطاس المستقيم بعد أن تنوّروا بنور محمّد ﷺ في فترة قصيرة، على الرغم من كونهم بدواً وأمّيين. وظهروا على الدول العظمى وغدوا أساتذة الأمم الراقية ذات الحضارات والعلم والسياسة، ومعلمين لها وسياسيين حكماء عادلين، فحوّلوا ذلك القرن إلى خير القرون وعصر السعادة.[٤٢٧]

---

(٤٢٤) ابن قيّم الجوزية، محمد بن أبي بكر. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتب العلمية، (بلا تاريخ) ص ٤-٥.

(٤٢٥) انظر: الشعاعات، ص ٤٦١-٤٦٥.

(٤٢٦) صيقل الإسلام، ص ٥٢٧.

(٤٢٧) الشعاعات، ص ٦٦٢.

ورفض رحمه الله رفضا شديدا مبادئ العلمانية في سياسة الجمهورية؛ لأنّها تقضي بفصل الدين عن الدولة، وهو منهج دول العولمة من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، فيقول: نحن نعلم أنّ الجمهورية العلمانية للحكومة هي فصلُ الدين عن الدنيا، ولا يَقْبَل أن تكون العلمانية رفضاً للدّين وانسلاخاً عن الدّين تماما إلا أحمقٌ لا دين له، وفي غاية الحمق. نعم! لا يوجد شعب في العالم يعيش بلا دين، والأتراك -كشعب ممتاز في كلّ العصور- أينما كانوا في أقطار الأرض لا يعيشون إلا وهم مسلمون.(٤٢٨)

ويرفض للدولة العلمانية سياسة الكيل بمكيالين، فهي تطلق العنان للرذيلة والفوضى، وللكفر والإلحاد، وتضيّق في الوقت نفسه الخناق على أهل الإيمان والصلاح، وتجرّهم إلى المحاكم، وتعبث بحرياتهم، كما لا ينبغي ولا يحق لأرباب السياسة الذين بيدهم السلطة في آسيا التي تشرفت بالأنبياء أن يحملوا الشعب على التخلّي عن الصلاح والتقوى اللذين هما بمثابة الغذاء والعلاج من الحاجات الضرورية لهذه الأمة منذ ألف عام.(٤٢٩)

وبناء على ذلك، فأين (الديموقراطية) وحقوق الإنسان في ظلّ أنظمة العولمة السياسية، أليست من حقوق الإنسان التي كفلتها كلّ القوانين والأنظمة حرية التدين، فلماذا التضييق على المتدينين وأصحاب التقوى والصلاح!! وأين العدالة في هذه السياسة الجائرة، سياسة العولمة؟

لقد وصف النورسي السياسة الحاضرة للعولمة بأنّها سياسة دائرة على المنفعة، وأنّها شيطان في عالم الأفكار. وهذا النوع من السياسة هو وحش رهيب، إنّ السياسة الحاضرة الدائرة رحاها على المنافع وحشٌ رهيبٌ، فالتودّد إلى وحش جائع لا يدرّ عطفه بل يثير شهيته، ثم يعود ويطلب منك أجرة أنيابه وأظفاره!(٤٣٠) ولذلك تختفي منها العدالة، لأنّ المنفعة تتيح للقويّ فقط أن يعيش، ولا ضير إن ماتت الأكثرية جوعا وعطشا. هذه هي عدالة السياسة في

(٤٢٨) سيرة ذاتية، ص ٢٦٥.

(٤٢٩) انظر: سيرة ذاتية، ص ٣٧٣.

(٤٣٠) انظر: الكلمات، ص ٨٥٠، ٨٦٢. وقد سبق ذكر هاتين الكلمتين للدلالة على منافاتهما للأخلاق، وهنا يتأكد أنّهما منافيتان للعدالة.

فكر العولمة وتطبيقاتها في واقع الحياة، وهي ما فتئت تدفع الناس إلى الهلاك بسياستها المخالفة للشريعة ومقاصدها. ومن أشهر مقولاتها كما يبينها بديع الزمان كلمتان جائرتان ظالمتان:[٤٣١]

الكلمة الأولى: إذا شبعتُ أنا فمالي إن مات غيري من الجوع.

الكلمة الثانية: تحمّل أنتَ المشاقّ لأجل راحتي، اعمل أنت لآكل أنا، لك المشقة وعليّ الأكل.

ويبيّن رحمه الله أنّ الدّاء الشافي الذي يستأصل شأفة السمّ القاتل في الكلمة الأولى هو: الزكاة، التي هي ركن من أركان الإسلام. والذي يجتث عرق شجرة الزقوم المندرجة في الكلمة الثانية هو: تحريم الربا.

لا شك أنّ سياسة العولمة كما تتراءى لبديع الزمان في العالم الإسلامي هي سياسة تابعة وليست سياسة مستقلة، سياسة مستوردة، وليست ذاتية، وإذا كانت هذه السياسة خاضعة لاعتبارات المصلحة والمنفعة، فلن يكون العدل أولوية من أولوياتها، ولا قيمة من قيمها، يقول رحمه الله: "نعم! إنّ السياسة الحاضرة لإسطنبول شبيهة بـ(الإنفلونزا) تسبّب الهذيان، فنحن لسنا متحركين ذاتياً، بل نتحرك بالوساطة، فأوروبا تنفخ ونحن نرقص هنا، فهي تلقّن بالتنويم المغناطيسي ونحن نتصورها نابعة من أنفسنا، ونَجري إثر تلقينها بتخريب أعمى أصمّ."[٤٣٢]

ويصف القائمين على هذه السياسة بأنّهم متسوّلون على أبواب ظلمة أوروبا[٤٣٣] فأين موقع العدالة في سياسة هؤلاء السّاسة وقد استوردوا القوانين والأنظمة من العولمة؟ وهل أبدى الشعب رأيه في ذلك التسوّل؟ أليس من العدالة أن يؤخذ رأي الأمة بعين الرعاية والاهتمام؟

ويصف التيارات التي تأسست على هذه السياسة، سياسة العولمة بأنّها ذات مسلك ظالم لا يعرف العدل، بل يحاول أن يختطف ممتلكات الآخرين وأعمالهم، فكيف من هذا شأنه أن يحقّق العدالة، يقول: "في هذا العصر تيارات

(٤٣١) انظر: الكلمات، ص ٨٥١.

(٤٣٢) صيقل الإسلام، ص ٣٦١.

(٤٣٣) الملاحق، ص ٣٧٣.

قوية ومسيطرة إلى درجة تستحوذ على كلّ شيء، وتستولي عليه، وتمتلكه لنفسها، وتسخّره لأجلها، فلو أتى ذلك الذي يُنتظر مجيئه حقّا في هذا العصر، فإنّني أرى أنّه يغيّر هدفه، ويجرّد نفسه من الأجواء والأحوال الدائرة في عالم السياسة، حفاظاً على أعماله من أن تغتصبها تلك التيارات".[٤٣٤] ومن التطبيقات السياسية الأخرى الجارية في بلدان العالم الإسلامي بفعل التأثر بسياسة العولمة والتي يظهر بكلّ وضوح منافاتها للعدالة:

أ. مسلك الرشوة والعنصرية

وعن مسلكيات سياسة العولمة في أرض الواقع، نجدها كما يصوّرها النورسي تعبث بمقدرات الأمّة وخيراتها، ولا توجهها الوجهة الحقّ، فالعدالة أبعد ما يكون عن سياسة العولمة ومروّجيها، والرشاوى نهجها في العمل، يقول رحمه الله: "إنّ ما يعطيه أرباب السياسة الحاليون في هذه البلاد من رشاوى إلى الغرب وإلى الأجانب، ومن تنازلات سياسية و معنوية، عليهم أن يعطوا عشرة أمثالها، بل ينبغي لهم أن يدفعوها لأجل إقرار أخوة أربعمائة مليوناً من المسلمين، والتي ستتشكل على صورة جمهوريات إسلامية متحدة. وذلك لأجل سلامة هذه البلاد والحفاظ على كيان هذه الأمة، وسوف يكون ذلك هدية ضرورية وإتاوة لا ضرر فيها".[٤٣٥] إنّ تبديد أموال الأمّة ومقدّراتها سلواك عدواني آثم، وهو مناف للعدالة التي تفرض وجوب إنفاق هذا المال لمكافحة الفقر والجهل والأمية، واستثماره من أجل تحقيق التنمية على كل صعيد.

أما المسلك الآخر الذي تنهجه سياسة العولمة فهو مسلك العنصرية، ويعني الإتباع الأعمى والحمية العمياء لجنس معين، وإيثار جنس من البشر على بقية الأجناس، وهذا سلوك لا ينتهج قيم الحقّ والعدالة، يقول: "إنّ الأسس المتّبعة في القومية والعنصرية أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا توافق الحق، إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة؛ لأنّ الحاكم العنصري يفضّل من هم بنو جنسه على غيرهم، فأنّى له أن يبلغ العدالة! بينما يجبّ الإسلام ما قبله من عصبية جاهلية، لا فرق بين عبد حبشي وسيّد قرشي إذا أسلما، فلا يمكن إقامة رابطة

(٤٣٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٦.

(٤٣٥) نفسه، ص ٣٧٥.

القومية بدلاً من رابطة الدين في ضوء هذا الأمر الجازم، إذ لا تكون هناك عدالة قطّ، وإنّما تهدر الحقوق، ويضيع الإنصاف.[٤٣٦]

وإذا ما فتحنا صفحة الواقع المعاصر وجدنا عنصرية بغيضة للجنس الأبيض، وتعصبا أعمى لعرق معين، فقد سنّت دول العولمة قانونا سمته "قانون معاداة الساميّة" فكل من ينتقد دولة الاحتلال في فلسطين يصفونه بمعاداة السامية، ويعدّونه مجرما، بل قد يوظّفون مؤسسات العدالة الدولية توظيفا سياسيا خاضعا للأهواء والمصالح.

ب. التزييف والتضليل وقلب الحقائق

لقد عمدت العولمة إلى قلب الحقائق، وتزييف القيم والعبث بها، وتضليل الناس بمصطلحات جديدة ظاهرها فيها الرحمة وباطنها من قبله العذاب، وعن هذا الوضع يقول النورسي: "سيكون زمان يُخفي الضدُّ ضدَّهُ، وإذا باللفظ ضدّ المعنى في لغة السياسة، وإذا بالظلم يلبس قلنسوة العدالة، وإذا بالخيانة ترتدي رداء الحمية بثمن زهيد. ويُطلق اسم البغي على الجهاد في سبيل الله، ويسمّى الأسر الحيواني والاستبداد الشيطاني حرية". اهـ.[٤٣٧]

ولقد خدعوا الناس عندما أطلقوا اسم الجمهورية على الاستبداد المطلق، واسم النظام على الارتداد المطلق، واسم المدنية على السفاهة الصّرفة، واسم القانون على ما وضعوه من أمور قسرية واعتباطية وكفرية، فآذونا وضيقوا علينا، ووجهوا ضرباتهم نحو حكم الإسلام وحكم الأمّة خدمةً للأجنبي[٤٣٨] واتّباعا لسياسته الظالمة المنافية للعدالة.

وهو بهذا يبيّن خطورة العولمة على المفاهيم والقيم، فصياغتها على هذا النحو يمكن لاستبداد العولمة السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الأمة المسلمة.

ومن مظاهر التزييف في سياستها الخبيثة المجانبة للحق والعدالة إفسادها للقلوب الآمنة، وتعذيبها الأرواح المطمئنة. لقد أصبحت السياسة أداة للإلحاد،

---

(٤٣٦) المكتوبات، ص ٦٨.

(٤٣٧) الكلمات، ص ٨٤٩، وانظر: المكتوبات، ص ٦٠٤.

(٤٣٨) سيرة ذاتية، ص ٣٤٤.

ودعاتها يجدّون لإرجاع البشرية إلى قانون الجاهلية الرهيبة متقنعين بقناع الدفاع عن الوطن والأمة،[٤٣٩] وهذا قلب للقوانين، وعبث بالقيم والمفاهيم، إنّه عبث بقانون العدالة الفطري في النفس الإنسانية.

ومن مظاهر التزييف والخداع الذي تسلكه السياسة الجائرة للعولمة، تضييقها على الأفراد، بل التضحية بهم باسم حماية الدولة وهيبتها والحفاظ على الأمن فيها، يقول النورسي في هذا: "إنّ الدستور الغادر للسياسيين الظلمة الذي هو: "يُضحى بالفرد لأجل الجماعة" له وقائع وأحداث قاسية ظالمة تحت اسم "أهون الشرّين" الذي اتخذه بعض الحكام نوعاً من أنواع العدالة الإضافية (النسبية) وأبرزوه لمصلحة إدامة حكمهم، حتى في هذا العصر بموجب هذا الدستور الغادر، يفني أحدهم قرية كاملة بخطأ شخص واحد فيها، ويهلك ألوف الناس لتوهّم ضرر قد يلحق بسياستهم من جرّاء معارضة عشرة أشخاص..."[٤٤٠]

وعلى مستوى العالم يبيّن ما لهذه السياسة الجائرة من آثار سلبية مدمرة على حرية الإنسان وحقوق الإنسان، فيقول رحمه الله: "والحال كما أنّ الرضا بالكفر كفر، كذلك الرضا بالظلم ظلم، فلا شكّ أنّ في هذا الصراع القائم على الكرة الأرضية مظالم ودماراً تبكي من هوله السموات؛ إذ تضيع وتفنى حقوق كثير من الأبرياء والمظلومين، لأنّ دستور المدنية الدنيّة الظالم هو "يُضحّى بالفرد لأجل الجماعة" ولا يُنظر إلى الحقوق الجزئية من أجل سلامة الأمة. لقد فتح هذا الدستور ميدان مظالم شنيعة لم يُر مثلها حتى في القرون الأولى، بينما العدالة الحقيقية للقرآن المبين أنّه لا يُفدى بحقّ الفرد لأجل الحفاظ على الجماعة، فالحق حق، لا ينظر إلى كثيره وقليله.[٤٤١]

ويبيّن إزاء ذلك أنّ العدالة القرآنية المحضة، لا تهدر دم برئ ولا تزهق حياته حتى لو كان في ذلك حياة البشرية جمعاء، فكما أنّ كليهما في نظر القدرة سواء، فهما في نظر العدالة سواء أيضاً. ولكن الذي تمكّن فيه الحرصُ والأنانية

(٤٣٩) انظر: الملاحق، ص ١٥٢، ص ٣٧٢.

(٤٤٠) المصدر السابق نفسه، ص ٣٠١، وانظر: المكتوبات، ص ٦٩.

(٤٤١) الملاحق، ص ١٧٢.

يصبح إنساناً يريد القضاء على كلّ شيء يقف دون تحقيق حرصه حتى تدمير العالم والجنس البشري إن استطاع.[٤٤٢]

ويعلن رفضه الشديد لهذا السياسة الجائرة بكلّ جرأة، فيقول: "لذلك، فأنا بكلّ ما أوتيت من قوة بجانب العدالة التامة، وضدّ الظلم والسيطرة والتحكم والاستبداد".[٤٤٣]

ت. الاستبداد والحروب المدمّرة

كانت وما زالت دول العولمة تشنّ الحروب المدمرة على الدول الضعيفة لإخضاعها لسياستها، والاستبداد بها إرضاء لسياستها في تحقيق المصلحة والمنفعة، على الرغم من ادّعائها الحرية وتحقيق العدالة، يقول الأستاذ في هذا: "لقد أظهر الزمان أنّ دولة تسمى داعية الحرية، قد كبّلت بثلاثمائة من موظفيها المستبدّين ثلاثمائة مليوناً من الهنود، منذ ثلاثمائة سنة، وسيطرت عليهم كأنّهم ثلاثمائة رجل لا غير، حتى لم تتركهم يحركون ساكناً. ونفذّت قانونها الجائر عليهم بأقسى صورة من صور الظلم، آخذة آلاف الأبرياء بجريرة مجرم واحد، وأعطت لقانونها الجائر هذا اسم العدالة والانضباط، فخدعت العالم ودفعته إلى نار الظلم. هذه الدولة غدت مقتدى ذلك الاستبداد القادم في المستقبل".[٤٤٤]

ويقول معلّقا على الحرب العالمية: إنّ هذه الحرب المدمّرة ليست لأجل إحقاق الحق وإرساء الحقيقة، ولا لأجل إعلاء شأن الدين وإقرار العدالة، بل تستند إلى العناد والعصبية القومية، والمصلحة النوعية وإشباع أنانية النفس، فترتكب مظالم شنيعة ومآسي أليمة لم يُر مثيلها في العالم. والدليل على ذلك:

- إفناء الأبرياء من أطفال وعوائل وشيوخ ومرضى بالقنابل المدمّرة بحجّة وجود جندي أو اثنين من جنود الأعداء فيما بينهم..

- اتفاق أعتى المستبدّين من البرجوازيين مع الفوضيين والإرهابيين الذين هم المتطرفون من الاشتراكيين والشيوعيين.

---

(٤٤٢) المكتوبات، ص ٦٠٨.

(٤٤٣) اللمعات، ص ٢٥٨.

(٤٤٤) الملاحق، ص ١٢٦، وانظر: صيقل الإسلام، ص ٣٨٢.

- إهدار دماء ألوف، بل ملايين من الأبرياء.. والاستمرار في هذه الحرب الضارّة للإنسانية جمعاء.. وردّ الصلح والسلام..

لذلك، فإنّ الإسلام والقرآن الكريم بريئان بلا شكّ من مثل هذه الحروب المدمّرة التي لا تنسجم مع أيّ قانون كان من قوانين العدالة، ولا مع الإنسانية، ولا مع أيّ دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق.[٤٤٥]

ث. شيوع الظلم واضطراب العالم

يتوجّه النورسي -رحمه الله- إلى دعاة العولمة من السّاسة الذين يحكمون الأمة بقوانين العولمة ناصحا إيّاهم بقوله: "أيّها الحكام! ويا من تسلمتم أمر البلاد! إن كنتم تريدون أن تسود العدالة أنحاء مملكتكم، فاقتدوا بسليمان -عليه السلام- واسعَوا مثله إلى مشاهدة ما يجري في الأرض كافّة، ومعرفة ما يحدث في جميع أرجائها، فالحاكم العادل الذي يتطلع إلى بسط راية العدالة في ربوع البلاد، والسلطان الذي يرعى شؤون أبناء مملكته، ويشفق عليهم، لا يصل إلى مبتغاه إلا إذا استطاع الاطّلاع -متى شاء- على أقطار مملكته، وعندئذٍ تعمّ العدالة حقّاً، وينقذ نفسه من المحاسبة والتبعات المعنوية.[٤٤٦] إنّ سياسة أمور الناس بشرائع بشرية وأهواء وضعية من شأنه أن يؤدّي إلى شيوع الظلم، واضطراب العالم. إنّ من أبسط الحقوق التي نصّت عليها العدالة أن يستشار الناس في القانون الذي ينظم شؤون حياتهم، وسياسة العولمة في بلاد المسلمين حرمت الشعوب المسلمة من حقّ العيش في ظلال الشريعة الإلهية ونظامها.

ويدعو لأن تكون الشريعة هي أساس الحكم، وهو ما يقتضيه قانون العدالة القرآنية، لقد ذهب الأستاذ بديع الزمان إلى أنّ العدالة في منظورها الإسلامي عامل رئيس من عوامل السلم والاستقرار العالمي؛ لما أنّ الشريعة التي قررتها مستندة إلى الحقّ، ومن شأن الحق دائما العدالة والتوازن، ومن هنا ينشأ السلام -في العالم- ويزول الشقاء.[٤٤٧]

لذلك كلّه، رأى النورسي أنّ الخوض في معترك السياسة مهلكة للإنسان

(٤٤٥) الملاحق، ص ٢٠٣.

(٤٤٦) الكلمات، ص ٢٨٣-٢٨٤.

(٤٤٧) المصدر السابق نفسه، ص ٨٥٥.

ومفسدة، قال: "ولذلك قلت: أعوذ بالله من الشيطان والسياسة؛ لكي أحافظ على نور القرآن. واعتصمت بيدي كلتيهما بذلك النور، ملقياً مطرقة السياسة جانباً."[٤٤٨] ولأنّ في ممارسة السياسة ممارسة للظلم ومجافاة للعدالة.

٥. تطبيقات العولمة في المجال الاجتماعي

يتناول الأستاذ بديع الزمان تطبيقات قوانين العولمة على الحياة الاجتماعية وخرمها لقانون العدالة، ويردّ ردّا قاطعا على تلك القوانين مبيّنا آثارها وأضرارها الجسيمة على الأمّة المسلمة، لكنه يبيّن قبل ذلك ثبات العدالة في الحياة الاجتماعية من منظور القرآن الكريم، فيذكر أنّ العدالة حقيقة قرآنية موغلة في أعماق الحياة الاجتماعية وذات عراقة وأصالة فيها. قال: "وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون، وكيف أنّها مدّت جذوراً عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعرىً وثيقة لا انفصام لها. ثم أفهم منها أنّ إفساد تلك الحقائق ممتنعٌ كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به وتشويه صورته.[٤٤٩]

إنّ ركيزة الحياة الاجتماعية في القرآن هي الحقّ بينما تنظر إليها العولمة على أنّها القوةّ. وهي تستهدف المنفعة في كلّ شيء، وتتخذ الصراع دستوراً للحياة، وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطةً للجماعات، وغايتها هي لهو عابث؛ لإشباع رغبات الأهواء وميول النفس التي من شأنها أن تزيد من جموح النفس وإثارة الهوى...[٤٥٠] ونتائج هذا كلّه ظلم وعدوان، وصراع وتزاحم، وسلب ونهب، ممّا هو مناف لحقيقة العدالة وقانونها. وقد بيّن النورسي عدّة مظاهر تبرز إخفاق العولمة في تحقيق العدالة في الميدان الاجتماعي في بلاد المسلمين، من أهمّها:

كبت الحريات ومصادرتها

لقد استطاع النورسي أن يكشف في وقت مبكر عن خطط العولمة في بثّ روح الفرقة والخلاف بين الناس باسم المدنية والتحضّر والتقدم، ممّا هو

---

(٤٤٨) المكتوبات، ص ٦١.

(٤٤٩) اللمعات، ص ٥٢٥-٥٢٦.

(٤٥٠) الكلمات، ص ٤٧٢.

مناف للعدالة، فإنّ قيمة العدالة لدى العولمة هي قيمة مضطربة لا ثبات لها ولا استقرار. وتوصّلا إلى مقاصدها وغاياتها الدنيئة سعت العولمة إلى مهاجمة الشريعة وتشويهها، والإساءة إلى أحكامها ودساتيرها في المجال الاجتماعي بوصفها مصدرا للعدالة، ولإحلال القوانين الوضعية مكانها. قال رحمه الله: "إنّ الذين يشنون هجومهم على الدّين يريدون أن يرجعوا بالبشرية إلى عهود البداوة والجهل بقانون أساس و دستور جار لديهم متسترين باسم المدنية، والذي يفني سعادة البشرية وراحتها وعدالتها وسلامتها، فهم يريدون أن ينفذوا هذا القانون في بلادنا المنكوبة، فيزرعون بذور الشقاق والاختلاف وبلبلة الأفكار بالتحزّب وصولاً إلى مآرب شخصية وإشباعاً للحرص والعناد".[٤٥١] وهذا من شأنه أن يؤثر سلبا في العلاقات الاجتماعية بين الناس، ويثير بينهم الشحناء والبغضاء.

ويقول رحمه الله منتقدا ظاهرة العولمة في تركيا: يعدّ إغلاق التكايا والزوايا والمدارس الدينية، وإقرار العلمانية، ووضع أسس القومية بديلاً عن مبادئ الإسلام، وفرض لبس القبعة، ورفع الحجاب، وفرض كتابة الحروف اللاتينية بديلاً عن الحروف القرآنية، وأداء الأذان والإقامة باللغة التركية، وإلغاء دروس الدين في المدارس، ومنح المرأة حقوقاً في الميراث كالرجل، وإلغاء تعدّد الزوجات، وأمثالها من الأعمال.. يعدّ كلّ ذلك بدعة وضلالة وإلحاداً. فلا شكّ أنّه متّهم بالرجعية،[٤٥٢] وفي هذا تدمير لأسس الحياة الاجتماعية والأخلاقية.

ب. مهاجمة قانون الميراث في الإسلام

هاجمت العولمة في تركيا والدول التي تلقفتها حبّا وإعجابا قانون الميراث في الشريعة، لأنّها لا ترى عدالة، والعدالة -في تصوّرها- تقتضي المساواة في الميراث بين الرجل والمرأة، وما ذلك إلا لخلل في تصوّر مكانة الرجل ومكانة المرأة في نظام الحياة، ومن هنا وجدنا الأستاذ بديع الزمان يولي مسألة الميراث اهتماما وتوضيحا كبيرا ردّا على مزاعم العولمة وافتراءاتها، فيقول: إنّ المدنية التي لا تتحاكم إلى المنطق العقلي، تنتقد الآية الكريمة: ﴿للذَكَرِ مِثلُ حَظّ الأنثيين﴾(النساء:١١) التي تمنح النساء الثلث من الميراث، أيّ: نصف ما

(٤٥١) الملاحق، ص ٣٧٣.

(٤٥٢) انظر: الشعاعات، ص ٤٨٣، وسيرة ذاتية، ص ٢١٦.

يأخذه الذكر[٤٥٣] إنّ الحكم القرآني: "فللذكر مثلُ حظِّ الانُثيين" محض العدالة وعين الرحمة في الوقت نفسه نعم، إنّ ذلك الحكم عدالة؛ لأنّ الرجل الذي ينكح امرأة يتكفل بنفقتها كما هو في الأكثرية المطلقة، أما المرأة فهي تتزوج الرجل وتذهب إليه، وتحمّل نفقتها عليه، فتلافي نقصها في الإرث.[٤٥٤]

إنّ العولمة التي تنظر إلى قضية التفاوت في الميراث بين الرجل والمرأة على أنّها منافية للعدالة، إنّما تصدر -في نظرتها هذه- عن جهالة كبيرة ونظرة سطحية قاصرة للنظام الاجتماعي والأسري في الإسلام الذي فرض النفقة على الرجل وجعلها من مهامّه الأساسية وواجباته الدينية الاجتماعية. ثمّ إنّ هذه حالة معينة تأخذ فيها الأنثى نصف حظّ الذكر، لكن نصيب الأنثى ليس دائما يكون هو الأقلّ في نظام الميراث الإسلامي.

ت. مهاجمة تعدّد الزوجات

يبيّن النورسي رحمه الله الأسس الموضوعية والأخلاقية لإباحة تعدّد الزوجات في الإسلام، بينما تحلّ العولمة مسألة التعدّد بفتح أماكن العهر والفاحشة ودور البغاء، يقول رحمه الله: "إنّ للزواج -ما دام للتكاثر وإنجاب النسل، وبقاء النوع- حكمةً وحقيقةً، فلا شك أنّ المرأة التي لا يمكن أن تلد إلاّ مرة واحدة في السنة، ولا تكون خصبة إلاّ نصف أيام الشهر، وتدخل سنّ اليأس في الخمسين من عمرها لا تكفي الرجل الذي له القدرة على الإخصاب في أغلب الأوقات، حتى وهو ابن مائة سنة؛ لذلك تضطّر المدنية إلى فتح أماكن العهر والفحش،[٤٥٥] مما أنتج أمراضا كثيرة وخطيرة، أشهرها مرض نقص المناعة المسمّى (AIDS).

إنّ المدنية الحاضرة لا تقبل تعدّد الزوجات، وتحسب ذلك الحكم القرآني مخالفاً للحكمة ومنافياً لمصلحة البشر،[٤٥٦] فهل مصلحة البشر كامنة في إباحة الفحش والرذيلة؟ وكم جرّت الفاحشة على البشرية من ويلات ونكبات؟ فهل

(٤٥٣) الكلمات، ص ٤٧٥.

(٤٥٤) المكتوبات، ص ٤٨.

(٤٥٥) الكلمات، ص ٤٧٥.

(٤٥٦) المصدر السابق نفسه، ص ٤٧٤.

هذه هي العدالة في نظر العولمة؟

لقد عمدت العولمة إلى إلغاء النكاح الإسلامي ووضع قانون النكاح المدني برقم (٧٤٣) وبموجبه حرّم تعدّد الزوجات، وأُلغي المهر المفروض على الزوج، ومنع الزوج من حقّ الطلاق، وأصبحت البنت حرّة في اختيار الزوج من أيّ دين كان، والتسوية بين الذكر والأنثى في الميراث، وأُلغي نظام الإرث بالقرابة والتعصب...[٤٥٧] وهذا كلّه إحلال للظلم والعدوان مكان العدالة، بل إحلال للجهل والظلام مكان العلم والنور.

ث. مهاجمة تشريع الحجاب

العفّة والحياء من الأخلاق التي تنعكس آثارها إيجابا على المرأة المسلمة، وفرض الحجاب عليها مما يحقّق ذلك ويبعث على الاستقرار النفسي، ويبيّن النورسي هنا سرّ تشريع الحجاب رادّا على العولمة مزاعمها مبيّنا أنّه المتناسب مع الفطرة، فيقول: "إنّ القرآن يأمر النساء أن يحتجبن بحجاب الحياء، رحمةً بهن، وصيانة لحرمتهن وكرامتهن، ولكيلا تهان تلك المعادن الثمينة معادن الشفقة والرأفة وتلك المصادر اللطيفة للحنان والرحمة تحت أقدام الذل والمهانة، ولكي لا يكنّ آلة لهوسات الرذيلة ومتعة تافهة لا قيمة لها. أما المدنية فإنّها قد أخرجت النساء من أوكارهن وبيوتهن، ومزقّت حجابهن، وأدّت بالبشرية أن يجنَّ جنونها، علماً أنّ الحياة العائلية إنّما تدوم بالمحبة والاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة، بينما التكشف والتبرّج يزيلان تلك المحبة الخالصة والاحترام الجادّ، ويسمّمان الحياة العائلية؛ ولاسيما الولع بالصور فإنّه يفسد الأخلاق ويهدمها كلياً، ويؤدي إلى انحطاط الروح وتردّيها.[٤٥٨] أما المدنية الزائفة فترى خلاف هذا الحكم الرباني، فلا ترى الحجاب أمراً فطرياً للنساء، بل تعدّه أسراً وقيداً لهن.[٤٥٩] إنّه بفضل دعاة العولمة أرغمت النساء على السفور والتكشف [٤٦٠] في بلدان دستورها الإسلام.

---

(٤٥٧) انظر: سيرة ذاتية، ص ٢١٤. والشعاعات، ص ٤٨٣.

(٤٥٨) الكلمات، ص ٤٧٦.

(٤٥٩) اللمعات، ص ٢٩٩.

(٤٦٠) سيرة ذاتية، ص ٢١٦.

إنّ رفع المدنية السفيهة الحجاب وإفساحها المجال للتبرّج يناقض الفطرة الإنسانية. وإنّ أمر القرآن الكريم بالحجاب -فضلاً عن كونه فطرياً- يصون النساء من المهانة والسقوط، ومن الذلّة والأسر المعنوي ومن الرذيلة والسفالة، وهن معدن الرأفة والشفقة والرفيقات العزيزات لأزواجهن في[٤٦١] ويجب ألاّ يبعن أنفسهن رخيصات سافرات كاشفات، عندما لا يجدن الزوج المؤمن الصالح ذا الأخلاق الحسنة الملائم لهن تماماً، بل عليهن البقاء في حياة العزوبة إن لم يجدن ذلك الزوج الكفء، كما هو حال بعض طلاب النور الأبطال، حتى يتقدّم لطلبها من يلائمها ممن تربى بتربية الإسلام، وله وجدان حيّ، ليكون رفيق حياة أبدية يليق بها، وذلك لئلا تفسد سعادتها الأخروية لأجل لذّة دنيوية طارئة فتغرق في سيئات المدنية.[٤٦٢]

إنّ الفوضى التي يوجدها التبرّج والسفور يقضّ مضاجع الاستقرار في النواحي الاجتماعية، ويؤدّي إلى قطع أواصر المحبة بين الزوج والزوجة في الأسرة الواحدة، مما ينعكس سلبا على بقية الأسر في المجتمع المسلم. وهذا يؤدّي إلى سيادة الظلم، لأنّ الزوج الذي ينفق ماله خارج البيت في نوادي الليل، لا شك أنّ سيقصّر في النفقة على أهل بيته، فيتحقّق الظلم بدل العدل في الحياة الاجتماعية. يقول رحمه الله: "وإذا ما شاهدت الزوجة فسادا في زوجها وخيانة منه وعدم وفاء، فقامت هي كذلك -عنادا له- بترك وظيفتها الأسرية وهي الوفاء والثقة فتفسدهما، يختلّ عندئذٍ نظام تلك الأسرة كليا ويذهب هباء منثوراً، كالإخلال بالنظام في الجيش".[٤٦٣]

وبناء على ذلك؛ فإنّ تشريع الحجاب يحفظ الحياة الأسرية، ويديم علاقة المحبة بين الزوجين، لما في ذلك من الخصوصية الكبيرة للزوج، فالمرأة هي لزوجها فقط، لا يمكن أن يشاركه فيها غيره، ولذلك تنبعث روح الاستقرار في عدالة تشريع الحجاب في المجتمع المسلم، ويؤكد النورسي رحمه الله هنا أنّ حياة الأسرة التي تتربى في أحضان المدنية الحديثة معرضة للانهيار والفساد،

(٤٦١) اللمعات، ص ٣٠٠.

(٤٦٢) الملاحق، ص ٣٤٢.

(٤٦٣) اللمعات، ص ٣١١.

حيث تبنى العلاقة فيها على صحبة مؤقتة يعقبها فراق أبدي،[٤٦٤] بسبب التبرّج والسفور وغيره.

هذا بعض من تطبيقات العولمة في الحياة الاجتماعية، فكم أساءت إلى مبدأ العدل، وكم سببت من مآس ومشكلات في الحياة الاجتماعية، وكم خلقت من فوضى في الأسرة المسلمة!!

٦. مواجهة العولمة

لا يتوقف النورسي عن إبداء الحلول العملية -بوصفه مصلحا مسلما- التي تنقذ الأمة المسلمة من أخطار العولمة وآثارها السيّئة، بل يحاول أن يقدّم حلولا ناجعة لمشكلاتها وآثارها الخطيرة، فبما أنّ العولمة اليوم تقوم على تكتل سياسي واقتصادي ضخم، فلا بدّ من أن يكون التكتل الإسلامي حلاّ ناجعا في رأي النورسي، إنّ التكتل في نظر النورسي هو الجدير بأن يقف في وجه العولمة، وقد تبيّن من خلال كلامه أنّ الإسلام وشريعته الغرّاء هي التي تظهر ثباتنا وكمالنا، وتحّقق وجودنا أمام الأجانب، وتنقذنا من تبعات الدنيا والآخرة، وتؤسّس الاتحاد العام الشامل، وتحول دون دخول مفاسد المدنية إلى حدود حريتنا ومدنيتنا، وتنجينا من ذلّ التسوّل من أوروبا، وتطوي لنا المسافة الشاسعة التي تخلفنا فيها عن الرقي في زمان قصير بناء على سرّ الإعجاز، وترفع من شأننا في زمن قصير بتوحيد العرب والطوران وإيران والساميين، وتظهر الشخصية المعنوية للدولة بمظهر الإسلام.[٤٦٥]

إنّ الخروج من مأزق العولمة في نظر النورسي يكمن في نبذ تقليد أوروبا، ونبذ التمسك بأذيال قيمها ورقيّها، ونبذ الاستبداد؛ لأنّه لا يأتي بالأمن ولا بالاستقرار. ويخاطب من يدعو إلى تلقف عولمة المدنية الحديثة في شتى المجالات بقوله: إن كانت غايتكم من سوق المؤمنين قسرا إلى المدنية تسهيلا لإدارة دفّة النظام وبسط الأمن في ربوع المملكة، فاعلموا جيدا أنّكم على خطأ جسيم، إذ تسوقون الأمة إلى هاوية طريق فاسد، لأنّ إدارة فئة من الفاسقين

(٤٦٤) المصدر السابق نفسه.

(٤٦٥) صيقل الإسلام، ص ٥٢٥.

الفاسدين أخلاقيا، والمرتابين في اعتقادهم وإيمانهم، وجعل الأمن والنظام يسود فيما بينهم لهو أصعب بكثير من إدارة ألوف الصالحين المتقين، ونشر الأمن فيما بينهم.[٤٦٦]

إنّ العودة إلى الذّات والانطلاق من مقومات التصوّر الإسلامي والتخّلق بهدايات القرآن الكريم كفيل بأن يرقى بالأمة إلى خير ممّا عليه مدنية الغرب. ويرى أنّ القوى الخمس التي تؤهل الإسلام للرقيّ المادي تتمثل في قوّة الحقيقة الإسلامية، والحاجة الملحة، والحرية الشرعية، والشهامة الإيمانية، والعزّة الإسلامية.[٤٦٧] وهذه القوى مجتمعة تجعل الأمة المسلمة مهيّأة كي تسير باتّجاه الرقيّ والنهضة على هدي القرآن الكريم وهدي الرسول الأمين ﷺ، ولتكون قدوة لأمم الأرض وشعوبها.[٤٦٨]

ويستبشر النورسي خيرا فإنّ صدى الحرية والعدالة ينفخ نفخ إسرافيل فيبعث الحياة في مشاعرنا المدنية، وآمالنا الخامدة، ورغباتنا القومية الرفيعة، وأخلاقنا الإسلامية الحميدة، حتى يرنّ صماخ الكرة الأرضية المجذوبة جذبة المولوي، ويهيج الأمة جميعاً ويهزها هزّ المجذوب.[٤٦٩] نحو تحقيق عدالة القرآن وإقامة دستورها في الحياة الإنسانية في مختلف ميادين الحياة، بل لتتجلى الإسلامية وتكون هي نبراس الحياة ونورها.

خاتمة الفصل

من أهمّ النتائج التي يمكن التوصّل إليها من بيان هذا الفصل ما يأتي:

- تلاعبت العولمة كثيرا بالمصطلحات والمفاهيم الحضارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية، فوقف النورسي يصحّح هذه المفاهيم على

---

(٤٦٦) انظر: اللمعات، ص ١٨٦-١٨٨.

(٤٦٧) صيقل الإسلام، ص ٤٩٩-٥٠٠.

(٤٦٨) لو كانت هذه القوى اليوم حاضرة في نفوس المؤمنين وقائمة في كيان الأمة لتأهلت الأمة لطرح البديل للاقتصاد العالمي الذي يترنح اليوم، ولكان النظام الاقتصادي الإسلامي هو البديل للنظام الاقتصادي الرأسمالي المتعثر، والذي سيؤدّي سقوطه إلى اضطرابات كبيرة وخطيرة في أنظمة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

(٤٦٩) المصدر السابق نفسه، ص ٨٥.

أسس القرآن الكريم وهدايته، وكشف عوار العولمة وتزييفها وخداعها الناس بما تطرحه من شعارات ومصطلحات ومفاهيم مغلوطة.

- الاستفادة من العولمة أمر ممكن ولكن تحت شعار "خذ ما صفا، دع ما كدر" الذي طرحه النورسي متنبّها إلى بعض إيجابيات المدنية الحديثة في الحياة العملية.

- إمكانية النهضة وفق حقائق الإسلام ومظاهر القوّة المتعدّدة فيه يجعل من المدنية الإسلامية أثبت وأرسخ من المدنية الغربية التي تنبأ النورسي بسقوطها وتلاشيها.

- رفض كلّ ما تقدّمه العولمة على صعيد السياسة والقيم والأخلاق، بل رفض السياسة من المنظور الغربي، والبديل لذلك سياسة تعشق حقائق القرآن، وتفيض على الناس بالحرية والكرامة والشورى والأمن.

- على صعيد الاقتصاد حارب النورسي العولمة التي تقوم على الربا، ودعا إلى دفع الزكاة لتجنب ويلات اجتماعية خطيرة، وآثار مسلكية عقيمة.

- إنّ ما حدّدته الشريعة من حقوق للمرأة في الميراث والحجاب، أو ما أباحته من تعدّد الزوجات هو الحق والعدالة، وهو الكمال الملائم للفطرة وللطبيعة الإنسانية، إنّ المدنية الغربية -العولمة- لم تحسن النظر إلى حقائق الشريعة، بل قد أعماها التعصب عن التفكير النزيه والموضوعي بأسرار هذه الحقائق وأبعادها الإيجابية في واقع الحياة.

خاتمة الكتاب

تبيّن بصورة واضحة أنّ النورسي -رحمه الله- مجدّد على صعيد الدراسات القرآنية والعقدية والحضارية، ولقد أسهم إسهاما واضحا في التنظير الفكري للحقائق الإسلامية في مختلف ميادين العلم والمعرفة. وإعادة بناء الشخصية الإسلامية على أساس من هداية القرآن الكريم وسنّة النبيّ الأمين محمّد ﷺ. وكان للثقافة الشمولية التي شكلت فكره أثر كبير في وقوفه في عصر التحدّي والانكفاء الحضاري للأمة في وجه التحدّيات الخطيرة للمدنية الغربية التي بثّت الإلحاد، وشكّكت في عقائد الإيمان، وأثارت الشبهات على كتاب الوحي، وزيّنت له الكفر والباطل، وألهمته فعل المنكرات، وحرضته على اقتناص الشهوات، وعلمته كيف يكون عبدا للشهوة والمنفعة، فوقع عدد كبير من أبناء المسلمين ضحايا مكرها وخداعها، بل استطاعت أن تجد من أبناء المسلمين عبيدا مخلصين لفكرها وثقافتها.

إنّ أخطر الآثار المترتبة على الانعكاسات الثقافية للمدنية الغربية في المجتمعات المسلمة قد تمثلت في تبديل القيم والمفاهيم وقلبها عن طبيعتها النبيلة إلى قيم ومفاهيم مزيّنة برّاقة في ظاهرها، لكنها في حقيقتها قيم رذيلة خدّاعة، ومفاهيم مزيفة مضلّلة. ولو نظرنا في واحدة من هذه القيم كالعفّة -مثلا- التي ألقت على الحجاب والاحتشام بالنسبة إلى المرأة ثوب الفضيلة، والتي تبدّلت بفعل هذه المدنية -العولمة- فأصبحت بعد تبديلها تخلّفا ورجعية وهمجية وشذوذا، وكيف حلّ السفور والتبرّج مكانها فأصبح عنوان الرقيّ والتقدّم والحضارة بالنسبة إلى المرأة، وكيف تفنّنت العولمة في هتك حجاب المرأة وعفّتها عبر الموضة والأزياء والدعاية والإعلان والعطور وأدوات التجميل حتى لم يبق لها شيء مستور. ولاحظ ما نتج عن تبدّل هذه القيمة من دمار للمرأة والأسرة خصوصا والحياة الاجتماعية عموما؛ فتحولت طبيعة العلاقة مع المرأة من كونها زوجا للرجل وشقيقة له في بناء الحياة، إلى كونها وسيلة متعة وترفيه وتسلية للرجل، بل إلى علاقة ذكر بأنثى. من هنا ظهر النورسي بفكره يقاوم هذه

الأوضاع الجاهلية في المدنية الحديثة، ويحذّر أبناء أمّته من التبعية والانسياق وراء هذه المظاهر البراقة الخدّاعة، ويبيّن الآثار الخطيرة المترتبة على قبول قيم العولمة وثقافتها في واقع الحياة الاجتماعية.

لقد استعرض هذا الكتاب أبرز مواطن الإصلاح والتجديد في قضايا القرآن الكريم والإنسان في فكر النورسي، فيذكر إعجاز القرآن وما أضافه من أفكار جديدة فيه، فأكّد وجوها قالها العلماء من قبل، وأضاف وجوها لم يسبقه إليها أحد، وردّ على شبهات معاصرة ردودا مقنعة. إنّ أهمّ ما يميّز فكر النورسي هنا بيانه تلك الأبعاد والظلال المعرفية والحضارية التي وصل إليها إعجاز القرآن عنده، لقد استطاع بالإعجاز أن ينقذ كثيرا من إيمان العوام من المسلمين، وأن يبيّن أنّ المستقبل للإسلامية الحضارية التي تنطلق من القرآن الكريم وإعجازه.

ويذكر مقاصد القرآن ويتناول الإضافات العلمية والمعرفية من تسمية مقاصد جديدة للقرآن الكريم، ففي عصره كان الظلم -ولا يزال- ظاهرة تسود الحياة البشرية عموما، فالقوي يأكل الضعيف، والغني يأكل الفقير، والدولة الأقوى تدمر الدولة الأضعف، في هذه الأوضاع قامت العدالة في فكر النورسي مقصدا رئيسا من مقاصد القرآن الكريم، فإنّ الظلم ظاهرة لا تحمد عقباها. لقد تحدّدت مقاصد القرآن الكلية والرئيسة والفرعية للقرآن الكريم، وتضمنت إضافات جديدة إلى دراسات السابقين، وكان لهذه الإضافات آثار منهجية تسهم إلى حدّ كبير في ضبط منهج التعامل مع القرآن الكريم وتفسيره وتوجيهه ليخدم واقع المجتمعات الإسلامية، ويقترب من خصوصياتها ومشكلاتها مقدّما هداية الرحمة إلى العالمين.

كذلك، يكشف البحث عن جوانب التجديد في تناول موضوع الإيمان بالآخرة وأهميتها وضرورتها، والأبعاد المعرفية والتربوية التي امتدّت إليها عقيدة الإيمان باليوم الآخر في فكر النورسي، وما لهذه الأبعاد من آثار عملية تربوية واقعية في حياة المسلمين أفرادا وجماعات. لقد رأى النورسي حالة من الذهول والتعامي عن الآخرة وآثارها في واقع الحياة بسبب عمليات التغريب التي جرت في كيان هذه الأمة، واستمرّت فترة طويلة من الزمان بفعل العولمة

ومروّجيها وعبيدها المخلصين حتى تحوّلت الحياة إلى فوضى لا ضابط لها، وآذنت بشقاء لا نظير له، فنهض يجدّد الإيمان بالآخرة، ويبنيه على أصول علمية ومعرفية كثيرة تقطع الشك باليقين، ويبيّن آثارها الجميلة على نفسية الناس أطفالا وشبانا وشيوخا، ويبرز آثارها الإيجابية على واقع حياتهم، لكي تهدأ حياة الناس وتطمئن، وتستقرّ على أصول ثابتة، بدل أن تموج بالفتن والفوضى والاضطرابات، وتعجّ بالصيحات والآهات ألما وحسرة.

وحتى يكون للمسلم أثر فاعل ومهمّة منجزة في واقع الحياة، لا بدّ له من معرفة الموقع الذي رسمه له القرآن الكريم، فتوجّه النورسي في عصر الانكفاء الحضاري للأمة إلى إعادة وضع الإنسان المسلم في موقعه الصحيح في الحياة المعاصرة، ليعيد الثقة إلى نفسه، ويبين له مكانته الراقية التي سلبتها منه العولمة، وضللته ضلالا بعيدا بمنتجاتها المزخرفة، فبيّن مظاهر التكريم الإلهي للإنسان ومفسداته، وما لهذه المظاهر من آثار عملية على نفسية المسلم المعاصر، وما لها من انعكاسات إيجابية على مهامّه في الحياة، فهو محور الكائنات.

لقد وقف النورسي على حقيقة المدنية الغربية التي ألقت بظلالها على المجتمعات الإسلامية، فاستطاع أن يبرز مشكلاتها وجنايتها على الإنسان، بل على المجتمعات الإنسانية عموما، ويبيّن ما سبّبته لها من كوارث ومصائب وأحزان، فأشهر سيفي الأخلاق والعدالة في وجه الأوضاع الجاهلية التي قذفت بها العولمة في مختلف جوانب الحياة مؤكدا من خلال تطبيقاتهما -الأخلاق والعدالة- إفلاس العولمة معرفيا وحضاريا، فضلا عن إفلاسها على صعيد القيم والثقافة. ولذلك جاءت تحذيراته شديدة لأبناء أمته من تقليدها في القيم والمبادئ والأخلاق.

لقد كان النورسي منفتحا غير منغلق على تلك الثقافة التي شكلت تحديا لأمته الإسلامية، فدعا إلى توظيف العولمة ومنجزاتها لصالح الإسلامية الحضارية، وبيّن أنّ هذه المدنية قد تضمنت جوانب نفعية كثيرة، فدعا إلى الأخذ بها واستخدامها استخداما آمنا، تحت شعار "خذ ما صفا، دع ما كدر".

وكان النورسي بصيرا بما يدور حوله من مجريات سياسية على الرغم من

عدم اشتغاله بالسياسة، فلنظره الثاقب لم يكن خطابه وعظا وإرشادا، ولم يقتصر على توجيه اللوم والتأفّف من تلك الأوضاع الجاهلية في العالم الإسلامي عموما وفي تركيا خصوصا، بل قام يقدّم حلولا ومقترحات عملية ضرورية لنهضة الأمة ورقيها، بل تفوّقها على المدنية الغربية، فإنّ المستقبل لها، لكن لا بدّ من العودة إلى الذّات والانطلاق منها في بناء النهضة والحضارة. وتوظيف حقائق القرآن في الحياة بدلا من استيراد القوانين من أوروبا وأمريكا والتبعية لهما في كلّ شيء. كذلك، فإنّ تكتل مليار مسلم ليكونوا وحدة عضوية واحدة أو جسدا واحد كفيل بالوقوف في وجه تكتل العولمة وأخطارها.

وهكذا، فإنّ هذه الأمة مؤهلة بما تمتلك من إيمان وقيم ومثل وأخلاق، ودستور خالد يمدّ الحياة بما تحتاجه من نظم وتشريعات قادرة على أن تعيد مجدا لها ما قد سلف، فقد كانت أنموذجا يُحتذى للأمم كلّها. وقد عشق الناس هذا الأنموذج فأمسكوا به، وعضّوا عليه بالنواجذ، فاستقرّ في قلوب الناس أكثر ممّا استقرّ في أرضهم في بلاد مثل ماليزيا وإندونسيا والهند والصين وروسيا وغيرها من البلدان. وهذا دليل بنى عليه النورسي رحمه الله نظرته التفاؤلية بأنّ المستقبل للمدنية والحضارة الإسلامية، وأنّ مستقبل المدنية الغربية إلى أفول وزوال، أو إلى تراجع وانحطاط لا شكّ في ذلك أبدا.

دليل المصادر والمراجع

الأدنروي، أحمد بن محمّد. طبقات المفسرين، المدينة المنورة: مكتبة العلوم، ١٩٩٧.

الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب. المفردات، تحقيق: محمّد سيّد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، بلا تاريخ.

الباجوري، إبراهيم. شرح جوهرة التوحيد، تنسيق: محمد الكيلاني، بيروت: مجهول مكان النشر، بلا تاريخ.

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيّب. إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، القاهرة: دار المعارف، بلا تاريخ.

البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح،(متن فتح الباري) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض: دار الإفتاء السعودية، بلا تاريخ.

- البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح، تحقيق: مصطفى البغا، بيروت: دار ابن كثير، ١٩٨٧،

بدوي، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، القاهرة، دار نهضة مصر، بلا تاريخ.

بدوي، عبد الرحمن. موسوعة الفلسفة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٤.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨١.

ابن تيميّة، أحمد بن عبد السلام. مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن النجدي، السعودية: الرئاسة العامة لشؤون الحرمين، بلا تاريخ.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن. دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد التنجي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٥.

الجرجاني، محمد بن علي. التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ

جولن، محمد فتح الله، تقديم كتاب المثنوي العربي النوري، مطبوع مع المثنوي، صفحة (ت).
الجويني، مصطفى الصاوي. منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، القاهرة: دار المعارف، (الطبعة الثالثة).
ابن حزم الظاهري، علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة: مكتبة الخانجي، بلا تاريخ.
الحسني، إسماعيل. نظرية المقاصد عند ابن عاشور، الولايات المتحدة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥.
الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمّد. بيان إعجاز القرآن، مطبوعة ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق: محمد زغلول سلام ومحمد أحمد خلف الله، مصر: دار المعارف، بلا تاريخ.
درويش، أحمد. تحديات الهوية العربية بين ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، مصر: مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩٨ لسنة ٢٠٠٠م.
الدغامين، زياد خليل. إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي، إزمير: دار النيل، ١٩٩٨.
الدغامين، زياد خليل. عقيدة البعث وكيف تناولها القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة مسجلة بقسم أصول الدين، الجامعة الأردنية ١٩٨٧.
الدّغامين، زياد خليل. محدّدات علاقة القرآن الكريم بالكتب الإلهية السابقة ومقاصدها وأبعادها المنهجية، مجلة الشريعة والقانون، جامعة الإمارات العربية، العدد ٣٤ لسنة ٢٠٠٨.
الدّغامين، زياد خليل. "نظرية الإمام الغزالي في التعامل مع القرآن الكريم"، مصر: مجلة المسلم المعاصر، العدد ٨٠ لسنة ١٩٩٦.
الدّهلوي، أحمد شاه ولي الله. الفوز الكبير في أصول التفسير، بيروت: دار قتيبة، ١٩٨٩.
الرازي، محمد بن أبي بكر. مختار الصحاح، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٩.
الرازي، فخر الدين محمد بن عمر . الأربعين في أصول الدين، الهند: دائرة

المعارف العثمانية، ١٣٥٣هـ،
الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. مفاتيح الغيب، بيروت: دار الفكر، ١٩٨١.
الرافعي، مصطفى صادق. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصر: المكتبة التجارية، ١٩٦١.
رضا، محمّد رشيد. الوحي المحمدي، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧٩.
الريسوني، أحمد، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٩٩٢.
الزرقاني، محمد عبد العظيم. مناهل العرفان في علوم القرآن، مصر: مطبعة الحلبي، بلا تاريخ. الزمخشري، جار الله محمود بن عمر. أساس البلاغة، بيروت: دار صادر، ١٩٧٩.
الزمخشري، جار الله محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مصر: دار الكتاب العربي، بلا تاريخ.
السجستاني، سليمان بن الأشعث، أبو داوُد. السنن، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: دار الفكر، (بدون تاريخ).
السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. الإتقان في علوم القرآن، بيروت: المكتبة الثقافية، ١٩٧٣.
الشاطبي، أبو إسحق إبراهيم بن موسى. الموافقات، تعليق عبد الله دراز، بيروت: دار المعرفة، بلا تاريخ.
الشوكاني، محمد بن علي. إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوّات، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٤.
الشوكاني، محمد بن علي. نيل الأوطار، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢هـ.
الصنعاني، محمد بن إسماعيل. سبل السلام ، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٠هـ.
ابن عاشور، محمّد الطاهر. التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤.
ابن عاشور، محمّد الطاهر. مقاصد الشريعة الإسلامية، تونس: الدار التونسية للنشر، بلا تاريخ.
عامر، فتحي. فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، القاهرة:

المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٥. عباس، فضل حسن، إعجاز القرآن الكريم، عمّان، دار النشر مجهولة، ١٩٩١.
عبد الحميد، محسن. مقدمة كتاب إشارات الإعجاز للنورسي.
عبد الحميد، محسن. النورسي متكلم العصر الحديث، القاهرة: سوزلر للنشر، ١٩٩٥.
عبد الرحمن، عائشة. التفسير البياني للقرآن الكريم، مصر: دار المعارف، بلا تاريخ.
ابن عبد السلام، عزّ الدين أبو محمّد. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، بيروت: مؤسسة الريان، ١٩٩٠
عبده، محمّد. دروس من القرآن الكريم، بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٨٤.
ابن أبي العزّ، علي بن أبي العزّ الحنفي. شرح العقيدة الطحاوية، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٩.
العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض: دار الإفتاء السعودية، بلا تاريخ.
الغزالي، أبو حامد محمّد بن محمّد. إحياء علوم الدين، بيروت: دار المعرفة، بلا تاريخ.
- إحياء علوم الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦.
الغزالي، أبو حامد محمّد بن محمّد. جواهر القرآن، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨١.
الغزالي، محمّد. كيف نتعامل مع القرآن، مدارسة أجراها معه عمر عبيد حسنة، الولايات المتحدة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٢.
الغزالي، محمّد. المحاور الخمسة في القرآن، دمشق: دار القلم، ١٩٩١.
الفاروقي، إسماعيل. الملل المعاصرة في الدين اليهودي، بيروت: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٨.
القرضاوي، يوسف. كيف نتعامل مع القرآن الكريم، جامعة قطر: مركز بحوث السنة، ١٩٩٦.
القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة،

بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢.
ابن قيّم الجوزية، محمد بن أبي بكر. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتب العلمية، بلا تاريخ.
المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧.
ابن منظور، محمد بن مكرم، جمال الدين الإفريقي. لسان العرب، بيروت: دار صادر، بلا تاريخ.
المودودي، أبو الأعلى. المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب: محمد كاظم سباق، الكويت: دار القلم، ١٩٨١.
النجار، عبد المجيد عمر. عقيدة تكريم الإنسان وأثرها التربوي، مصر: مجلة المسلم المعاصر، العددان ٧٣-٧٤، سنة ١٩٩٤-١٩٩٥.
ابن نجيم المصري، زين الدين بن إبراهيم. البحر الرائق شرح كنز الدقائق، المكتبة الشاملة.
النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، تحقيق: إحسان الصالحي، إستانبول: سوزلر للنشر ١٩٩٤.
النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. سيرة ذاتية، ترجمة: إحسان الصالحي إستانبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٨.
النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. الشعاعات، ترجمة: إحسان الصالحي، إستانبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٣.
النورسي، سعيد ميرزا. صيقل الإسلام، تحقيق وترجمة: إحسان الصالحي، إسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٥.
النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. الكلمات، ترجمة: إحسان الصالحي، إستانبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٢.
النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. اللمعات، ترجمة: إحسان الصالحي، استانبول: دار سوزلر، ١٩٩٣.
النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. المثنوي العربي النوري، تحقيق: إحسان الصالحي، إستانبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٤.

النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا، المكتوبات، ترجمة: إحسان الصالحي، إستانبول: سوزلر للنشر،١٩٩٢.
النورسي، بديع الزمان سعيد ميرزا. الملاحق، ترجمة: إحسان الصالحي، إستانبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٥.
النيسابوري، مسلم بن الحجاج بن مسلم. الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بلا تاريخ.

مسرد المصطلحات والأعلام

آدم ٤٤، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٣، ٦٦، ١١١، ١١٢، ١١٨، ١٢١، ١٨١، ١٨٢
آسيا ١٩٢، ٢٠٦
أحمد بدوي ٣٦
أهل الكتاب ٤٢، ٤٥، ٧٥
إيران ١٨
ابن تيمية ١٣٧
ابن عاشور ٦٧، ٦٨، ٧٥، ٧٦، ٨٩، ٢٢٦، ٢٢٨
الآخرة ٧، ١٤، ٣٦، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٦٥، ٩٠، ٩٥، ١٣١، ١٣٢، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ٢٠١، ٢٢٢، ٢٢٩
الآمدي ٦٦
الأبد ٤٦، ١٣٣، ١٧٣
الأجل ١١٦، ١٦٢
الأخلاق ٤٧، ٧٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٥، ١٧٥، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٧، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٣
الأديان ١٥٩، ١٩٢
الأسماء الحسنى ٣٤، ٣٦، ٥٢، ١١٩، ١٢٠، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٥، ١٦٦
الأشاعرة ١٥٣
الألوهية ٩٦
الأمانة ١٠٦، ١٣٥، ١٧١
الأنبياء ٤٨، ٤٩، ٥٣، ٥٦، ٦٦، ٨٤، ٨٦، ٨٨، ٩١، ٩٦، ١٠٥، ١١٢، ١١٨، ١٢١، ١٣٥، ١٣٧، ١٥٢، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ٢٠٥
الإحسان ١٤٨
الإحياء ٧١، ١٥٨
الإسلامية ١٩، ٢٨، ٤٢، ٥٠، ٥٢، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٧٢، ٧٥، ٨١، ٩١، ١٤٣، ١٤٩، ١٥١، ١٧٧، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٩١، ١٩٢، ١٩٨، ١٩٩، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٨
الإعجاز المنهجي ١٧
الإلحاد ١٢، ١٠١، ١٤٤، ١٤٥، ١٧٧، ١٨٥، ٢٢١
الإنسان ٦، ٧، ٩، ١٢، ١٣، ١٤، ١٧، ١٩، ٢١، ٣٢، ٣٦، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٥٦، ٥٩، ٦١، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨١، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٤، ٩٩، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٩، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢١٠، ٢٢٣، ٢٢٩
الإنسانية ٦، ٧، ٢٠، ٣٧، ٦١، ٧٤، ٧٧، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ١٠٧، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٥، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤،

١٧٥، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧،
١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٣،
٢١٠، ٢١٢، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٣
الإيمان ٦، ٧، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ٢٢، ٣٥،
٤٠، ٤١، ٤٢، ٥٢، ٨١، ٩٤، ١١٣، ١١٤،
١١٥، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٣،
١٣٥، ١٣٨، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦،
١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٧،
١٥٨، ١٥٩، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٨، ١٧٠،
١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨،
١٨٤، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٩،
٢٠٦، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣
الباجوري ١٥٠، ٢٢٥
الباقلاني ٣٣، ٣٤، ٦١، ٢٢٥
البرزخ ١٦٢
البشرية ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٦٢،
٧٧، ٧٨، ٨٢، ٨٧، ٩٢، ١٠٧، ١٢١،
١٢٢، ١٣٣، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦، ١٨١،
١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤،
١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢١٠،
٢١٤، ٢١٥، ٢٢٢
البعث ٩، ٧٣، ٨٨، ١٠٠، ١٦٠، ١٦٣،
٢٢٦
البقاء ١٣٢، ١٣٣، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨،
١٦٠، ١٦٢، ١٦٧، ٢١٧
البقاعي ٦٠، ٩٣
البناء ١٢٧، ١٦٠
البيهقي ١٥٠، ٢٢٥
التاريخ ١٨١
التكامل المعرفي ٥، ١٨، ٤٨
التكريم ٦، ١٤، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧،
١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٣، ١١٤، ١١٦،
١٢٠، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧،
١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧،
١٣٨، ١٣٩، ٢٢٣
التوحيد ٣٢، ٥١، ٧١، ٧٣، ٧٩، ٨٢، ٨٤،
٨٥، ٩٦، ٩٨، ١٠٠، ١١٥، ١٣٨، ١٥٠،
١٥٦، ٢٠٣، ٢٢٥، ٢٢٧
الجاحظ ٢٢
الجرجاني ٢٢، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٧، ٣٨، ٥٩،
١٩٩، ٢٢٥، ٢٢٦
الجغرافيا ١٦٠
الجمال ٧، ٣٧، ٥٢، ٩٦، ١٤٦، ١٥١، ١٥٣،
١٥٤، ١٥٥
الجمهورية ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٩
الجنة ٥٤، ٩١، ١١٦، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٧،
١٤٨، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٩، ١٧٤، ١٨٣
الجويني ٢٨، ٢٢٦
الجيولوجيا ١٨، ٩٨
الحشر ٧، ٤٥، ٧٢، ٨٤، ٨٧، ٨٨، ٨٩،
٩٢، ٩٥، ٩٦، ١٢٢، ١٢٥، ١٣٢، ١٤٤،
١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٧، ١٦٠،
١٦١، ١٦٣
الحق ٩، ١٠، ٥٨، ٦٢، ٧٠، ٧٦، ٧٨، ١٥٣،
١٥٦، ١٥٩، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٤، ١٩٢،
١٩٧، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢١١،
٢١٢، ٢٢٠
الحكمة ٤٣، ٤٨، ٤٩، ٥٦، ٨٦، ٨٧، ٨٨،
٩١، ٩٢، ١٠٨، ١٢٣، ١٥١، ١٥٢، ١٥٤،
١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠،
١٦٥، ١٨٣، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠١
الحكيم ٤٩، ٥٠، ٥٤، ٥٧، ٨٣، ٨٥، ٩٢،
٩٣، ١١٠، ١١١، ١١٥، ١٢٣، ١٢٧،
١٣٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٣
الحياء ٢١٦
الخطابي ٣٢، ٢٢٦
الخلافة ٦، ١٨، ٧٦، ١٠٦، ١١٣، ١١٨،
١٢٢، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٥، ١٣٨، ١٧١،
١٨٨
الخلود ١٠٦، ١٣١، ١٣٩، ١٥٦، ١٦٢،
١٦٧، ١٦٨
الدّهلوي ٧٢، ٧٣، ٢٢٦
الديمقراطية ٢٠٤
الرأفة ١٠٨، ١٥٧، ٢١٧
الرازي ٧١، ٧٢، ٧٨، ٩٣، ١٠٨، ١٤٩،
١٥٣، ٢٢٧
الربا ٤٧، ١٤٦، ١٧٦، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥،
٢٠٠، ٢٠٧، ٢٢٠
الربوبية ٣٥، ٤٢، ٤٩، ٥٢، ٨٣، ١١٢، ١٢٦،
١٥٣، ١٥٧، ٢٠١

الرسالة ٤١، ٤٥، ٨٦، ٩٦، ٩٨، ١٢٩
الروح ٥٠، ٨٩، ١٢٧، ١٦١، ١٦٢، ١٨٥، ٢١٦
الزرقاني ٥٢، ٢٢٧
الزكاة ٤٠، ٤٧، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٧، ٢٢٠
الزمخشري ٢٠، ٢٧، ٢٨، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٦٠، ١٣٥، ٢٢٦، ٢٢٧
الزهراء ١٨
السعادة ٤٢، ٤٧، ٧٣، ٨٤، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ١٠٧، ١١٤، ١١٧، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٢، ١٥١، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٩، ١٧٦، ١٩٩، ٢٠٥
السياسة ٧، ١٢، ١٠١، ١٧٤، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٠، ٢٢٩
السيوطي ٢١، ٢٤، ٣٠، ٣٦، ٥٦، ٢٢٧
الشاطبي ٦٧، ٦٨، ٧٢، ٧٨، ٩٣، ٢٢٧
الشريعة ٢١، ٤٣، ٥٠، ٥٢، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٧، ٨٦، ٨٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٦، ١٢٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٢، ٢١٤، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٢٨
الشهوة ١٧٢، ٢٠٠
الشيوعية ١٨٥
الصحابة ٢٠٥
الصدق ١٥٨
الصراع الفكري ١٨، ٧٢
الصلاة ٤٠، ٤٥، ٩١، ١٢٦، ٢٠٥
الصنعاني ١٥٦، ١٥٧، ٢٢٨
الصوفية ٥٦، ٦٨، ٨٥، ١٢٢
الضلالة ١٣٠، ١٤٥، ١٥٣، ١٦٩، ١٧٨، ١٨٩، ١٩٨
الطب ٥٠
العبادة ٧٣، ٧٦، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٨، ١٦٦
العبودية ٤٩، ٦٩، ٧٦، ٨٩، ١١٣، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٣، ١٥٩، ١٧١، ١٩٠
العدالة ٧، ٨، ١٤، ٤٩، ٧٩، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ١٠١، ١٢٣، ١٢٦، ١٣١، ١٣٣، ١٥٥، ١٥٨، ١٧٩، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٠، ١٩١، ١٩٥، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٢
العزّ بن عبد السلام ٣٢
العلم ٦، ٢٢، ٣١، ٥٦، ٧١، ٧٣، ٨٠، ١٠١، ١٠٧، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١٣٧، ١٣٨، ١٧١، ١٨٥، ١٨٨، ٢١٦، ٢٢١
العلماء ١٠، ١٣، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٣٠، ٣٢، ٣٨، ٤٩، ٥٣، ٥٤، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٣، ٧٤، ٧٧، ٧٨، ٨٤، ٨٩، ٩٣، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٦، ١٢٠، ١٥٦، ١٥٧، ١٩٩، ٢٠٤، ٢٢٢
العلمانية ٢٠٦، ٢١٤
العلوم ١٨، ٢٠، ٤٤، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٨، ٦٠، ٦٢، ٦٥، ٧٠، ٧٣، ٧٧، ٨١، ٨٢، ٩٢، ١١٠، ١١٣، ١٥٠، ١٥٩، ١٧٧، ١٩٢، ٢٢٥، ٢٢٨
العمارة ١١٨
العناية ٧٣، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ١٠٥، ١٥٠، ١٦٠
العولمة ٧، ٨، ١٤، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦
الغزالي ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٣، ٨٤، ١١١، ١١٢، ١٤٩، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩
الفراهي ٩٣
الفسق ١٩٧
الفطرة ٧، ٥٢، ٧٤، ٧٧، ٨٠، ٨٤، ٨٨، ١٠٩، ١١٤، ١٣٦، ١٤٦، ١٥٠، ١٦١،

١٦٢، ١٩٢، ١٩٧، ٢٠٢، ٢١٦، ٢١٧
الفلسفة ٤٧، ٨٢، ١٠٦، ١١٤، ١١٦، ١٨٦، ١٨٧، ٢٢٥
الفلك ٩٨
الفناء ١١٨، ١٥٢، ١٥٥، ١٦٠، ١٦٧، ١٦٩
الفيزياء ١٨، ٥٠
القدر ٩١، ١٢٤، ١٥٨
القرضاوي ٧٧، ٢٢٩
القرطبي ١٥٠، ٢٢٩
القشيري ٣٢
القفقاس ١٨
القومية ١٩١، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٤، ٢١٩
الكآبة ١٤٤
الكذب ١٣٦، ١٩٠
الكفر ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٣، ١٨٥، ٢٢١
الكون ١٧، ٣٦، ٤٥، ٤٩، ٥٠، ٥٧، ٦٦، ٦٧، ٧٧، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٤، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٧، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٦، ١٧١، ١٩٩، ٢٠٣، ٢١٣
الكيمياء ٥٠
المستعمرات البريطانية ١٨
الملائكة ٥٦، ١٠٥، ١٠٦، ١١٢، ١١٨، ١٤٧، ١٥٨، ١٦٤
الموت ٧، ١٤٦، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٨
النار ١٤٧، ١٧٢، ١٩٧
النبوة ٢١، ٢٥، ١٢١
النظام ٧، ٥١، ٨٠، ٨٥، ٨٩، ٩٢، ٩٣، ٩٨، ١٠١، ١١٥، ١١٧، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٤٦، ١٥٠، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٧٧، ١٨٤، ١٩٤، ٢٠٩، ٢١٨، ٢١٩
النفاق ١٣٦
الهند ١٨، ١٥٣، ٢٢٧
الهندسة ٥٠
بلال بن رباح ١٤٥
تركستان ١٨
خديجة ١٤٥
رسائل النور ١٢، ١٣، ١٩، ٦٩، ٨٨، ٩٦، ٩٨، ١٠٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٠، ١٧١، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٢، ٢٠٣
سيّد قطب ٣٧، ٩٣، ١٠٦
عائشة ١٠٨، ١٤٥، ٢٢٨
محمد الغزالي ٧٧
محمد رشيد رضا ٧٣، ٩٠
محمد عبده ٧٣، ١٤٩